

يناير ٢٠٠٤ - العدد ٢٢١

أدب وفد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

عدد خاص

عشرون شمعة في مسيرة

أدب وفد

مختارات من الدواوين الصغيرة



هَذَا الْعَدَدُ مَهْدِي إِلَى اسْم:

لطيفة الزيات، عبد المحسن طه

بدر، ملك عبد العزيز، محمد روميش،

مجدي حستين



أدب وafd

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

شهرية يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي

تأسست عام ١٩٨٤ / السنة الواحدة والعشرون

العدد ٢٢١ / يناير ٢٠٠٤



رئيس مجلس الإدارة: د. رفعت السعيد

رئيس التحرير: فريدة النقاش

مدير التحرير: حلمي سالم

مجلس التحرير: إبراهيم أصلان / د. صلاح

السروي / جرجس شكري / طلعت الشايب /

علي عوض الله / غادة نبيل / كمال رمزي /

مصطفى عبادة / ماجد يوسف

المستشارون

د. الطاهر مكي / د. أمينة رشيد
صلاح عيسى / د. عبد العظيم أنيس

شارك في هيئة المستشارين ومجلس التحرير الراحلون
د. لطيفة الزيات / د. عبد المحسن طه بدر
محمد روميث / ملك عبد العزيز

أعمال الصف والتوضيب
أحمد السجيني
نسرین سعید إبراهيم

تصحیح : أبو السعود علی سعد
لوحة الغلاف والرسوم الداخلية: للفنان ناجي كامل

الاشتراكات لمدة عام
باسم الأهالي / مجلة [أدب ونقد]: داخل مصر ٥٠ جنيها
البلاد العربية ٥٠ دولارا / أوروبا وأمريكا ٧٥ دولارا

الطباعة
شركة الأمل للطباعة والنشر
الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر
يمكن إرسال الأعمال على العنوان البريدي أو البريد الإلكتروني:
adabwanaqd@yahoo.com
موقع [أدب ونقد] على الإنترنت: adabwanaqd.4t.com

نرجو المجلة من كتابها ألا يزيد عدد صفحات المادة المرسلة عن عشر
صفحات أو ثلاثة آلاف كلمة

المراسلات : مجلة (أدب ونقد) ١ شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب / الأهالي
القاهرة / هاتف ٢٨/٢٩ / ٥٧٩١٦٢٧ فاكس ٥٧٨٤٨٦٧

المحتويات

- أول الكتابة فريدة النقاش ٥
- افتتاحية (١) د. على مبروك ١٠
- افتتاحية (٢) حلمى سالم ١٢
- افتتاحية (٣) على عوض الله ١٣
- افتتاحية (٤) عيد عبد الحليم ١٧
- افتتاحية (٥) أحمد الشريف ١٩
- هذه الدواوين الصغيرة ٢١
- الليل ، الرحم محمد روميش ٢٣
- مختارات من أبى حيان التوحيدي « أدب ونقد » ٤٢
- حى بن يقظان لابن طفيل تقديم : محمود أمين العالم ٥٥
- من أوراق كين سيرا ويوا ... ترجمة وإعداد : فريدة النقاش ٧٧
- مختارات من الفقه الاسود .. اختيار وتقديم : د. حسن طلب ٩٠
- مختارات من شعر رسول حمزاتوف ٩٠
- إعداد وتقديم: طلعت الشايب ١٠٣
- خطب الديكتاتور الموزونة (محمود درويش) ١٠٣
- تقديم: طلعت الشايب ١٢٠
- مختارات من الأدب الدينى الهندوسى... ١٢٠
- ترجمة وتقديم : غادة نبيل ١٤٦
- الحسبة بين الدولة المدنية والدولة الدينية... ١٤٦
- مركز المساعدة القانونية ١٧٦

أول الكتابة

فريضة النقاش

انقضت الآن عشرون عاما منذ صدور العدد الأول من «أدب ونقد» فى يناير ١٩٨٤ برئاسة تحرير الناقد الدكتور «الطاهر مكي» ،ومنذ ذلك التاريخ جرت مياه كثيرة فى نهر الثقافة الوطنية الديمقراطية .وفى أنهار حياته وحياة العالم أجمع، تحققت انتصارات شحيحة ، ووقعت هزائم فاجعة . وكان علينا طيلة الوقت أن نطير مع الأقراح العابرة ونتعايش مع الآلام العظيمة ، لكننا لم نسقط أبدا فى فخ التوجع والشكوى بل واصلنا العمل دون انقطاع كمن يحفر نفقا باتجاه الشمس.

حين بدأنا كان حزب التجمع يحبونحو عامه العاشر . وكان قد تأسس فى أبريل ١٩٧٦ كمئبر اليسار ضمن الاتحاد الاشتراكى العربى التنظيم الواحد للنظام الناصرى، وتحول التجمع إلى حزب فى نوفمبر ١٩٧٦ حيث دعا برنامجه التأسيسى إلى الدفاع عن المكاسب الاجتماعية لثورة يوليو وتطويرها ديمقراطيا وذلك بعد أن كانت سياسة الانفتاح الاقتصادى على طريق حرية الأسواق وعبادتها قد بدأت قبل عامين ، وبعد شهرين من تحول المنبر إلى حزب انطلقت هبة يناير الشعبية سنة ١٩٧٧ ، إذ خرجت الجماهير الكادحة من الاسكندرية إلى أسوان يتظاهرون احتجاجا على رفع أسعار السلع الشعبية تطبيقا لروشة صندوق النقد الدولى ، وتتفنن فى تأليف الأغنيات والشعارات والهتافات.

وكننت قد اتفقت مع الزميل «عيد عبد الحليم» أن يقوم بجمع الهتافات والقصائد مجهولة المؤلف التى رددتها الجماهير فى طول البلاد وعرضها يومى ١٨، ١٩ يناير للتعرف على مكونات الوجدان الجماعى والروح الشعبية وأحلام المصريين فى ذلك الحين ، خاصة وأن هذه الهبة والإبداع الذى أطلقته كانت تتويجا لسلسلة طويلة من الاحتجاجات العمالية والطلابية بدأت منذ هزيمة يونيه ١٩٦٧ احتجاجا على الأحكام المخففة لقادة سلاح الطيران سنة ١٩٦٨ ، وهم القادة المسئولون عن كارثة تدمير الطائرات المقاتلة المصرية على الأرض وحرمان الجيش والبلاد كلها

من الغطاء الجوى وهو ما مكن العدو الإسرائيلى من تحقيق انتصار سهل فى ستة أيام لايضاھيه فى سهولته وفداحتھ إلا سقوط بغداد فى أبريل عام ٢٠٠٢ دون مقاومة، ثم كانت المظاهرات الطلابية عام ١٩٧٢ التى طالبت بتحرير الأرض المحتلة وكان الرئيس الراحل أنور السادات قد أعلن ذلك العام عاما للحسم بعد أن اتخذ قرارا بوقف حرب الإستنزاف التى كانت قد أرھقت العدو أیما إرھاق وجعلته يرسل بالوسطاء لوقفھا وتوج طلاب جامعة القاهرة هذه المظاهرات باعتصام فى ميدان التحرير فى عز برد يناير حيث قضوا الليل فى الميدان يتناقشون ويغنون إلى أن وصلت سيارات الشرطة عند الفجر ليلقى علیھم القبض جماعات ، وكتب «أمل دنقل» حينھا قصيدته الجميلة «أغنية الكعكة الحجرية» وحين وقعت هبة يناير بعد ذلك بخمس سنوات كتب «أحمد فؤاد نجم» قصيدته كل ما تهل البشائر من يناير كل عام يدخل النيل الزنآن ، يطرد الخوف والظلام ، ودخلت القصیدتان بجدارة فى تراث أدب المقاومة الجديد الذى تواكب مع تعرفنا الحميم على شعراء وكتاب فلسطين الذين عاشوا تحت احتلال ١٩٤٨ وغابوا عنا وكان اكتشافھم مفاجأة سعيدة من محمود درويش لأميل حبيب، ومن توفيق زياد سمیح القاسم لحمد على طه وآخرین انضم إليھم بعد ذلك مبدعو الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ وعلى رأسھم الراحلان «فدوى طوقان» ومعین بسيسو ثم الأجيال الجديدة التى قدمت إضافات مدهشة فى قوة التعبير وجمالياتھ متجاوزة على عكس التوقعات صور الشعارية والخطابة السهلة، مضيئة الطابع الإنسانى الأصل لروح المقاومة وللصلابة الأخلاقية للشعب الفلسطينى المبدع الذى حول خشونة الحياة إلى فن والحجر إلى آلة موسيقية ،وقد كانت ثقافة المقاومة موضوعا ثابتا فى «أدب ونقد» عبر السنين تجلت نصوصا أدبية أو أفكارا.

أقول دافعنا كحزب ومجلة عن انجازات يوليو عند التأسيس، وفى المؤتمرين الأول والثانى للحزب واصلنا هذا الدفاع، ثم كان التراجع الشامل الذى دخل بالبلاد إلى مرحلة تبعية شاملة للولايات المتحدة الأمريكية سياسيا واقتصاديا ، عسكريا وثقافيا فتواضعت معه أهدافنا القصيرة وبرامجنا وأصبح شعار المؤتمر الثانى للحزب، التحرر من التبعية والطفيلية والفساد إلى أن وصلنا للمؤتمر الرابع الذى وضع برنامجا جديدا بعنوان المشاركة الشعبية حيث الديمقراطية بمعناها الشامل هى المدخل الصحيح لتغيير الأوضاع إلى الأفضل فى ظل استئثار طبقة، بل فئة اجتماعية محدودة بنتائج عمل طبقات أخرى يجرى استنزافھا وامتصاص دمھا وعرقھا وينطلق فى وجهھا باب السعادة وإن لم تتخل أبدا عن الاشتراكية كفكرة وهدف وقد أخذنا فى «أدب ونقد» نسهم فى تعميق مساراتھا على الصعيد الفكرى والجمالى فى زمن المشهد ما بعد الحدائى على مستوى الثقافة والخيارات السياسية فى أوروبا وأمريكا، والزمن ما بعد الاستعمارى فى آسيا

وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وارتطم الزمانين مع الأطروحات الامبريالية لكل من «فوكوياما» و«هنتجتون» حول نهاية التاريخ وصدام الحضارات.

وكان اغراء نهاية التاريخ الذى سيتوقف لدى فوكوياما عند الرأسمالية الليبرالية شديدا بعد سقوط المعسكر الاشتراكى .إذ كان هذا السقوط هو الحدث العالمى الأبرز فى نهاية القرن العشرين ،ذلك بعد أن كانت ثورة أكتوبر الاشتراكية أول ثورة ظافرة على هذا الطريق قد انطلقت فى أوله وألهمت البشرية كلها حين أسهمت فى تفجير ثورات التحرر الوطنى فى القارات الثلاث، واحتمت هذه الثورة بدولة العمال والفلاحين الوليدة «تطلع المكافحون من أجل العدل والحرية عبر المحيطات والبحار والصحارى والغابات إلى الشعب الروسى الباسل الذى استطاع - هو الجائع الفقير لكن المفعم بالأمل - أن يهزم التدخل الامبريالى الذى جند جيوش أربع عشرة دولة لوقف تقدم الثورة الاشتراكية وأخذ الشعب يبنى الدولة الجديدة إلى أن سقطت فى نهاية القرن .اعتصرنا الألم مع سقوط المعسكر الاشتراكى وافتضح أشكال القمع ومصادرة الحريات التى ارتبطت بحزب واحد تسببت البيروقراطية فى تعفنه ، وامتصت روحه وحيويته وعزلته عن الشعب ، وكانت «أب ونقد» من المجالات العربية القليلة جدا التى تابعت بهذه الدرجة أو تلك ولادة الظواهر الأدبية والفكرية الجديدة التى واكبت «البيروسترويك» ثم الانهيار وعبرت عنه دون أن تتسى المجلة أبدا ذلك التراث العظيم للفكر والأدب الاشتراكى المؤسس ، ودون أن تتخلى عن الاشتراكية كهدف رغم أن أيديولوجية الملكية الخاصة وثقافتها غزت العالم وولدت حالة من الانفجار الروحى والأثانى والبحث الكلبى عن المنفعة الذاتية فى كل الطبقات والبلدان حيث بدا كأن الاشتراكية انحدرت إلى الأبد.

وفى عصرنا الميديا الذى تشكل بصورته الجبارة على مدى العشرين عاما أصبحت كل جوانب الثقافة لا إذاعة الأخبار فحسب حكرا على حلقة صغيرة لكنها تتوسع بانتظام فى صورة شركات خاضعة للملكية الخاصة التى تعيد انتاج تصوراتها ورؤاها على صعيد كونه عبر الإعلام ، الذى أصبح أيضا مصدر ثقافة ملايين البشر ، وتزداد قوة الإعلام كثقافة فى بلدان كبلداننا ما تزال فيها الأمية الأبجدية واسعة الانتشار ، ومع مفردات ثقافة الريح بأتى ثمن وخدمة المنفعة العارية أصبح ميراث الأوهام البرجوازية راسخا فى زمن تنبؤ فيه لعبة القوى العالمية أكثر تعقيدا حيث تصعب الإحاطة بها وتفكيكها ونقدها : وأصبح الوصول الشعبى إلى الاحترام البرجوازى الزائف هدفا لدى فئات وطبقات واسعة بسبب قوة الميديا وجبروت الصورة وأكاذيبها المبهرة والمثل العليا التى تخلقها وإن تخلقت ببطء مثل بديلة.

ومع ذلك فإن الوعى الجديد فى أوساط الكادحين والشباب على الصعيد العالمى نجح فى أن

يعبى ثلاثين مليوناً من البشر ساروا في مدن العالم في اتجاه مضاد للاكاذيب ولعمى القلب الذى خلقته الامبريالية المتوحشة ساروا يرفضون العنوان على العراق وما يزالون يرفضون نتائج هذا العدوان يتظاهرون ضد الاحتلال الأمريكى - البريطانى للعراق والصهيونى لفلسطين.

بدأنا منذ عشرين عاما وكان تحرير فلسطين هدفا للعرب، وما نحن الآن نتطلع إلى تحرير العراق أيضا.

فما هو التحرير .. إنه أولا ثقافة ديمقراطية نقدية .. تصورات وأبداء وعلاقات جديدة أساسها كرامة الإنسان رجلا أو امرأة أسود أو أبيض أو أصفر فقيراً أم غنياً وكنا وما زلنا نعى أن في كل ثقافة هناك عناصر ديمقراطية منفتحة على الآخرين وعناصر أخرى جامدة تنتج كل أشكال الأصوليات المنغلقة التى تدعى نقاء خالصا لا يعرفه التاريخ ، وإن كان هذا الادعاء قد كلف الإنسانية ثمنا باهظا حين انبعثت الأصوليات النازية والفاشية والصهيونية والإسلامية وانطلقت جميعا من فكرة الخصوصية المتفوقة قومية كانت أو دينية واستغلت الحروب والنزاعات تحت راياتها.

فكانت القراءة التاريخية الواقعية للنصوص الدينية أحد الهموم الدائمة لأدب ونقد وما تزال لا فحسب باعتبارها قضية فكرية سياسية هى أحد عناوين ومواضيع الصراع بين القديم والجديد ، بل باعتبارها ضرورة للتغيير المجتمعى العميق الذى يؤسس لمفهوم المواطنه فالمواطنة مفهوم حديث يرتبط بحقوق الإنسان ولا علاقة له بالدين.

وكانت الرأسمالية الطفيلية المتحكمة حتى الآن في مصائرنا قد أطلقت العنان للإسلام السياسى أو الدعوى أو المسلح فى صراعها ضد قوى اليسار ، فأخذت دعواته من شيوخ وسياسيين يغزون كل مؤسسات المجتمع ويطبعونها بطابعهم الدينى والإسلامى وعلى الطرف الآخر احتفى المسيحيون بكنائسهم وأخذوا يبحثون عن وشائج عقيدية لاحضارية مع كل من أوروبا وأمريكا المسيحيتين خوفا من النفوذ الطاغى لجماعات الإسلام السياسى ، وحدث شرخ عميق جدا فى بنية المجتمع المصرى على أساس دينى، هو المجتمع الذى كان قد عرف مفاهيم المواطنة فى بداية القرن الماضى فأخذ يعود القهقرى إلى التمييز الدينى الذى أخذت رموزه تتبارى وهى تمشى فى الشوارع ، وتحمل الجامعات فى شكل أسلمة العلوم ، وتشغل مساحات تتسع باضطراد فى الإعلام وترتبط بشبكة عالمية هى الوجه الآخر لفكرة «هنتجتون» عن صدام الحضارات لحوارها وتفاعلها ،وتتقدم من حيث لا تدرى أو لا تدرى سنداً للمشروع المحافظ الجديد فى أمريكا الذى يقسم العالم على أساس من الدين عائدا بالصراع الطبقي العالمى إلى مرحلة قديمة إندلعت فيها الصراعات الإثنية والطائفية والقومية وهو المشروع الذى تجرى الآن عملية اختبار جديدة له فى

تقسيم العراق الذي كان قد عرف المواطنة أيضا في بداية القرن العشرين وينقسم الآن إلى طوائف وأعراق وملل دينية وتتصارع القوى التقدمية والمستتيرة فيه للحيولة دون هذا الطابع الطائفي في الحياة والسياسة .

ما يزال أمامنا الكثير لكي ننجزه في الأعوام الجديدة القادمة من عمر «أدب ونقد» . ما يزال علينا أن نواصل كما كنا قد فعلنا دائما اكتشاف الأصوات الجديدة وتقديمها إلى الحياة الثقافية ، والتعرف على التيارات الجديدة في الفكر والنقد وإدراجها في سياق الصراع العالمي بين الأمبريالية والتحرر بين العمل ورأس المال، وقراءة التحولات الجديدة في بلدنا والوطن العربي كما يعبر عنها الإبداع الأصيل الذي يقضع الزيف والسفالة حيث تنسج الرأسمالية المتوحشة والاستبداد شبكة واسعة جدا من الأكاذيب والأوهام وتنظمها تنظيما جيدا عبر الاحتفال والتلاعب بالكلمات الشعبية لاختضاع الجماهير معنويا وتقليم أظافر أي حركة للتغيير الشامل . والإبداع الأصيل وهو يفوق لأعمق الأعماق ينعش هذه الروح الوثابة العفوية الغافية ، وهو يهمس ليغير الدنيا وإن شئنا أن نظل اشتراكيين .. أن نسعى وراء حلمنا العظيم قلعينا أن نقوم بمهمتنا هذه على أفضل نحو .. أن نفرح باحتضان كل هؤلاء الجدد القادمين من الألم والخراب معفرة وجوههم لكن لؤلؤة المستحيل تختبئ في مكان من القلب وسوف تهب نفسها حتما للصادقين والأصلاء المجتهدين القابضين على مبادئهم رغم كل شيء .

«أدب ونقد مجلتكم تتطلع في سنواتها القادمة لمزيد من محبتكم . وكل عشرين عاما ونحن

جميعا بخير .

التسلط بالتنوير والسعي إلى إنتاجه

د. علي مبروك

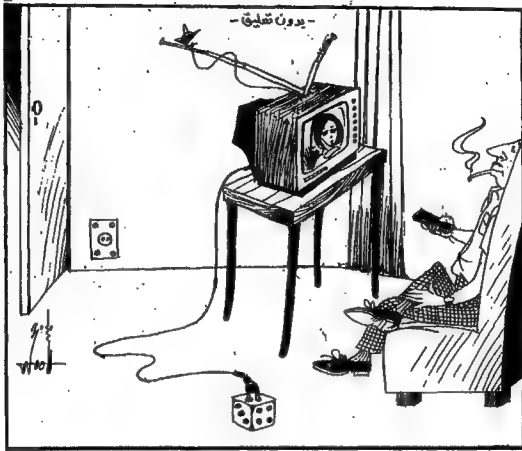
حين عدت بعد غياب قصير، قيل لي أن أحدهم من مطبوعة «المحيط الثقافي» قد ترك رقم الهاتف راجياً أن تتصل به لأمر هام .. وهكذا فإني قد هاتفته الأستاذ «أشرف عويس» الذي أعلمني أنهم بصدد إعداد ملف عن «التنوير» وأنهم يرجون مساهمتي كاتباً، بل إنهم سولما يعرفون عني من ميل للنقد- سوف يسعدهم أن يكون إسهامي ناقداً.

أسعدني أن مطبوعة تصدر عن مؤسسة ثقافية رسمية كبرى في مصر، تسعى إلى طرح السؤال- ناهيك عن إثارة «النقد»- حوله «التنوير» الذي بدا وكأنه استحالة ضمن فضاء الثقافة في مصر إلى ما يشبه الألقوم الأقدس الذي تستحيل مقارنته نقداً أو حتى فحصاً، ابتداء من دور كان قد استدعى لأدائه فيما عرف بالحرب ضد الإرهاب.

كان جوهر إسهامي أنه «التنوير» قد انبثق مسكوناً بالتوتر بين «قوة السلب» من جهة و«منطق الهيمنة» من جهة أخرى وليسوء الحظ فإنه بدا أن «منطق الهيمنة» قد راح- على مدار لحظات شتى من تاريخ التنوير- يعطل «قوة السلب» ويقصيها من حقل الاشتغال بوعلى نحو لا يتعلق فقط بالفلسفات الوضعية التي انحازت كلياً لمنطق الهيمنة على حساب «قوة السلب» التي أزاقتها هذه الفلسفات تماماً ترسيخاً للواقع القائم وتثبيتاً له، بل ويتجاوز إلى فلسفات تكاد أن تكون قد انبثت كلياً على «قوة السلب» وحدها كالهيجيلية والماركسية اللتين آلتا- في التاريخ والممارسة- إلى التضحية بقوة «السلب» وترسيخ «الهيمنة»، وإذ «التسلط» هو نهاية منطق الهيمنة، فإنه يكون هذا هو نهاية التنوير الذي هزمته «الهيمنة»، وأزاحت منه السلب، فانحرف وخان رسالته.

وليسوء الحظ فإن مازق التنوير- في السياق العربي- إنما يتأتى من انبثائه بحسب منطق الهيمنة، ولاشئ سواه، وأعني هيمنة الخارج (دولة أو نموذجاً معرفياً) على الوعي الذي لم يكن مطلوباً منه إلا الامتثال والخضوع .. وهكذا فإن وعياً يشقيه التسلط كان يرجى منه إنجاز «التحرر».

حين سلمت المادة مكتوبة لأصحاب المحيط فإنه لم يخطر ببالي أن «محيطهم» سوف يضيق ويتضاؤل أمام مساهمتي، لكنني سمعت حقاً لأن ما مورس معي من تسلط التنوير إنما يؤكد على قوة تحليلي وصلابته.



عند نفس التوقيت تقريبا كانت السيدة «فريدة النقاش» تسألني مشكورة اسهاماً للعدد التذكاري المائتين من «أدب ونقد». ولم أتردد في الكتابة ناقداً - ويقسوة - عن «اليسار» الذي راحت سفائنه تحط أيضاً على مراقي التنوير.

كتبت مندداً «أن التنوير الذي جرى إنراكه - أخيراً - كشرط للتنوير قد ظل يستدعي نفس مقولات التنوير الأوروبي، بل ونفس لحظاته وهو ما يعني أن النموذج الأوروبي للتنوير يظل هو المهيمن على وعي اليسار، الأمر الذي كان لابد أن يحيله إلى «سلطة» راحت تفرض نفسها بديلاً لسلطة المركز التي سقطت في الشرق، ويفعل عوامل ذاتية لم يكن اليسار دور فيها.. وبالطبع فإن التنوير، إذ ينبثق هكذا، كفعل يقوم شرطه خارجه (أي في سلطة النموذج الأوروبي)، فإن ذلك يعني أن يستمد سلطته من خارجه، ومن دون أن يصنعها أو ينتجها. بل إن اليسار هكذا، إنما يعيد إنتاج «التنوير» كمركز بديل للمركز الذي هوى هناك».

حين قرأت ما كتبت على صفحات مجلة «اليسار» «أدب ونقد» - ورغم خصوصية النقد وتحديده، أدركت الفارق جلياً بين من يتسلطون بالتنوير، وبين من يسعون حقا إلى إنتاجه.

صباح الخير يا مجدى

حلمى سالم

كان مجدى حسنين أسراً بروقته ، وجهده . أما نحوه وضعف بنيته فكانا لافتين لكل ذى عينين . ولعل الفترة التى شاركنى فيها معاونة- رئيسة التحرير فى «أدب ونقد» كانت فترة من أخصب سنوات المجلة ، فلم يقتصر دوره على شئون سكرتارية التحرير ، بل امتد إلى المساهمة الثابتة المفيدة فيها: من تحقيق صحفى أدبى أو فكرى إلى التقرير الموثق المتابع ، ومن عرض لكتاب إلى حوار مثير ثرى مع مفكر أو أديب . فضلا عن قصصه التى كانت تنشر من حين لآخر فى المجلة ، حاملة العديد من سماته الشخصية : الهدوء والبساطة والدهشة الطفلية وفقر العيش والحزن العميق.

هذه القصص التى صدرت بعد ذلك فى كتاب بعنوان «ناصرية سليمان» ، عن المجلس الأعلى للثقافة ، معبرة عن ضنا الفتى ، الفتى الذى ناء كتفه بالأعباء ، وبلغ الإنهاك من قلبه الشاب مبلغا باهظا ، حتى نام ذات ليلة ، ولم يستيقظ فى الصباح ككل صباح سابق.

رحيل مجدى حسنين كان بالغ الإيلام لكل زملائه فى «الأمالى» و«أدب ونقد» . وقد ظللنا لفترة طويلة ، بعد فراقه ، مشدوهين ، غير مصدقين أن مجدى لن يدخل علينا ببسمته الوائنة ، وإن يقتتل كالعصفور المجهد بين المجلة والجريدة والمصادر الخارجية المختلفة «لأن غضب- أحيانا- منه ، وإن نفرح -غالبا- به.

وكان من المفارقات القاسية ، أننا -بعد أن كنا نعد الدواوين الصغيرة معا- أعددنا -بعد رحيله ديواناً صغيراً من قصصة القصيرة عنه.

يا مجدى ، «أدب ونقد» فى عيدها العشرين تقول لك: نفتقدك أيها الفتى النحيل ، مثمنا نفتقد عبد المحسن طه بدر ولطيفة الزيات وملك عبد العزيز ومحمد روميش ، أولئك الذين أعطونى رائحتى المميزة «بجعلونى «عائلة» لا مجرد مجلة».

انتحاري الذي عشته بشغف

على عوض الله كرار

مع سينما الستينيات أحببت اللقطة الكبيرة، خاصة تلك التي تتبعها لقطة: جداً .. فهي تشعر بك بأنك متفرج على درجة من التميز والخصوصية، وتستحق أن تمنح عقب احتلال (النهاية) لشاشة العرض، درجة الأستاذية التي ستمارسها على المشائين من أقرانك عشاق حفلات الساعة السادسة، فوق أرصفة شوارع صيفية (أم المصريين)، وسعد (الزعيم) وحسين (السلطان)، ودينال (النبي) والحرية (طريق) وفيها يقع الآن (مركز الإبداع).

كل من رافقتك، أو سبقتك، أو دخل بعدك نفس الفيلم، هم تلاميذ عليهم أن يتحملوا مسيرتك الطويلة (التي لا علاقة لها بماري)، والتي ينتهي فصلها الأول برشوة بسيطة هي سنوتشات من الفول والفلافل وكيس من المخلل أشتريها من أجل تطويل القعدة على المقهى ب تطوير ما سبق أن قلته عن الفيلم ولقطاته الكبيرة التي هي مفاتيح لفهم الشخصيات، وتبيان ماخفي من علاقات بينها.

مشاعر المتفرجين تتعامل بسرعة البرق مع أسطح اللقطات القريبة ملتقطة الأثر النفسي العام فحسب، ولا تتجاوز مرحلة التأثير الطفولي العاطفي، وتدخل مرحلة التحليل إلا مع شخص مثلي فكر في الانتحار عنيداً من المرات بسبب رسوبه الملوى في مدرسة الأوائل التي يحتل طلابها كليات القمة حينها.

وكان الغريزة أن تستبدل الانتحار الحقيقي بانتحار مجازي هو إقامة شبه دائمة داخل ظلام دور العرض السينمائي (حتى صرت وقتها مرجعية هامة للسينما المصرية والأمريكية). وبعد انتهاء العروض السينمائية الثلاثة والمتعاقبة وراء بعضها البعض، كنت أخذ معي، من قلب الشاشة البيضاء، أصدقائي الجدد: أنور وجدي وشكوكو بوليلي مراد، وفريد شوقي، ومديحة يسرى، وعبد العزيز محمود، والريحاني، وشرفناطح، وحسن فايق، وزينات صدقي، وبوشارة واكيم، وفاتن البنا، وبسمة، وحليم وغيرهم ممن يملأون عشر صفحات على الأقل، وطبعاً كان يصحبتنا طرازانات هذا الزمن: ليلى باركر، وجوني ويسموار، ومعنا كذلك صاحبات الشفاه المكتنزة بالإثارة، وفي مقدمتهن: برجيت بارنو، وصوفيا لورين: (أمة من المحبة اصططعتها السينما

خصيصا لى).

وعلى الطريق الواصل ما بين دار العرض ومنزلى أظلم فى حوار دائم معهم، وحين أنخل البيت الذى لا ينفلق بابه إلا أواخر الليل توضع أمدى طعامى فوق (الطبلية) ، وأترع جالساً ، واضعاً محتويات طبق الطبخ فوق الرز المغفل فى الطبق الآخر، ويسرعة أقلب (بتشديد اللام) المحتوى الجديد وعلى نظام اللقطات السينمائية أدب(بضم الدال) ملعقتى فى منطقة يغلب عليها اللون الأخضر ، ملتقطات كرات البازلاء المصحوبة بقليل من الرز متفاديا قطعة صغيرة من البطاطس وفى المرة التالية أدبها فى منطقة يغلب عليها اللون الأصفر وفى كل الأحوال كانت مماء عشيرة(سكارليت أومارا) فى فيلم(ذهب مع الريح) تتخلل مفردات الطبق المأكول لآخره وبعد فاصل قصير وسريع من المضمضة وبلق كوب من ماء فى جوفى ، أخذ الشاى إلى غرفتى المحتشدة بالأحبة القاصمين من خلف بياض الشاشات ، نستكمل معا (على إيقاع المؤثر الصوتى لرشقات الشاى) الحكايات التى وقف زمن العرض السينمائى دون انسيابها إلى ما لا نهاية.

ويلاويل أى واقع حقيقى معيش يحاول اقترحام غرفتى ، حتى ولو كان هذا الواقع هو مجرد تحرك مقبض الباب ببطء ولأسفل ، أو مجرد صوت ينبهنى إلى أن ثمة صديقا عند باب الشقة يسأل عن وجودى من عدمه ..هنا تكون الصرخة المدوية والتى هى بلا سبب منطقى عند أمدى وأشقائى وجيرانى وبناء على تكرار هذه الصرخات قرر نساء الحى اللواتى اقتربت قلوبهن من قلب أمدى ، أن يدخلن إلى أفلامهن : بعضهم قرين بناتهن من اشتياقاتى .وبعضهن نصح أمدى بلأخذ مندبلى إلى شيخ سره باتع .وجارتنا المسيحية نصحتها باصطحابى إلى طبيب أمراض نفسية وعصبية.

طبعاً لم أبال بالطريقة الأولى، فطالما أمكك جسداً ما زال يكتسب كل عام عدداً من السنتمرات طولاً وعرضاً ومن كذاك ، فبالتركيز سوف تضيق مساحات الفراغ الخجول وبيني وبينهن ، حبذا وأن الفقر لعب دوراً استراتيجياً فى صنع البنية التحتية للمهمة الفرائزية الجلية ، وأسكتا بيوتا ضيقة الغرف ، غالباً ما يكون بينها وبين منطقة الطبخ والاغتسال ممر ضيق إلى حد الاختناق الخالق لمشهد تحرشى عابر وعامر بشفتين اتسعا (بما بينهما من ضحكة شبه مكتومة إلى حجم شاشة سينمائية ..(أشمة علاقة طردية بين الفرائز البشرية والقطات الكبيرة) ..(دائماً وفى لحظة ما ، غالباً ما تكون فارقة ، تقترننا تفصيلة صغيرة ، تستولى على مجالنا البصرى وتأخذ بعيداً عما عداها هى).

والطريقة الثالثة (الذهاب إلى الطبيب) سوف تجعلنى مجرد مادة جيدة يفككها الطبيب بأستلته ، ثم يعيد توليفها عبر أسئلة أخرى يخضع ترتيبها لمنهج يخصصه هو، لا لتسلسل زمنى يخصنى أنا، وبذا يصبح هو كاتب السيناريو ، وأيضا المتفرج الوحيد الذى لا يدفع ثمن التذكرة وفى ذات الوقت يستمتع هو بدونى برؤية جديدة للقطات كبيرة من حياتى أعتقد هو أنها مفاصل شخصيتى ، هذا فضلا عن الانقلاب الاستثنائى الذى يحدث إذ يحتم على المادة التى هى أنا أن تدفع كافة التكاليف كأتى منتج سينمائى ، غير

أن هذا الأخير يستحصل مرة أخرى على رأسه وفوقه فائض من الأرباح. الطريقة الثانية هي الأفضل بالنسبة لي (الذهاب إلى شيخ سره باتم) ، فهو كمهنة وطقوس يتداخل وعالم الأفلام السينمائية ، وهو ممثل رديئ لك (جون واين) ، ولكنه يكسب الكثير ، ويكسب (بتشديد السين) كلا من مساعديه في العمل الكثير أيضا من المال والطعام ولكن شيئا داخلي كان يصدق ، مثلما كنت أصدق أن (محمود المايحي) شرير بطبعه (مع الانتباه إلى اختلاف المداخل لعملية التصديق) التي لوحدها توقفت رغبتى في الذهاب إلى هذا الشيخ.

أنا من العشاق القليلين في العالم الذين يحبون السكنى على الحافة بين واقعين متضادين (الشاعر عبد النعم هو واحد من هؤلاء) غير أن شبابيكي تظل على الخيال ، و(منوري هذا هو الخليفة الواقعية التي أحب تنظيفها كل يوم من كافة أنواع الكائنات المذكورة في كتب مادة الأحياء المقررة على طلاب المدارس الثانوية .. هكذا أيضا في قاعات العرض السينمائي : هناك خلف الجماهير الجالس كل فرد منها مع نفسه وحدها وعلى علو لا تطوله الزوايا الطبيعية لانحناءات الرقبة : هناك ، ولأعلى توجد كوة مربعة وصغيرة ، ينفذ منها نور يتمدد طولاً على هيئة منشور رياضي قاعدته هي شاشة العرض المنبثق منها في التو واللحظة كائنات انتظر ظهورها بفارغ الصبر ، وأصبح في نعيم من هدوء سبق أن عاشه الكون قبل ظهور الكائنات الحقيقية.

هذا الهدوء يأخذني من مكاني في آخر الصفوف مقرباً من قلب الشاشة ، حيث تتوالد من اقترابي هذا لقطة كبيرة تكون منخلي إلى عملية التماهي مع الكائنات النورانية الأخذة أشكالاً تشبهنا . نفس هذا الأمر تقريباً حدث مع أحد الآباء المؤسسين للسينما العالمية (المخرج الأمريكي جريفت) الذي وقع في غرام نجمته السينمائية ، فظل دون أن يدري يقترب منها بالة التصوير : هي غارقة في أداء دورها التمثيلي ، وهو غارق في حبها ، صار لا يصل بينه وبينها سوى متحركين في وجهها هما شفاتها وعيناها (صوت وصورة تجمعهما حركة) ، هي إذن صارت سينما الخاصة جداً ، بيد أن جريفت الذي يهيم جمع مزيد من الأموال لتطوير السينما الخاصة بالجماهير ارتأى أن يضيف ما استمتع به هو إلى ما قدمه من قبل للوحش القابع في ظلام الصالة وله ألف عين وعين كان جريفت بهذه الطريقة الشبقية الغريزية قد اكتشف طريقة تصويرية جديدة تنتهي بلقطة سحرية هي (اللطة الكبيرة).

هذا هو ما كان يحدث معي وعيناي ملتصقتان في سقف الغرفة الدهون بجير أبيض ، إما أن تقترب (عين زبيدة ثروت) مني حتى لا يبقى منها سوى عينيها وشففتيها ، أو أقترب أنا منها وفي سبيل استحضار هذه اللطة السحرية أعقم جوفى من كل قلق في التفكير في أي دقيقة قادمة ، وبالتالي أكون هادئاً جداً ، خاصة ونور الظلام الهش داخل الغرفة يحيطني والأصدقاء الطامعون من بكارة الشاشات مخترقين حوائط وسقفي المنخفض والوحيد ، ينتظرون انتهاء تتر القبلات بيني وبين خضار عين زبيدة ، لنلعب جميعاً مع لعبة تفكير الحياة وإعادة خلقها من جديد.

وآه لو انقض صوت عال أنتجه واقع لم أعد أنتمى إليه ، على فضائى المنشغل أنا وإياه فى رسم وتلوين
ومنتجة الحكايات . لحظتها انقلب من حال متطرف فى الهدوء التام إلى حال متطرف فى العصبية والغضب
والتهور والجنون.

خسرت كل أصدقاء الطفولة

ومعظم أصدقاء الصبا

وكسبت انتحارى

أرأنى الآن وبشكل طفولى ، أدخل فى أفلام خفيفة مع صديقات إطمأنن إلى البشرة النورية ، والشعر
الذى يسرع الخطى نحو نهار تشويه رماديات عوادم الطرقات ومصانع البورتين الصناعيتين ، وبذلك ، وماك
، وصلت مشاعرى إلى يوتوبياها الخاصة ، فرأيتنى أحب الجميع من (استفان روستى) و(توفيق الدقن)
حتى(عيد عبد الحليم) زميلى فى (أدب ونقد) . ولكن يبدو أن انقلابا رجعيا سيحدث فى حياتى خلال
سنواتى القادمة.

من مسافة ٢٠٠ كيلو متر أحببت (أدب ونقد) اشتريتها عددا وراء عدد . وسرقت منى أيضا عددا
وراء عدد . وكنت سعيداً فى الحالين . أنا هكذا . لقد قرأتها وضممتها وتمثلتها ، فهى إذن غير موجودة
أمامى كواقع ، والواقع صرت أبغضه . أنا الآن ، كذلك مجلات الرسالة والهلال والفكر المعاصر وفصول
والثقافة الجديدة والكاتب والطليعة ودراسات اشتراكية (طبعاً أنا أتحدث عن الاصدارات التى وأكبت
مسلسلات الفضل التى صرت أمسقتها) وربما لهذا السبب لا أحب (ليس على الإطلاق) أن أحتفظ بالمجلات
التي بها أعمالى من قصص ونقد سينمائى ، على الرغم من أنى أكون شديد الحرص على شراء نسخ منها
تكفى أصدقائى المثقفين الذين انتهوا من الحياة الجامعية ويدأوا حياتهم الصومعية (بتشديد الصاد ،
وتسكين الواو) داخل المقاهى وقصور وأندية وهم يناقشوننى ، وأكون فى ذات الوقت ، فى حال أسعد ، ذلك
لأنى نسيت ما كنت كُتبت . ولكن كما ذكرت يبدو أن انقلاباً رجعياً سيحدث : صارت اللقطة القريبة تؤانى ،
وعلى أن أتحايل على نفسى ، وأعتقد أن مجلة (أدب ونقد) بكل ما يحيطها من جدران وناس هى فيلم
سينمائى جميل أعيشه الآن.

للجنة أبواب أخرى

عبد الحليم

إلى «أدب ونقد» صانعة الدهشة

الصبي الذي تجاوز العاشرة

ولم يعرف من الأنبياء

سوى من ذاق طعم اليتيم

وتفرقت أحلامه بين القبائل

ظل هكذا،

يخط على الجدران

ما يشبه العصافير

ثم ينحوها بدمعة

..

جاء ذات صباح

في قطار الدلتا

يرافقه خيال مراهق

ويمامة بجناح وحيد

ونصف صورة

لأم تطعم دجاجها

مع أطفال أربعة

في بيت ريفي

تمرسه صورة أب

مات قبيل الأربعين

مخلفاً شرخاً في الجدار

عجز البنائون عن مداراته

فلم تقدر الشمس -بعدها-
أن تمنح الملائكة
بعض الضوء
أو بعض الحنين
كبر -الآن- الصبى
تعلم أن الميادين
يقدر الفراغ الذى بين الأصابع
وأن الذى بين فتى وفتاة
أخطأ فهمه الأسلاف
فأوله ساكنو الصباحات الجديدة

**

الصبى
الذى يعرفنى -جيداً-
وأعرف من ملامحه
ما خلفته الشوارع والقرى
يعطى -الآن- شروط المحبة
ووصف التى بين القلب
وباب الرؤية
بصانعة الدهشة
فى وجه التأويل
ويعلن : أن الجنة أبواباً أخرى

نصف المعركة

أحمد الشريف

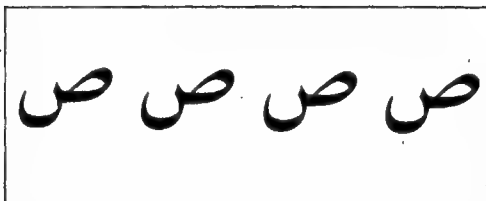
منذ ما يزيد على سنة ونصف السنة وأنا أعمل في مجلة «أدب ونقد» . يجدر بى القول ، إننى كنت متواصلاً مع المجلة قبل ذلك ، سواء عن طريق الكتابة فيها أو المشاركة فى الندوات .

بالطبع عندما اشتغلت بمواعيد شبه ثابتة والتزامات صحفية كمتابعة الأحداث الثقافية وعمل ملفات وكتابة مقالات وتعليقات فى حين ثابت، كنت فى حالة من القلق والتفكير المستمرين . قلق على كتيبى ومشاريعى الإبداعية التى أخطط لها وتحتاج إلى وقت وجهد وفترات طويلة من التأمل والمعاشية والإعداد . قلق أن يتحول ما أكتبه بفعل السرعة إلى شئ عادى ، يقرأ كمتابعة أو مقال منزوعاً منه سحر الكتابة الجيدة وخصوصيتها وتفرداها . مع الوقت وبفضل موازنة أصدقاء وبفضل شعورى بتأثير العمل الذى أقوم به، أثرت الاستمرار وفى يوم قرأت هذا الرأى للكاتب الانجليزى «تشارلس مورجان» والذى عبر إلى حد كبير عن علاقة الكاتب بالصحافة.

وضغط صحيفة كبيرة- مجلة- بتحديداتها للحين والوقت ونهيها عن الإسراف فى الذاتية وتطلبها للوضوح، وما توجه به إلى أولئك الذين تهبهم سلطانها من شعور بالمسئولية ، تنظيم له قيمة لا تقدر ، فإن المرء لا يكتب بتراخ أو تسامح مع نفسه إذا كانت آلات ميدان الطباعة تدمم فى أذنيه ، وإن المرء ليذهب كل ليلة بعزم على أن يكتب فى حدود الوسيلة المختارة ، أحسن مما كتب فى أى وقت قبلها ، وهذا أكثر من نصف المعركة..



هذه الدواوين الصغيرة



اختارت «أدب ونقد» أن تعتقل بنفسها ويقرأها، عن طريق إعادة نشر مجموعة مميزة من «الدواوين الصغيرة» التي نشرتها في السنوات العشر الأخيرة. هذا «الديوان الصغير» الذي ابتكرته «أدب ونقد» (واستعارته بعض الصحف والدوريات بعد ذلك) لتقدم لأصدقائها نصاً مميزاً كاملاً، من التراث القديم (العربي والعالمي) أو من التراث المعاصر (العربي أو العالمي).

كان هدف هذا الاختيار أن نقدم لأصدقائنا القراء -في عيد صدورنا العشرين- مزيجا من الفكر والمتعة، من النقد والجمال، من الثقافات المختلفة والمنظورات المتنوعة.

بالمودة كلها، نقدم لقرائنا، هذه المائدة العذبة الشهية التي هي «مختلف ألوانها» «أدب ونقد»



الليل .. الرحم

قصة: محمد رومي

.. الأظلاف الستة عشر تضغط وجه الأرض في قبلات متلاحقة ثقيلة ، تاركة خلفها صفين من الأقواس الهلالية.

الحرب سلاح المحراث يشق سطح الأرض . قبل أن تتدمل شغيفرتا الخط المشقوق يسقط وسطه سرسوب منتظم من حبات النرة فيلتئم عليها -كالحرم- يتهاى ليلاد جديد.

كف عم الوهيدى اليسرى تمسك بيد المحراث خشية أن يسيخ أعماق من العمق الذى يريده لإنبات النرة . يمتاء تضم أحبالا طويلة تنتهى إلى أذان بقرتين سوداوين ، يخلص نسبهما بحكم المجاورة فى الزمان والمكان ، إلى نسب عم الوهيدى بالأحبال الموصولة يعيد الرجل البقرتين أو أحدهما إلى الخط إذا ما عن لايهما أن تتحرف عنه.

على الكتف اليمنى ، تستقر قلقة فرقة تلسع -عند اللزوم- الجلد الأسود الغطيس ، وهنا يبذل العجوز مجهودا منتبها: ليحفظ توازن العمق والاستقامة للمحراث ، وليشرح ظهر الحيوان بالسوط ، وقبل أن يلتفت منه واحد من خيوط العملية، يرتفع صوته مخاطبا واحدة من البقرتين يميزها بشدة ودودة من أئنها.

-لا أرجى .

وترجع البقرة بعد أن تنفض رأسها نفضتين :عليها تلمل أو مشروع ترمد مضى عليه ستة آلاف سنة ولم يتحقق ، على أنهما -النفضتين- لا تخلوان من عتاب دينى صامت مستسلم قدرى حزين.

على هذه الأرض نفسها رعى عم الوهيدى جاموسة المرحوم أبيه ، كانت على الأرض هيشة ، تغطيها أعواد الغاب الرفيع وأشجار الطرفة والسمار ويفرش سطحها حصير من النجيل والطفاء وفى الحوافى شجيرات السريس والجلادين ، ويركد دائما عمق اصبعين من الماء يسمح لسمكة أو ضفدعة أو ثعبان مائى أن يعمر بالحياة سطح الهيشة .. ويحار العجوز.. الآن ، وكيف أن الآباء الهبل تركوا أرضا واسعة كهذه هيشة ، لمجرد رعى الجاموس الاعجف والبقر الناشف. لم يقتنع بينه وبين نفسه أن الأرض يفصلها عن البلد مشوار طويل .

كان صغيرا لا يستطيع أن يرفع مقطف السباخ إلى ظهر الحمار يوم تعارك مع الواد بركات ابن ستهم . يومها أثلم العيال -تاركين البهايم تحت أوراق النجيل ، خلصوا رقية بركات من قبضتى الوهيدى «بقوله روحى لى يا هوه»..

-كانت الأرض دى كلها هيشة يا سيدى الوهيدى ؟ السؤال من امرأة ابنة عبد الشاطر مناسبة من تلك التى ينتظرها عم الوهيدى ليقف عليها مما رآه بعينيه هاتين .. البلد ، أكوام

السباخ ، الدور التي كانت تشفى بالرجال والخير وصفصفت على امرأة ، بيوت عائلة السوالم ، التي سمع من أبيه أنها قامت كالنبات الشيطاني ، أسماء الصف الطويل من نظار الوقف ، لكن الوهيدى- اليوم- لا يصلح لاسترخاء المصطبة ، ولف السيجارة ، ووالى يا بنت عودين حطب فى الطاجن ، وهاتى ككة القهوة وفنجان البيشة.

التفت الرجل إلى امرأة ابنه ، الجهامة المنبسطة التي أستاذت بتفاصيل الوجه.. مطلة.. تجاهل السؤال عن تاريخ الأرض، استقصر عن كمية تقاوى الذرة المتبقية..

عندما استدار المحراث يشق الخط الثانى كان عم الوهيدى قد قارب على الانتهاء من حرث أرض الهيشة وتحولها إلى حقل ، طاويا دون قصد صحيفة ربما هائلة ورخية من حياة الهيشة.. أدار البهائم ..فى وسط الجسر الذى أقامه السيد أبو ذراع ، سلط عم وهيدى سلاح المحراث . شغل بالفرقة. الأظلاف غاصت فى الأرض لترفع الحد بين أرض عم الوهيدى وساحل السيد أبو ذراع.

من وسط الهيشة التي غدت حقلا ، رفع عبد الشاطر ظهره . كان يعالج بصبر خلع جذور الغاب . قبل أن يحنى لمح المحراث . البقر يتعثر فى شق واحد. -رأى .. واد يا فتح الله . على الطلاق أبوك أشطر رجل فى البلد.

فتح الله لا يرد . الشغل لم يدعه . فلاح خفافى . ظهره يكاد ينكسر نصفين ..مع أنه يعمل فى أرضهم لكنه ينتظر غطوس الشمس. على أنه- فتح الله- حقيقة لا تهزه صفة الشطارة ، فى أبيه بالذات ومن أخيه عبد الشاطر على وجه أخص فى أعماقه أن أخاه عبد الشاطر- بشعره الأسود الهبابى الخشن يغطى جسمه ورأسه وجهه ، بكلماته القليلة المتقطعة- جنس آخر. نون أن يشرح عم الوهيدى فكرته من ضم قطعة الأرض التي يزرعها السيد أبو ذراع ، فهم عبد الشاطر كل شئ . ليس بالتحديد فهم ، أحس الفكرة، كالجسم المفلت يحنى بحجرة دافئة تلفحه كل حرارتها إضافة ساحل السيد أبو ذراع تخالق حقلا مربعا يستهوى الشهوة والفتنة فى روح عم الوهيدى كما تستهوىها فى روح ابنه عبد الشاطر ، الوهيدى الثانى.

عبد الشاطر لم يتنوق ما يمكن أن يسمى معارضة أخيه فتح الله لفظة أبيه ، عبد الشاطر لا يدرى أتيان ما يشكل دفاعا عن فظة أبيه . إرادة أبيه كسقوط المطر، كموت طفل صغير ..اللهم لا اعتراض .

-جارك الغم ياد يا فتح الله.

أحس عبد الشاطر حيود فتح الله .. تضايق .

-رأى يا فتح الله .. أقولك ..والله ..ما أنت نافع.

أمسك عبد الشاطر بذقنه ، تقطعها إبرة الشعيرات كجلد القنفذة الخط الثانى شقة عم الوهيدى
فى ساحل السيد أبو ذراع . حامد لمح السيد أبو ذراع مقبلاً جرياً قاصداً عم الوهيدى .

ـحوش يا عم عبدهـ

قبل أن يصل السيد أبو ذراع إلى عم الوهيدى كان سوط الفرقة قد لف حول رقبته ، وقبل أن
يقذف السيد أبو ذراع السكينة الطويلة أم حدين والتي يربطها دائماً على اللحم لصق فخذه ، كان
عبد الشاطر قد أحاطه بذراعيه من الخلف . كانت فأس قد هوت على رأسه ، وانبعثت نافورة
دقيقة من دم أحمر . التقت عيون فتح الله وحامد . مذهولين كل يسأل الآخر مرتعباً .

فك عبد الشاطر ذراعيه . سقط السيد أبو ذراع . ابن الليل التائب .

أجال أبو ذراع فى من حوله من الرجال عنيين مغبشتين . رآهم لا بسبب انعكاسهم على
إنسانى عينيه ، عليها صورة قديمة تخيلها وانبعثت من داخل مخه كما انبعث على طرف لسانه أو
من مراكز النطق من مخه جملة أعدها قبلاً .

ـمعلش .. جزاة اللى يعيش نعمة بين الديابة .

ـ٢ـ

فتح الله تنقله الخطوات الحائرة . الليل يقارب أن ينتصف فى عينيهِ الظلام رفع الفاصل بين
البلد والحقول ، بدت له الجهة كلها قطعة بلا نهاية من السواد ، النور ذاتها نامت ، الكلاب على
السطوح وفى الحارات تتناوب النباح .. تترصد الغرياء والنئاب وسيدنا عزرائيل الذى يهبط
ويقبض الأرواح . العفاريت انطلقت من عقالها تحت الأرض . القطط والكلاب والأرانب التى تنسل
من أركان الحارات ومن فوق أكوام السباغ والتنافس الذى يسمع ولا يرى مصدره .. حقيقته فى
يقين فتح الله عفاريت متخفية . فى القاعات المظلمة . الرجال والنسوان والعيال فى سابع نومه . على
المصاطب المسطوحة ، على قباب الأفران ، على الحصير ، على قش الأرز ، المهم أن عيونهم
أغلقها النوم ، واستسلمت أجسامهم للراحة . خارج النور لا حياة لغير القطط والكلاب والعفاريت
والذين تعكرت دماؤها ولم تصاحب الفراخ فى استسلامها للنوم مع غطسة الشمس .

ـمن خلف جسر المصرف انحدرت عصابة من الرجال بندقية مبرز معلقة فى كتف كل منهم .
الجلاليب مقروطة عند الركب ينسلون لاثمس بهم النسمة نفسها . اعترضهم كلب عم السبخاوى ،
تشتمهم بصيحه يذيله . تسلقوا السطح . سعل واحد منهم انتظاراً أن ينادى عم السبخاوى ، البر
أمان . أعطى الرجل الإشارة ، هبط الآخرون . كوز الشاى على قوالح النرة المشتعلة فى الطاجن .
جوزه نحاسية صفراء سحبت مع المعسل تحترق تعامير الحشيش بدأ التحفظ على أولاد الليل .
المطاردةـ رغم كل أمان ـدقات قلبهم . عم السبخاوى . خفير الحكومة القديم لم يفته قلق ضيوفه .

قدم لهم الغريب . فتح الله بن عم الوهيدى . فتحو سيرة السيد أبو دراع . حزن بين أن يكون عميقاً أو مألوفاً -يرتسم على أوجه الرجال- إيمانهم أن القتل قدرهم. تطاردهم عقيدة أن من قتل يقتل.

فى انتظارهم الطويل للخاتمة يقتلون إذ يقع واحد منهم . الحزن ليس من أجله وحده . العقيدة اللعينة تطاردهم ، وتتحقق ، عم السبخاوى-هامش من هوامش رجال الليل لا يحس عمق كريبهم . شد واحد منهم نفساً من الجوزة . طرد الدخان من منخاريه كالبندقية أم روحين . وجه السؤال إلى فتح الله .. من قتل أبو دراع . فتح الله مأخوذ. بدا له جلساؤه من الرجال صورة خرافية لأبى زيد الهلالي سلامة، الصور البشرية تملأ ملامحهم ، لكنهم أولاد ليل، لا ينامون فى المغرب مع الفراخ خال رؤوسهم مخلوقه واقفة لاتعرف الانحناء لأحد. يستيقظون مع حلول الظلام.

فى الليل -لا الأرض- ملكهم. أحايث أبيه مع السيد أبو دراع . والله يا ابنى ما فى أحسن من اللقمة الحلال.. الضحكة أطلقها أبو دراع مجلجلة . أبو دراع يطلق كلماته بلا خوف أو لجلجة حلال والا حرام يا عم الوهيدى .. لاتؤاخذنى ، أنت رجل كوالدى ، يعنى عيلة السوالم لامؤاخذة كانت الأرض أرض أبوهم . أنا سمعت وأنت أدري أنهم ناس أغراب من البلد، كل أهالى البلد شغالين عندهم . جابر أفندى أبو سالم ياما ضربنى بالشلوت وأنا بعزق فى أرضه بالفأس . بعد كده على الحرام ياعم الوهيدى بنفسه كان يقوم يولع لى السيجارة . يا عم الوهيدى ، ان عشت نعمة تاكل الدبابة. ياما اشتغلت فى أراضى أولاد الكلب . ناس تخاف ولا تختشى . عم الوهيدى لا يعترض ، لكن الحلال والحرام بينهما التفرقة جليه كالخيط الأبيض والخيط الأسود. اسمع يا عم الوهيدى.. أنا بلا زوجة ، لكن على الطلاق أرض أولاد الكلب حرام، أسمع ، أسمع يا رجل يا عجوز... رد على .. أرض السوالم تعبوا فيها ، عرقوا فيها ، كل أهالى البلد نسوان ورجال وعيال، شغاله عندهم ، فى الحلال وفى الحرام . الرجل العجوز يدعك عقب سيجارة فى سمك فتلة دويارة أحترق حتى آخره بدعك بطرف سبابته فى أرضية المنضرة. يلتفت إلى السيد أبو دراع . يشب من على الأرض ، انزلت عباته الامبريال من على كتفه . لم يهتم بلهما ، اسمع يا واد يا سيد ، أسمع ، رد على.. يعنى يا سيد عدت رجل، يعنى يا سيد عدت بتفهم ، عدت بتعرف ، رفعت رأسك ، رد على، رد على يا سيد ، عينى فى عينك ، فهيم بن زينه لما مسكوا مراته مع جابر أفندى أبو سالم- وفهيم قام سم بهاييم جابر أفندى ، مين قتل فيهم بن زينه ، رد ، رد على سيد، عينى فى عينك. فتح الله لا يعرف بالتحديد من الذى قتل فهيم بن زينه . القلق المتسائل الذى يطوف بفكر فتح الله يعوزه التعبير عنه . كلمات أبيه تتطلق كطرقعة الفرقة. أنكر فى التحقيق أنك ضربت ، حامد هو الذى ضرب. حامد ابن الدار ، أمه طرف قرايه ، لا يهم أن كانت قرابة بعيدة ولد تربى

كابين . كان فتح الله يحب السيد أبو ذراع . كان يستشعر نوعا من الفرح . سيصيران جارين في الأرض . سيسمع منه حكايات الليل . لكن يا عم سيد أنت خلاص ، قصدى شغل الليل سبته؟ لكن يا عم سيد من قتل فهم بن زينه ، مين قتل فهم بن زينه انتقاما لحساب جابر أفندى . أنت لست كأخى عبد الشاطر ، عبد الشاطر طيب ، راجل غيظ ، يحب أباه موت ، يخلق الشغل في الغبط من تحت الأرض ، قبل الفجر ييله في أسنانه إلى الغيظ ، راكب حمار ، صاحب بقرة ، الفاس في يده كالسيجارة في يدك يا عم سيد ، يحب طين الأرض أكثر من حبه لحريمه ومرة كان يتغذى وأنسل عود ، رسيم مع اللقمة ، لم يرمه ، ضحك ، يا واد يا فتح الله كله خلقة ربنا ، البني آدمين والبهايم والسريس والبرسيم .. فكرته الثابتة أن فتح الله خسران .

هانم- في غدرة- تلقى تحية الليل على الرجال . الحديث الدائر عن قتل السيد أبو ذراع . فتح الله ، صدقوني ، لم يقتل السيد أبو ذراع . الذي قتل هوولد شغال عندهم حامد . فتح الله يؤذيه من دفاع هانم عنه وصف حامد بالشغال . حقيقة حامد ليس ابن عم الوهيدى ، ليس أخا لفتح الله أو عبد الشاطر ، هو يعمل في الغيظ والبيت ، هو منهم أو ليس منهم مسألة لم تطرح على ذهن فتح الله ، لكنه لم يخطر بباله أن حامد شغال . وقف عم السبخاوى ووقف فتح الله . على طرف المصطبة جلست هانم تعد الشاى . دعت فتح الله مشاركة الرجال الأكل . عاودت تأكيد إتهام حامد بقتل السيد أبو ذراع . عم السبخاوى وقد فتحت له أبنته الطريق اندفع . حامد هو القاتل ، واد ضائع بلا أصل ، بلا فصل ، ولدته أمه في بيت الحاج هو القاتل ، واد ضائع بلا أصل ، بلا فصل ، ولدته أمه في بيت الحاج وهيدى ، ماتت وهو مفعوص ، فتح الله ابن ناس . عم السبخاوى يسترضى أبنته هانم بمدح فتح الله . فتح الله لم ترقه الطريقة التي عرض بها الموضوع أمام الرجال . فهو لا يعرف من الذى قتل حامد سواء كانت فأسه هي التي ضربت أم لا؟ واحد من العائلة . صمم على أن يدفع عن حامد الاتهام المؤكد .. الجراءة لا تواتيه سكت .

الصمت الذى يلف الجهة كلها أمتد إلى مصطبة عم السبخاوى داخل القاعة ، شخير عيال عم السبخاوى ، سمع من حجرة مجاورة ، طال الصمت . طلب أحدهم من فتح الله أن يستأذنه يدخل فتح الله من القاعة الجوانية . خفت ما ظنته اساعة إلى فتح الله . ملعون أبوه ، ليس في الأمر سر ، وراهم سرحة ، عينهم على مواشى واحد غلبان سيسرقونها الليلة . ندت بالرجال . فتح الله ليس غريبا عن بيت السبخاوى ، مع أن الضوء ضعيف أو منعدم فقد لمح فتح الله سنة من أسنان هانم مغطاة بالذهب البراق تلمع خلف شفتيها .

-٣-

في الصباح إذ أنكرت هانم من أن فتح الله ينام في القاعة الجوانية لم يكن قصدها أن تكذب

على الرجل الكبير الذى تهين نفسه لان تدور فى فلكه . خوفها من جهامة عم الوهيدى ألجمت لسانها . تخلى عنها تفاصحها . فتح الله بالداخل بين اليقظة والنوم خمن تقريبا ما حدث، ثم قرصه صوت رشاد بن جابر أفندى يسأل هانم عن اخواتها . رشاد أفندى يشتم أولاد ستين الكلب . يتسالم مستنكراً ألا يسرحون إلى الغيط نون أن يوقظهم من النوم عشرين مرة، ويسوقهم من الدار إلى الغيط كالحمير.

تدخل هانم القاعة لا تدرى كيف تتحدث إلى فتح الله تريد أن تؤدى ما يشبه الاعتذار . سى فتح الله عارف. رشاد بن جابر أفندى كامله. ناس لسانهم طويل . ملعونة لقمة العيش التى تذلل الناس. السيد أبو ذراع هج من وشهم . هانم اقترحت على أبيها أن يقطع علاقاته بجابر أفندى . وأن يعمل اخوتها فى أراضي الفلاحين كله عمل باليومية . عم السبخاوى اتهم ابنته بنكران الجميل . العمدة يا هانم خيره راكبنا ، شغل السبخاوى خفيرا فى الحكمة، وانتقاء من بين الخفراء كان تابعه كظله . هانم تسقط هذا الجزء من دفاع أبيها عن جابر أفندى . يحس فتح الله أن فئاته محاصرة. لا يهم، المهم أنت يا هانم ، بعدك لا شئ بهم ، أمسك بيدها . تفحص وجهها فيه من أبيها سمرتها من أمها صفرة باهتة. أحس به لامعا نظيفاً . تطل من أعلاه عينان . أطال فتح الله التحديق . النور الساقط من فتحة السلم على صحن الدار منعكس على وجه هانم. العينان سودوان . الحاجب رفيع . الرموش سوداء طويلة . الرموش تتلاقى وتنفرج . الكحل الأسود كان قد صبغها فى الصباح الباكر قبل أن يستيقظ . سألها هل تعرف أن عينيها حلوتان . هانم بين أن تقف عند الحديث عن حالة عينيها ، تخرج من الحفرة التى أوقعها فيها أبوها وأخوتها وأمها ، وبين أن تطلب منه أن يمر سريعا . طليه أن يعرف أن فئاته مؤدبة . البنت ياسى فتح الله بأخلاقها . فتح الله يؤمن على الحكمة التى ألقت بها هانم . أمسك بيدها . تأمل عينيها . سأل هل حقا تحب . هانم تعترض أن يرحل بها فتح الله بعد الزواج إلى بلاد بعيدة. رجل الليل بلا بيت . لا يملك نفسه. يخرج للسرحة لا يعرف متى يعود. وقد لا يرجع أبداً . هانم ابن الليل رجل .. رحم الله سيد أبو ذراع .لم يعجبه حال عائلة السوالم مع أهالى البلد . هانم تعود يشدها خوفها . أنت فين ياسى فتح الله وأنا فين . هو يكره منها هذه اللغة أو هذه الكلمات . هى تلف بالكلمات تخفى بها رفضها متعلة بالفنى والفقير . الناس أولاد تسعة. ضغط على يدها . ثلثت ، سحن نراهما . خنقه صوتها الناعم المنغم الساخن كلسعة ضوء القمر . ضغط يدها . ركبها غضب مفاجئ . نشجت . انفجرت باكية. ليست واحدة من أياهن فقيرة لكنها تحافظ على شرفها . الحلال أحسن . ارتبك . تذكر اللحظة التى فوجئ فيها برأس السيد أبو ذراع مدشدشة بفعل فأس.. فأسه هو . فأسه أم فأس حامد.. بتحسسه الحابى ، هانم على حق. المرأة على غير زوجها

حرام، لم يتزوج السيد أبو ذراع . حرام أم حلال- ماذا كان سيقول السيد في هذه المسألة .
بارتباكها تقدم يعتذر إليها . هو يحبها . لا يفرق بين نظرة تمسح وجهها وصدرها ونهديها ، بين
دقات صدره هو كالمطلبل إذ يسمع صوتها ويبن يده تضغط يدها ، خالتي نرجس فتحت باب الدار .
عقب الباب المرتكز على قطعة صخر يلف فوقها . يزيق . مسحت هانم دموعها . لم تنظر إلى فتح
الله لكنها كانت تراه . حدثته بصوت رائق ، صوت لا أثر فيه للمروع أو نشيج أو وعظ أو ارشاد
عليه الا يزعل . هي الأخرى- بصوت خفيض- تحبه .

الام حيث فتح الله بحفاوة . سيدة تربت في بيوت الثراء . بيت جابر أفندي . سيرها إحسانها
بقيمة أن يكون للإنسان أرض يملكها وجاموسة وبقرة وعلى سطح بيته كوم الذرة . شرفتنا ياسى
فتح الله يا ابنى . أبوك رجل ولا كل الرجال . تبحث عن كلمات ترفع بها الحاج وهيدى عن حضرة
العمدة . قدمت أرغفة ساخنة لقطوره ، إلى جانبه على المصطبة جلست هانم تنفخ في القوالح
تشعلها في الطاجن . تمد الشاى . فتح الله لا يحب أن يشرب كرسى معسل على الصبح . ليس
كيفا منقوعا . أين هو من أبيها السبخاوى ، الكيف الذى صاحب الجوزة قبل أن تولد هانم وقبل
أن يتزوج الأم نرجس يمسك القوالح الملتهبة بين سبائته وإبهامه . يرصها على المعسل . يضغطها
ببطن إبهامه . أحست هانم بوضوح باحتقار لفتح الله . استصغرت . ليس رجلا . أولاد الميسورين
تنقصهم الرجولة دائما أحست بعمق بنقيصة لا تغتفر في أخلاق فتح الله ، الا يستفتح اليوم
بكرسى معسل . فتح الله لا تذهب ظنونه ولا يصدق- لو سمع- أن تكون هذه معتقدات وليفته .
هذه بالذات يعدها مزية تقريه من الناس الذين يكره تمايلهم ، عائلة السوالم ، الذين لا يشربون
الحشيش إلا فى الليل .

حوشنى ياسى فتح الله . استغاثة من السطح لواحد من أخوات هانم . حاولت أن تمنع فتح
الله من الصعود إلى السطح . صعد أخوان وليفته الذكور الثلاثة رؤسهم مكشوفة فى الشمس ،
تبقعها فتلات من الشعر . الجلد حمراء ، بيضاء مشقوقة ، ينز منها الدم . ليس دما أحمر ساخنا
كالذى انبثق من رأس السيد أبو ذراع دم أصفر ، أبيض ، دم دهنى . امرأة غريبة . ليست من
البلد تجلس ناهضة على قزحها ، تشد بقوة قطعة رقيقة من جوال سماء كيماوى . طبقة القطران
الأسود الرقيقة التى يشمع بها الجوال من الداخل ملتصقة بجلدة الرأس المتقيحة الجرداء . المرأة
تشد قطعة الخيش بقوة . قطعة الخيش الرقيقة تتمزق مرة بين يدي المرأة . مرة يطلق الولد صرخة
استغاثة . شريحة من الجلد المعبوه تتمزق ملتصقة بالخيش . خالتي نرجس ممسكة بكل قوتها .
هانم ركبها عفريت . شتمت أمها . لعنت الأولاد وأباهم . لعنت اليوم الأسود الذى ولدت فيه فى
هذا البيت . سحبت فتح الله من يده . متى سيتوب الله عليها من هذا الدار النكد . رصت كرسى

معسل . مدت غابة الجوزة إلى فتح الله . لقمها وشد نفسا عميقا كما لم يفعل من قبل . يقاوم
 رغبة فى التقيؤ . أحس الحرج مرتسما على وجهه هانم . حاول أن يخفف عنها . أحس القاعة
 الجوانية تعرف أن البلد كلها تصف أخواتها بالقرع . لحظة تعيسة من حياتها حقا أن تحضر
 المداوية لتعالج أخواتها ، وفتح الله بالدار . لم تصل إلى أن العلم بواقعة ما يختلف عن معاشيتها
 ، باحساسها أن علم فتح الله بقرع أخواتها شئ ورويته للقرع معروضا تحت أشعة الشمس شئ
 آخر ، لحظة ضعف ساحقة تعيشها هانم . تريد أن تفعل أى شئ تشعل فى البيت حريقا ، تطرد
 فتح الله . أحست نحوه برغبة فى ألا تراه . منذ عرقته وهى تسير على حبل .. تخفى عنه حياة
 أبيها وأما وإخواتها من أجل ماذا؟ هو لا يستحق . ولد مقعوص ، ولا خير فيه ، ويسرق من أبيه
 . من لا خير فيه لاهله لا خير فيه للناس ، أنها تكرهه . تكرهه ملعون هذا القاتل المجرم ، قاتل
 كابيه الوهيدى الملعون قتل صاحبه من أجل سمكة . اسمع يا فتح الله . السبخاوى يقوم بإخفاء
 المواشى المسروقة . عليك أن تعرف . صاحب عملية الافضاء أو التفضيض رغبة بارزة أن تتعرى
 هانم أمام فتح الله . فتح الله تشغله شفقة عميقة نحو هانم . لم يلتفت . توازت داخل هانم عملية
 الافضاء مع رغبة أن تخنق فتح الله ، تخنقه بيدها ، بيديها تضغط رقبتة ، مع رغبة فى أن تخنق
 فتح الله ، تخنقه بيدها ، بيدها تضغط رقبتة ، وتلتصق به ، تحضنه أمسكت بيد فتح الله .

ضغطت دون أن تحس ! كانت تبحث عن كلمات ممولة لصياغة الخبر . ما زالت حالة التقيؤ
 تشغله . رغم ذلك شدته جدية قاسية تشكل ملامح هانم وتهزها . انفراج واضح بين شفقتها .
 وفوجئ تماما . هانم تدس غابة الجوزة وتطبق عليها فمها . نفتت من منخاريها سهمين حاسمين
 من اللخان الكثيف . تموج دخان متسكعا بين فمها والهواء الخارجى . عندما وصلت هانم إلى أن
 البهائم المسروقة يخفيها أبوها فى دوار جابر الهندى أبو سالم ، حضرة العمدة ، كانت قد انتهت
 من قذف الخبر كانت قد تخلصت من توتر عضلى شد داخلها ، لم تدر هى الأخرى سببه ، بعده
 أحست بالضوء يغمر المصطبة . بارتياح محب الهى لفتح الله ، للجوزة ، لابيه ، لضغفه ، لامها ،
 لاخوتها القرع ، ليس ذنبهم أن ربنا خلقهم قرعا ، حين نحو دارهم بطيقة الهباب فى سقفها ،
 القاعات ، المصطبة ، ألباب الخشبى ، السلم ، جذع النخلة المنجور ، البلاص القاعد بجوار
 المصطبة ، الفرن ، الكانون ، التفتت إلى فتح الله . ولد طيب ، برئ ، لا يجرؤ أن يذبح فرخة ،
 هجر أباه ، دارهم ، يتحدث عن أمه كطفل ، لم يرها ، ماتت قبل ، يحب خالته ، ماذا تستطيع أن
 تقدم له ، كيف تقديه ، عليه أن يعود إلى أبيه ، إلى دارهم ، لا يجب أن يحرم من خير أبيه ، لا
 يجب أن تكون هى سببا فى شقائه ، عليها أن تمنعه بعد ذلك- عن سرقة الحبوب من سطح
 دارهم عليها- بالذات- أن تفضل بينه وبين رجال الليل الأمل .. يريد أن يكون منهم أنهمس

سألها فتح الله لم هي سارحة. أفاقت . فتح الله . بحبك . صدقتي . قلبي أبيض.. مايشيلشي من حد . حتى عيلة جابر أفندى .. يا سلام يا فتح الله .. يا سلام ، قاومت رغبة مخدرة للنعاس ألت بجسدها كله . أحسن فتح الله كريا يلمؤه . لها أن تحب كل الناس كل شئ إلا عيلة جابر أفندى ، إلا عيلة السوالم، هم أن يسألها بدت له عليمه بأسرار الليل.. هانم .. من قتل فهيم بن زينة كيف لا تذكرينه فهيم الذي ألقى السم لمواشى العمدة وهى فى الدوار.

-٤-

بعد صلاة العشاء على المصطبة الممتدة أمام دكان الشيخ سعيد قاعدة أولاد الحارة ، يتخاطفون سيجارة ، يرصون كرسى معسل ، يتراهنون على كسر أعواد القصب بسيف كف اليد ، يتراهنون على أكل قطع الصابون وشرب الجاز وسبب خفى آخر ، التعليق على سنوات الحارة عندما تمر عليهم فى الظلام . بعد الطبخ والاكل وتنويم العيال تتنادى جارات الحارة وكل جماعة قافلة صغيرة تأخذ طريقها مارة بمصطبة دكان السيد سعيد إلى التلول تفكته السروال والجلسات متقاربة -الأسرار- هى الأخرى -حمل ثقيل احتجزتها يوماً بكامله التخفف حالتين ، تنتهى الجماعات بعد أن يتخففن . عند العودة ليس شرطاً أن تكون كل جماعة هى بذاتها التى خرجت ، يعاد تشكيل الجماعات ، التلون حول البلد ملك الحريم فى الليل.

فتح الله يداوي ابن خالته . يريد أن يطمئن على عودة هانم من التل . كل عريس يرقب عروسه من رحلتها إلى تلول السباخ . لم تعد هانم . إن خالة فتح الله تشده ولد عفريت هو الذى كشف فتح الله . قم يا فتح الله شوف خالتك غائب حجتة معه . تعلمها المرأة ، لو أن لها الغرض ، وهى نائمة إلى جانب زوجها .

-أزيك يا فتح الله، لمبة الجاز معلقة على مسمار بالحائط . على المصطبة تمدد الأولاد . الخالة قبلته من خده اليمين مرة ومن الخد الآخر مرة ، احتضنته . ضمته إلى صدرها . امرأة فارعة ، عجوز ماسكة حيلها .

أزيك يا حبة عيني . عاقبتة . ألا تراه الخالة إلا يمرسال . لفت من بعيد . سألته عما اشتغله فى الغيط . فتح الله لم يشتغل . تابعت لفها . استفسرت ، الصبحة متوعدة يا خالة . وهى تعلم أنه يتهرّب . تنزعج حقيقة . سلامتك يا فتح الله ، ألف سلامة، خالتك تتحمل عنك . نسيت أنها كانت تدأوره لتصل إلى خلفه مع أهله تستقصى نوع تعب.

ألف بعد الشر عنك . تتعب يا فتح الله وأمك لا تعرف . ضمته إلى صدرها . طبطبت على كتفه . من يدري ربما لم يتناول عشاءه ، قدمت من الوجود . صحن الجينة القديمة مدهوسة فى المش ، اللفت وأعواد السريس . فتح الله تغير . الخالة رأته قد امتصه الهزال.

أبدا يا خالة والله أن حصان . أه يا فتح الله ، يا حبة عين أمك ، هل تنكر ، عيان وتنكر ، لست أقل من أمك . فتح الله لم يملك نفسه . لو أن الناس كخالته . بكى . قبلته على خديه فى طرقة ، ما عاش من أبكى فتح الله ، لا تعرف كم أعزك يا فتح الله ، سمع اسم أمه نطقته خالته وكأنتها تبسم ، كأنها تصلى على النبى . لا يجب أن يبكى فتح الله وخالته على ظهر الأرض .

فتح الله لا يود أن يعود إلى دارهم ، لا يعرف السبب بعد يوم حكاية السيد أبو دراع . كان ولد شهم يا خاله .. فتح الله لو كان يرى ما سيحدث لمنع ، هو نفسه أباه عن ضم قطعة أرض السيد أبو دراع إلى أرضهم .

كان فتح الله يقيم جسرا . انتبه على زعقة حامد . أبو دراع كان مقبلا جريا . تلملم فتح الله . تمنى لو أنه اعترف لخالته أنه هو الذى ضرب . ليلتها حاول أن ينام . تلف فى رأسه المشاهد . صورة أبو دراع مرة جالسا مع أبيه يرد على عم الوهيدى بلاخوف ، فى شهامة . على الحرام يا عم الوهيدى أنا والبندقية فى يدي ماتطرف عيني لجابر أبو سالم ، ولا لعيلة السوالم كلها ، عيلة فى عيني قش ، لا الأرض والا الهيصه تهز طرف عيني .

فتح الله لم يستطع أن يوفق بين أبو دراع الشهم وبين أبو دراع ملقى على الأرض ، على وجهه فزع ، ذلة ، انكسار ، فى لحظة لم يكن هو السيد أبو دراع ، كيف . ترسم قطعة الأرض الصغيرة . هل كان عم الوهيدى يطم . الأكيد أن لاشئ كان يمنعه من ضم الساحل . وفيهم بن زينة . ليلتها طرق فتح الله حجرة عبد الشاطر ، كان نائما استيقظ ، أنت يا فتح الله مدلع ، ولد خسران . لو أن فتح الله تعب من الشغل فى الغيط ، لو أتاه النوم وهو عائد على ظهر الحمار! عبد الشاطر يخلق فى الغيط الشغل من تحت الأرض . نصيحة عبد الشاطر أن يعود فتح الله لينام .

كان الشارع ساكتا ، مظلما . لم تكن القرية موحشة هكذا أبدا ، الخالة تقاطع . نهايته يا خالتي .

لم يكن فى الحارة دار واحدة صاحبة غير دار السبخاوى . شربت كرسى معسل ، اثنتين . لم يكن لفتح الله رغبة أن يعود إلى دارهم . غلبه النعاس . أسند رأسه إلى الحائط . استيقظ . كان الليل ساكتا . كان رجال الجوزة انصرفوا .

السبخاوى ممد . إلى جواره نام فتح الله . شد الكيس . توقف فتح الله . أحس بخجل . فى الصباح المضاحى استيقظ . لم يكن بالدار سوى هانم . قدمت له كوبا من الشاي . سأله . حكى لها استمعت إليه . حدثته . أنت ياسى فتح الله وحياة سيدنا النبى رجل بنى آدم . الاعمار بيد الله . أبو دراع كان سيموت سواء ضربه حامد أو لم يضربه . الميعة مكتوبة على جبينه . كلنا سنموت . خفف عن نفسك ياسى فتح الله .

فتح الله سمع التأكيد قاطعاً أنه لم يضرب أبو ذراع . فتح الله قلبه خفيف . حامد هو الذى ضرب . فتح الله طرح ما حدث على هانم البرامة منها سمعها بانه . يتمنى فتح الله أن يكون حكم هانم حقيقية.

الخالة لم تستمع إلى تفاصيل الجلسات الطويلة. الخالة لم تر صلة بين موت السيد أبو ذراع والطوفة التى ألت بآبن اختها مصممة على أن تعيده إلى دار أبيه.

السبخاوى يا فتح الله يا ابنى رجل من غير مؤاخذه ، اسم الله على قيمة ابن أختى ، مش راجل ، لم يكن خفيرا فى خدمة الحكومة ، سحب نسوان لجابر افندى ، جابر افندى رجل ذيله نجس.

فتح الله يجابه أمه أو خالته . المهم هى ، هانم نفسها .

الخالة لا يعوزها الرد ، اللهم احفظ ولايانا ، يا بنى لسان الناس ، لسان الناس لا يبرئ نرجس زوجة السبخاوى ، هانم تربت فى لسان الناس لا يبرئ نرجس زوجة السبخاوى ، هانم تربت فى ما عون شين ، كل واحد حسب ماعونه ، والبنت يا فتح الله يا ابنى لامها ، فتح الله لم يقتنع . هو سمع ، لكن يا خالة هل هذا يعنى أن هانم معيوبة . يا فتح الله ، من قالوا عنها قحبة هى قحبه ، الخالة لا تعرف ماذا يعجب ابنها فى هؤلاء الناس . عيلة معيوبة من طاطا لسلامو عليكو . الخالة تستعرض ، السبخاوى ، نرجس ، حتى يابنى عيالهم قرع .

فتح الله يقتنع تماما حتى نخاع عظمه بكلمات خالته . يضيف أن هذا شئ وهانم شئ ، يا خاله سيبى حكاية الزواج لن أتزوج . ترجع الخالة أن ابنها يثار . حاولت أن تصل إلى داخله . أحسبت أنه يكاد يفلت منها متخليا عن صدقه فى حديثه معها وبالتحديد مخفيا نباته عنها . يحكمها عاملاً: حينها الشديد لابن اختها ، اتفاقها مع عم الوهيدى على أن تعيد الولد الشارد . عم الوهيدى هدد بضرب الولد بالنار . هدد بقتله . الخالة هددت أن الولد قد يفعلها ويسوح فى بلاد الله . الوهيدى وافق على زواج ابنه من هانم على أن يقطع علاقته بأهل البنت . وصية عم وهيدى للخالة ألا تقدم للولد الحل الذى وصل إليه إلا بعد أن تكون قد غلبت معه . إذاً أحسبت الخالة أنه قد أن لحظة القاء الورقة الأخيرة . صارحت فتح الله بموافقة أبيه شريطة أن يقطع علاقته بالسبخاوى وعائلته.

-٥-

بترجس وخوف - ممزوجين معاً - بالربع أمسكت ألسنت جواهر بالمقبض النحاسى الأصفر ، أداراته ، وأربت ضلفة الباب ، أنسلت إلى الداخل فى وسط الحجرة تنتصب أعمدة السرير ، نيكل بيضاء مربعة ، تنزل منها الناموسية ، كالحمل ، الضوء الخفيف المتسلل من ستائر النوافذ يعكسه

طلاء الجدران الزيتي ، طريوش جابر أفندي ، الحب ، الكاكولة ، الجزمة أم استك الاجلسيه ، وفردنا الجروب فوق الرخام على الكومدينو تتدلى منهما حمالة أستك حرير . رفعت الناموسية بحذر بالغ . صبح النوم يا حاضرة العمدة . لا تنتظر ردا لم يعترض على أن تزور أخواتها . يسكنون في نفس القرية التي أقامت عليها عائلة السوالم منازلهم وسراياتهم غرب البلد . على الزوجة أن تكلف واحدة من الخادmates أعداد دورة المياه . ابريق ماء ساخن في المراض ، آخر لاغتسال حاضرة العمدة .

في منزل المرحوم أبيها ، بين أخوتها انفجرت الست جواهر باكية . أقات من اللحم الأبيض اهتزت . لن تتحمل أكثر مما تحملت . رجل زناوى ، عياره مفلوت ، أقسمت الست جواهر بابنها رشاد ، كانت تفضل الزواج من بائع فجل ، الأخوة يعلمون إلا حيلة لهم فى الأمر ، هم أنفسهم يفعلون ما يفعله جابر أفندي ، لا مفر لهم من مهاودة أختهم الكبيرة ، عليهم أن يستعدوا الليلة لضبط جابر أفندي مع واحدة من نسوان الفلاحين أولاد الكلب فى الحجرة الملحقة بأسطبل الخيل . لم يبق إلا أن ينام مفلوت العيار مع قحباته فى حجرة النوم . استعد الاخوة ، أبناء عمومة وخوالة جابر أفندي .

السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله .

تصافح المصلون . إنتهت صلاة العشاء . عيال الحارة وأولادها على مصطبة الشيخ سعيد . نسوان الحارة فى طريقهن إلى التلول . بعد الذى منه يثقن فى اختيار الطويلة للمسح ، الخشية من أن تكون الطوية افراد آدمى جاف ، الأولاد على المصطبة لا يكفون عن التعليق على مواكب النسوة . حج مجرور كل سنة وأنتم طيبين . لا يمنع أن تكون أم الواد بين الجماعة . يصفغه ولد آخر على قفاه يا ابن الكلب وسر المصحف الشريف أمك كانت فى الوسط .

الديسية طرقت منزل المرحوم .. واحد من خفراء حاضرة العمدة حماس شديد ألم بالست جواهر مع الأخوة تقدمهم كلوب ، نون ان يشعروا كانت وراهم زفة ، الاخوة أولادهم ، باب الحجرة الملحقة بأسطبل الخيول العربية الأصيلة ، الكتوف ضغطت ، انكسر الباب ، اندفع الرجال تتقدمهم الست جواهر ، باقى المولد وراهم ، فى ركن الحجرة كائن تقف مرعوبة ، مرتعشة ، تشلها هبات برد داخل مسام جلدها ، دست جلبابها من رأسها ، شدته بصعوية ، نسيت السروال- كالعلم المهزيم- معلقا على مسمار فى الحائط .

خيبة الأمل حطت على الست جواهر . أحس أخوتها بالارتياح مواجهة العمدة لم تكن شيئا هيئا . لحظة مرت أو لم تمر . الأخوة وراهم قعدت الحشيش . ألت جواهر لحظتها ممتدة لم تنته من قبل أن تلد رشاد وأخوته . من بعد ليلة زفافهما وهى ترتقب تسال حاضرة العمدة مع

واحدة من الخاديات . فى محاولة للإفلات من اللحظة تقدمت الست جواهر قوية بدينة فيها عافية تكفى لشد نورج أو محرات تتعثر فيه بقرتان من بقر الفلاحين الاعجف ، رفعت يدها إلى السماء ورن الكف على وجه هانم . هانم تلف بها أرجوحة لفات سريعة دائرية متلاحقة حتى لكأن الأرجوحة ثابتة . هانم فاجرة كأها نرجس ، فاسدة كأبيها السبخاوى السحاب . كأن الكف إشارة اليد . على الأخوة أن يجاملوا أختهم ، بالايدي بالأرجل ، بالعصى . يسقط الضرب على هانم ، منكورة ، منكمشة ، مستسلمة ، الست جواهر لا تدرى كيف تفرغ غيظها ، خيبة أملها فى أنها لم تضبط حضرة العدة . الضرب لا يكفى . همت أن تهجم على البنت وتنهش فى بطنها بأسنانها وبأظفارها فى الأماكن الحساسة . أحتارت حتى الموت ماذا تفعل . كل تصرف مباح لها . حرة تفعل بالفريسة ماتريد . لحظة نادرة فى حياتها ، أثار عقلها على غير توقع منها . ألتفتت إلى الأولاد والعيال . صرخت فى وحشية : ولاد ، ولاد ، جرسوها ، بنت السحاب ، قحبة كأها . وفى هدوء ، كالهواء النقى ، كان على رأسك طاقية الاخفاء انسل رشاد أفندى ابن جابر أفندى لا يصدق أن هذه هى أمة . فى قرارة نفسه أنها على حق وأن هانم القمبة بنت القحبة تستحق أكثر مما حصل لها . بنفسه رفض أن يقابل هانم حين طلبت لقاءه بعد العشاء ، على سطحهم . فى المرة الثالثة ، حمل الرسائل .. هانم لن تحدثك ستعيد إليك أشياءك ، المتاعيل ، زجاجات العطر ، الفستان ، حتى القلوس سنسبدها ، فتح الله نفسه يحس أولا يحس أنه منقسم ، دماغه يملؤه طنين ، طنين تصنعه كل أحاديث المصاطب ، تملأ الحارات أحاديث جسور الترع ، مدارات السواقى ، قعدات الحشيش ، قعدات المعسل والنسوان ، النسوان الجالسات على قزحهن فى الظلام على تلؤل دابر الناحية ، ويتحسس السباح بحذر بحثاً عن طوبة ناشفة . هانم ضبطوها مع رشاد أفندى ، مع جابر أفندى ، مع فتح الله ، مع واحد من زوار أبيها فى الليل ، مع مع ، مع كأها .. وأبيها .. هل .. هل .. هل .. البلهارسيا ، نقط الدم الأحمر يملء كف بعد كل بولة ، توحد كل أبناء البلد ، فضيحة هانم ملء كف دم وحدها ووجدتهم هى الأخرى ، لا يستطيع فتح الله أن يضع أصبعه عليها ليقطعها ويستريح ، جزء منه وليس منه ، جزء من صدره ، أصم ، أبكم ، أعمى ، لا تصل إليه أحاديث المصاطب والجسور والتلؤل والقعدات جزء داخله يعذبه ، يشد عينيه طوال الليل ، لا تغمضان ، يصاحب خطواته ، يخفق صدره ، جزء فيه هذا الهانم وحدها ، زلطة تشعوط النار كل ما حولها ، هى صامدة زلطة يسكنها جنى يتحكم فى قسماات وجهه ، فى مزاجه ، لا يتلقى أوامره منه .

قبل أن يستجيب لالاح هانم ، ليقابلها فى حجرة صديقة لها مر على خالته ، قبلته ، طبطبت عليه ، ازيك يا ضنايا ، تعالى ، تعالى يا فتح الله ، أقعد إلى جوار خالتك ، شبه المرحومة أمك

تماما ، سبحان الخالق ، يا حبة عيني، الام تشبه من يا خاله ، أكانت شبيهك ، انزعجت الخاله . خالتك يا حبة عيني أيش جابها لامك ، فرق البحر من التربة. يا خالتي البطن واحدة ، أنت وأمي من بطن واحدة. أه يا حبة عيني ، البطن تجيب الزين والشين ، وأبو فصادة والأقرع وراكب الخيل وخايب زمانه. قهقهه فتح الله . أفلت من قبضة الجنى اللعين . الجنى الذى يلبد داخله ولا يتلقى أوامره منه . جنى حضور هانم، أه يا خالة لو يسكن فتح الله فى حماك حتى يوم القيامة. لحظات الصفو الخالص معك وحدك . صفوك يا خالة لا يأخذ باتفاسى لا يخفنى ، معها هى الأخرى تصفو النفس ، صفو منقبض خائف دائما . عرض على الخالة ، هانم دعتة للقائها ، تريثت الخالة، ابن أختها ، حبة عينيها لم يرويفت منذ الليلة الملعونة ، فى ليلة واحدة ، أمسك بفتاته زوجة له.. أفلتت منه إلى يوم القيامة، هو لا يقول إلى الأبد ، بعثت عنه فى ساعتها .الغد يخفيه ، فى يومه الجارى هى ليست له. .العد فى يد ربنا الذى فى السماء . حين يأتى الغد ويصير يوما حاريا هى ليست له لا يريد أولا لا يحب أولا يجرى على أن يصدر حكمه الغد . يكفى أنها ليست له فى يومه الاينى . إنها سولعلم عند الله -قد تكون له فى غده . إذ يتدحرج غده ليصير يومه. عندئذ سيصدر حكمه قاطعا . هانم ليست له . قابله يا ابنى ، شوفها ، اسمع منها ، العيش والملح له حق، اللهم أستر ولايانا وفوت على يا فتح الله.

اللمبة الجاز معلقة على المسمار المدقوق فى حائط الطين ، على الحصيرة جلست هانم وصديقتها . كان سلاما انتفض له الجنى داخل فتح الله . إنها هى هانم . الصوت مرتعش محشرج مبجوح خافت . ازيك يا هانم منطوية متكورة . متقهقرة . حزينة ازيك ياسى فتح الله.. الصمت لا يعرف الخفوت أو الانطواء حط.. شريط اللمبة يقطع .. أستاذت الصديقة لتعد كوب الشاي ، بقى الصمت . سطع نور اللمبة الباهت الخجول، بقه فى حجم حبة عدس بقشرتها تجرى كالمنعورة على الحائط ، شجيرات العاقول الشوكية مسمرة على الجدران لقتل البق النهم. كان نعساناً على مصطبة السبخاوى تقدمت إليه .. سى فتح الله . وأب عيني ، كان عم السبخاوى قد استيقظ وتركه نائما . سى فتح الله .. صبح النوم دلقت على يديه من ابريق الفخار الاسمر ، غسل وجهه بصابونة معطرة قدمتها إليه ، على كفها كوب الشاي ، تأمل جبهتها ، نور اللمبة الباهت الخجول يسطع على جبهة هانم . ازيك يا هانم اكتشف أن يده ممسكة بيدها . فزع . كأن بين أصابعه ثعبانا . سحب يده على عجل سحبها وهو لا يدري حقيقة مشاعره . من دماغه كان ينطلق حديث قاسيا ينهى كل شئ . كل شئ يجب أن ينتهى السيرة لبانه بين أفواه القرية. قسمة ونصيب .. من المنطقة المجهولة هانم هى هى، هانم إلى جواره بنفسها بلا زيادة ولا نقصان . عرضت هانم بوجة بها أشياء فتح الله ، ردها . هو ليس خسيسا . هانم أمنت ، أنت صحيح است خسيسا

وأنت ابن ناس. ماذا يصنع فتح الله في الكلمات . هو يقصد أنه ليس خسيسا لينسترد أشياء خرجت من ذمته ، أما أن تخرج الكلمة من فمه لتكون حبل اتهام تسيئ تخنق فهذا ما لم يرد . كل شيء يتمرد على إرادة فتح الله حتى كلماته . انفجرت هائم باكية ، هو ابن ناس أما .. أحس بحزن حقيقي . حزن من المنطقة المجهولة ومن دماغه معا . مثلما كانت خالته تقبله على جبهته قبلها على جبهتها ، بشكل خفي ، تقبيلها على الجبهة عمل مختلف تماما عما فعله رشاد . لهذا فتح الله يبيع لنفسه اتباعه . هو يتفرد بالجبهة . هائم . عليك أن تدعى كل شيء للغد . وفي الغد يجد فتح الله راحته . وعدها أن يزورهم في البيت . كانت قد نقلت إليه خبر مرض أمها .

-٧-

يبدأ بصداق في الرأس . همود في الركبتين . تهدل في الجسد كله .. إسهال . قئ . بعد ثلاثة أيام ماتت الأم . ماتت نرجس . لم يشترك فتح الله في السير في الجنازة . في نفس اليوم ماتت امرأتان . مات ثلاثة رجال . في اليوم الثالث استقبلت أفواه المقابر خمسة رجال . دفنوا -أيضا- على الساكت . امرأتان . عدد من الأطفال . ببطء تدريجي ثابت . تسلك الخوف . ملأ البلد كلها . خلت المصاطب ، قعدت المعسل ، حتى المساجد . تجمعات مختلصة مرعوية تتهامس ، تتناقل آخر أنباء المرض ، أي الموت . من أصيب بصداق فيه الشك والأمل . الاسهال يقطع الشك باليقين . البحث عن الليمون شغل الناس . إشاعة أن البلع هو السبب . المرض الجديد معد يا أولاد . ثلاثة أيام ثم الموت . لا مريض واحد شفى ، البلد تدفن كل يوم . كل يوم موت ودفن وجنازات صامئة . الدفن لا يتوقف في كل بيت مريض أو ميت أو مرعوب . قش الرز ملأ الشوارع والمصاطب . على قش الأرض يجلس المشيعون . المدرسة الإلزامية ، ومكتب المحافظة على القرآن الكريم أغلقا . سوق الاثنين ما عاد يقام . كل واحد انطوى على خوف عميق . خوف يخاف أن يهمس به لنفسه . لا أحد أبدا هاجمه المرض وشفى البلد انقسمت قسمة غريبة كما لو يحدث أبدا أو كما هو حادث دائما . عيلة السوالم أقامت معسكرا وقائيا حول سرياتهم ومنازلهم احتمت داخل معسكرها . فكروا أن يقيموا سورا بين بيوتهم وباقى بيوت الفلاحين ، أي غريب عن العائلة محظور عليه الاقتراب من بيوتهم . أهالى البلد عليهم وحدهم ينصب غضب الله . العائلة الغريبة الوافدة على البلد بيوتها منعزلة . الشغالة الذين يخدمونهم في الغيط والبيت حجزوهم داخل المعسكر . منعوهم من النزول إلى نويهم . المسجد المشترك قاطعوه . جابر أفندى أحتجز السبخاوى وكلبه سبع الليل . مقابر البلد مفتوحة للاهالى وحدهم . المقابر ضاقت بالموتى من أهالى البلد . عبد الشاطر حيل إليه أن يرأسه صداقا حمل فاسه إلى الغيط . هو يعالج الامراض بالشغل ، أربعون عاما ما اعترف بطبيب أو مستشفى . الأعمار بيد الله .. هو مشغول

دائما فكيف يمرض. المرض رفاهية العاطلين أهل المصاطب . هو دائما وراءه شغل فى الغيط . الأرض يا أولاد دائما تحتاج إلى اليد اللى تلعب فيها . ترفع الحجر من جانب عود القطن ، تحيطه بالتراب الناعم . الزرعة فى الغيط كالطبخة لو تركت على الكانون شاطت. عبد الشاطر عاد بفأسه . لم يصدق أنه أصيب بإسهال علامة لا تخطئ . عم الوهيدى الحريص الواعى الرزين جن. كل شئ يا رب إلا عبد الشاطر . لم ينجب سواء . هو كل شئ . من أجله كل شئ . أبيع البهائم بهيمة بهيمة ، الأرض التى جمعتها شبر شبرا . ابيعها ، أعود كما بدأت لا يهمنى . يبقى عبد الشاطر . سنخلق أرضا جديدة من تحت الأرض ، سنملأ الدنيا زرا وقلعا وخيرا . عبد الشاطر، عبد الشاطر ،حمل الرجال عبد الشاطر نزلوا به إلى القبر العميق . انهار التراب . عائلة السوالم بحالها كان المرض لم يعرف بيوتهم . لا رجل لا أم امرأة لأطفال . الخالة هى التى أفضت إلى فتح الله ، يا ابنى البنت هانم سمعت يا واداه انها تعبانة ،الحيرة عاودت فتح الله . أمها ماتت ، العمدة حجز أخواتها فتح الله حملته خطواته إلى دار عم السبخاوى . تخطى العتبة فى خوف . دق صدره خبطات متلاحقة . دوار خفيف طاف بماغه ولم يلتفت إليه . قابل عينيه صمت مقبض . كل شئ يراه لأول مرة باب الدار . شرائع غليظة من أفرع الشجر. تراب قديم يفتersh كل ما أمامه . الهباب طبقة سميكة هشة متراكمة على السقف .الدار ، برج حمام مهجور ، طافت بذهنه كلمات موال . حرمت يا دار أخش الزقاق علشانك هو لم يدخل هذه الدار منذ زمن خيل إليه أنه عمر بطوله أو ليلة . البلاص الذى كان يوما نظيفا ومروقا ينقى المشمش ، مبخرا باللبان المحروق ، الجوزة .هنا جالس رجال الليل أخسذ منهم ، أعطاهم ، حدثهم ، حادثوه ، اتعبهم أبو ذراع ، طوفه حملته إلى الليل كان يكره عيلة السوالم ، كلنا نكرهم يا فتح الله ، لكن جابر افندى هو المتوى ، آخر محابلة معه ، أبو ذراع أقسم بالطلاق ، طول م ابن الكلب متحكم فينا م يعيش مغانا كان يبكي كالحرمة . يا جماعة هو ابن الكلب ورانا ورانا فى الغيط ورانا ، فى الليل ورانا ، أنا هأصدى الشرقية ، لكن من قتل فهيم بن زينة لحساب العمدة . غمغم الرجال حتى هانم لغت ودارت . كانت أحيانا تصمت . هل كانت تكذب وهى تشتم عيلة السوالم . طالت وقفت . نادى اسمها . هانم .. هانم . ألقى نظرة على القاعة الجوانية . دفع الباب . وقف فى البحرانية . زكمته رائحة الرطوبة والعمسة تملأن أركان الحجر . زبل أرابن فى حجر داخل المصطبة .فوق حصيرة باهتة هانم متكونة . وجهها للحائط أنين خافت لا يصل إلى أبعد من أذان الجدار. فتح الله ازيك كتر خيرك يا فتح الله ازيك كتر خيرك يا فتح الله ، العيش والمالح له حق . كانا كالأخوة كيف تتحدث . بكت . فتح الله عليه أن يرجع ، فالمرض للمعون معد لبيتعد فتح الله يستمتع بشبابه . الانقسام الذى عذب فتح الله ارتفع كله ، خالصا لهانم ، لكنه يحس أن بماغه هو الذى يدفعه خنقة الصدر ،

شلل الجسم كله ، اقتقدتهما إذ يلقاها هذه المرة . تقدم إليها . حزين . حزين من أجل حالة هانم
جلس إلى جوارها دق صدره . أمسك بيدها . ازيك يا هانم . إحساس قوى بالواجب يدفعه . من
رأسه تسقط تصرفاته . هذه هي هانم يا فتح الله . ثمن لها الشفاء . لم يطرح على فكره ما بعد
الشفاء . شمر كم جلبابه بفأس قديمة جرد القى . رش ترابا ناشفا . فتح بولابا داخل الحائط .
سحب جلبابا نظيفا . أجلسها . أسند ظهرها إلى صدره بكون ماء ، بقطعة قماش بللها ، مسح
وجهها ، يديها ، قدميها ، خلع عنها الجلباب الذى تلبسه ، ألبسها الجلباب المغسول ، أعد لها كوب
شاي ، أعطاهما حبة زسبرين ، عصر لها شقة ليمون فى كوز ماء . أرادت أن تقضى حاجتها ،
أسندها إلى كتفه ، بدد خجلها ، عيب يا هانم ، السنأ اخوات . داخل الدار فى مريبط قديم لعزة
بيعت قضت حاجتها . كنس لها المصطبة التى تشغل صحن الدار ، مصطبة رجال الليل ، قعدات
المعسل والحشيش . فرش الحصير ، أجلسها على المصطبة ، وأربت هانم عينيها . الضوء يملأ
الدار . يمامة تهدل على السطح . صحوة تتمشى فى أوصال هانم . حلم اكبت أنها لن تموت .
الموت لا يقدر أن يأخذها من جوار فتح الله . فتح الله يعرف أن هانم هي ما يرتبطه بالبلد ، بلد
السوالم . هل حقا كانت هانم تكرهم . هل تعود الحيرة داخل فتح الله . هل تغير دماغه منها . هل
لحظة صحوها أرجعته إلى حيرته وإلى الانقسام داخله .

أحس فجأة بضيق لم يمر سببه . أدارت هانم عينيها . ألت بكل ما فعله فتح الله . نظرت إلى
جلبابها ، يديها ، أعلنت ذاكراتها ، أحست بخجل حقيقي حين تذكرت خلعهما جلبابها أمام فتح الله
وقضاء حاجتها سحبت عينيها بعيدا عن فتح الله مداراة لخجلها . فى عينيها الدار نظيفة كأنها
فى ليلة عرس . حاولت أن تقف . لم تستطع جلست . لفت بهما الدار بشدة . صويت عينيها نحوه
. لم تكن تعرف أنه يحبها كل هذا الحب . وفى المسافة الزمنية التى أحست فيها هانم بدبيب
النهاية ، أحست بعملة ضبابية أن اكتشافها لمع متأخرا . كانت تتفتح داخلها دلائل صدق حب فتح
الله لها مع دلائل الاحساس الجسدى بالنهاية . لم تستمتع لحظة واحدة خالصة باكتشافها أنه
يحبها كل هذا الحب . بأس ألم بعدد خلايا جسدها ، خلية خلية . بأس كائن العقوبة . عقوبة
تكتشفها هي وتخضع مرغمة لها . أمل تعجز عن افصاحه ، أن تكيا لحظة واحدة مع اكتشافها
بعيدا عن يقين الموت . لا تملك القدرة من الحياة أن تسأل نفسها سبب عماها عن عاطفة فتح الله
. لم يجد جديد . كانت تعرف أنه حتما كان سيفعل ما فعل . كانت تغرف كلماته أن ينطقها .
تصرفاته قبل يأتيها . لكنهما أبدأ لم تكتشف قبلا ، ولا تكتشف إلا فى لحظة أفلة . إحساس فوق
اليأس ، فوق الألم ، يفوق الحياة نفسها ، يعلو على الموت . المدة على المصطبة . ظهرها الحائط .
إلى جوارها الرجل الذى أحبها تنتظر إليه . ليس بعينيها ، فإن مينيها قد كفتا عن وظيفة الابصار

، تنظر إليه بخلايا جسدها كله مخترقه الملابس والسر والغموض، أحساسها لم يعد يترسم فى شكل معنى . لا تعبر عنه الكلمات ، المعنى والكلمات ينتسبان إلى شاطئ تعلق عنه . إحساسها رؤى تنفجر داخلها . هى ذاتها غدت رؤية . إحساسها قطيفة حمراء غامقة، تزداد غمقة حتى لتصل إلى لون أسود . إحساسها ، قطيفة لحمتها الحياة بطولها ، سداها الموت بعمقه حياة بلا نبض الحياة، موت بلا همود الموت، حياة تموت، موت يحيا فى لحظة لقاء متوهجة مكتومة معتمة ملعونة . اليأس لا يرتسم معنى . يبرز شكل أرض تسيخ تحت رجليها ، الأرض تنفتح . بئر تقع فيه بقدميها أولا، تحاول قدماها أن تتمسكا بأرض، بتراب ،الأرض تغور . هى يشدها البئر . يشدها البئر، انها داخل البئر .. داخله .. يشدها ،يشدها .

يحاول فتح الله أن يمد يده ، يمسك شيئا لا يقبض عليه . الحياة ليست وقفا على ارادتنا . تعاش مرة واحدة . اكتشاف لا يدرىه إلا وهو يفقد هانم على الخشبة تمدد الجسد . غسلته المغسلة ، وضعت القطن على الخارج ،كلوب صغير خافت الضوء تقدم النمش ، النمش على كتف فتح الله . واحدة من مقابر الحريم ،انزلوها برأسها ، قالب من الطوب الأخضر تحت رأس الجسد المسجى . أهمل التراب ،فقيه ضرير جلس خلف القبر يريد كلمات كنيية . لا وقت للحنن ، رجع المشيعون لا يزيد عددهم عن زصابع الديدن . تخلف فتح الله وقف وحيدا ،الكلوب يبتعد . على المقابر يزحف ظلام ثقيل .. أمه ،سيد أبو دراع ،عبد الشاهر ..أخيرا هانم ..الظلام .. السكوت نواح خافت يأتيه ممن بعيد ،من داخل البلد . بلدة كنيية ، مقبضة ، ليس بها ما يربطه إليها . يبرز وجه خالته تضيق فى جهامته ابتسامتها يلتقطها فتح الله دائما . الاصابع الطويلة المعروفة . تحركت قدماها ،كان الطريق الثانى من داخل المقابر يقود إلى جسر المصرف النظامى ، الجسر الذى ترقد البلد الموبوءة فى ظله . سارت القدمان تيهة مشاعر تلفه . لا يعرف شيئا . لا يدري شيئا . لا يرغب فى شئ . لا يرغب عن شئ كل شئ كئى شئ . ماتت هانم حقا . هو يحبها الان . ما عادت سدا فى وجه . خالة أناه . هج . هج يا خالة . القدمان تخطوان . الكون كله ظلام وفراغ . تحت المقابر ظلام وفراغ ،على سطح الأرض ظلام وفراغ ، السماء ظلام وفراغ : وأنتم يا رجال الليل، يا صحاب ، قادم إليكم ، لم أقتل السيد أبو دراع صدقونى ، ردوا ، مدوا أيديكم عيناى نوبك ألا ترى موضع قدمى .. رصاصة واحدة تضئ الطريق.

مختارات من نصوص

أبي حيان التوحيدي

قرن الرؤى

* هو على بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدى .
* «التوحيدى» على الأرجح -نسبة إلى المهنة التى عرف بها والده .. وهى بيع نوع من التمر المسمى (التوحيد) .

* انحدر من أسرة فقيرة معدمة ،مغمورة فى غالب الأمر .
* لم يشر، أو يتحدث، أو يأتى على ذكر أى شئ يتعلق بطفولته أو أهله أو تربيته أو نشأته الأولى .. وظلت هذه المناطق -بما فيها حياته الشخصية بعد ذلك- سرا مغلقا لا يعلم أحد- أى أحد- عنه شيئا بالمرة .

* اهتمامه بالعلم والدراسة قد صرفه عن التفكير فى الزواج وإنجاب النسل ، فلم يعرف عنه أن تزوج أو رزق أولادا بدليل قوله هو نفسه : أنه ظل طول عمره لا يجد حوله «ولدا نجيبا، وصديقا حبيبا ، وصاحبا قريبا ،وتابعا أدبيا ، ورئيسا منيبا» .

* ويبدو أن التوحيدى -كما يرجح د. أحمد أمين -كان مكبوت الفريضة الجنسية لفقره المدقع الفظيع ..الذى لم يمنعه الزواج فقط.. وإنما حتى من التسرى بالنساء والجوارى على عادة الأغنياء فى زمنه .

* امتهن فى حياته مهنة الوراقة (نسخ الكتب المشهورة للأغنياء والموسرين) وهى من أشق المهن فى عهده ، وأضيعها للعلم ، وأهبها للبصر، ورغم كل ما أنفقه فيها من البصر والعمر لم تكن تدر عليه- فى معظم الأحيان -ما يقيم الأود، ويمنع من غائلة الجوع ، وإراقة الوجه .

* اضطهده من أدباء عصره وأعلامه(ونجوم السياسة فيه ، وأصحاب الأمر والنهى والقدرة والسلطان فى نفس الوقت) الصاحب بن عباد .. وابن العميد ..وكان كل منهما وزيرا أدبيا يشار إليه ، ويخشى جانبه ، ويتعاطى النثر ، ويقرض الشعر ،وكان أبو حيان شديد الاعتداد والثقة بالنفس فى حضرتهمما ،وقد أوغر هذا الاعتداد المفرط صدرهما عليه فمعناه وحرماه واجتهدا فى التضيق عليه والحق من شأته وإزالة فانتقم لنفسه الانتقام الوحيد الذى يجيده .فوضع فيهما كتابا أسماه(مثالب الوزيرين) .. جمع فيه كل ما وعته ذاكرته الشخصية بذاكرة الآخرين من معانيبها الأخلاقية وصفاتهم المرنولة ونواترهما المحطة من شئتهما بالمسفة لهما .

* أسلوب التوحيدى- كما وصفه د. أحمد أمين -رائع جزل ، يلتزم المزاجية ولا يلتزم السجع، ولا يتخفخف فى الأسلوب على حساب المعنى .ولئن قالوا عنه : أنه هو الجاحظ الثانى، ففى رأى- الكلام للدكتور أمين- أن الجاحظ وإن كان أكثر تشعبا ، وأكثر انطلاقا-فأبو حيان أجزل لفظا وأوسع علما ، لأن الجاحظ كان مسجل القرن الثانى وفى القرن الثانى بدأن نشأة العلوم، وأبو

حيان مسجل القرن الرابع ،وقد نضجت العلوم، وشتان بين علم ناشئ وعلم ناضج».

* كان مفكرا حرا ، ومجددا ،ومتمردا على الكثير من أفكاره عصره ،بكارها للمحافظة والتقليد ، ولم يكتف بترديد آراء أهل السنة فى التوحيد والتنزيه آراء أهل السنة فى التوحيد والتنزيه والصفات الإلهية ،فكان من الطبيعى أن يدفع الضريبة التى دفعها -ويدفعها- كل المفكرين والمجددين الأحرار على مدى التاريخ .فأتهم بالكفر والزندقة والإلحاد .وساد الزعم بأنه أحد زنادقة الإسلام الثلاثة .. ابن الراوندى .والتوحيدى .. وأبى العلاء المعرى.

* لم يعرف له بالتحديد مسقط رأس ومحل ميلاد ،وموطن أصلى .. ولم يشهره إلى كل ذلك -كما ألقنا -آية إشارة من أى نوع .مولده .موطنه .خشبته ..أمه .. إخوته أو أخواته ..أهله ..إلخ.

الإشارة الوحيدة التى تؤرخ تاريخا مالحياته ، موجودة فى رسالته التى بعث بها إلى القاضى أبى سهل على بن محمد مبرا فيها إحراقه لكتبه!.

* أحرق كل كتبه فى آخر حياته ،والقليل الذى وصلنا منها كان قد تم نسخه من قبل البعض هنا وهناك!.

* جاء فريدا ..وعاش شريدا.. ومات وحيدا.

* ولد فى ٣١١هـ (على أرجح الاحتمالات).

ومات فى ٤١٤هـ (فى أقربها إلى الصحة).

وبذلك يكون قد عاش حتى أبلى مائة ونيفا من السنين.

* أى أنه الشاهد الأعظم ،والمفكر الأكبر، والأديب الألع ، لهذا القرن الحافل الموار فى

الخصارة العربية الإسلامية القرن الرابع الهجرى.

* ولذلك استحق ما وصفه به ياقوت الرومى فى كتابه «معجم الأدياء» «فيلسوف الأدياء».

وأديب الفلاسفة ، ومحقق المتكلمين ،ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء .فرد الدنيا الذى لا نظير له نكاء وقطنة ، وفصاحة ومكنة».

كدت احترق بك

رسالة إلى القاضي أبي سهل على بن محمد في شأن حقوق كتبه

كان أبو حيان قد أحرق كتبه في آخر عمره لقله جدواها- في رأيه- وضنابها على من لا يعرف قدرها بعد موته ، فكتب إليه القاضي أبو سهل على بن محمد يعذله على سوء هذا الصنيع ويعرفه قبح ما اعتمد من هذا الفعل الشنيع ، فكتب أبو حيان يعتذر من ذلك إليه:

حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظني بموئتك وطول جفائك ، وأعاذني من مكافئك على ذلك ، وأجارنا جميعا مما يسود وجه عهد إن رعيناه كنا مستوحشين من أجله .. وأدام الله نعمته عندك، وجعلني في الحالات كلها فداك.

وأفاني كتابك غير محتسب ولا متوقع على ظمأ برح مني إليه وشكرت الله تعالى على النعمة به على ، وسألته المزيد من أمثاله -الذي وصفت فيه- بعد ذكر الشوق إلى والصباغة نحوى -سما نال قلبك بالتهب في صدرك من الخبر الذي نمي إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار وبغسلها بالماء ، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك كأنك لم تقرأ قوله تعالى عز وجل «كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون» وكأنك لم تأبه لقوله تعالى «كل من عليها فان» وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريف الجوهير ، كريم العنصر ما دام مقلبا بين الليل والنهار ، معروضا على أحداث الدهر وتعاور الأيام ، ثم إنني أقول:

إن كان لديك أيذك الله قد نقب خفك ما سمعت ، فقد أدما ظهري ما فعلت بظليهن عليك ذلك ، فما أنبريت له، ولا اجترأت عليه ، حتى استخرت الله عز وجل فيه أياما وليالي بوحي أوحى إلى في المنام بما بعث راقد العزم ، أوجد فاتر النية ، وأحيا ميت الرأي بوحي على تنفيذ ما وقع في الروح، وتربيع في الضاطر ، وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت ، أو بالعذر إن استوضعت ، لنتق بى فيما كان مني وتعرف صنع الله تعالى في ذنبي لى.

إن العلم ، حاطك الله ، يراد للعمل كما أن العمل يراد للنجاة فإذا كان العمل قاصرا عن العلم كلا على العالم ، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلا ، وأورث ذلا ، وصار في رقبة صاحبه غلا ، وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار. ثم أعلم ، علمك الله الأخير، أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلايته : فأما ما كان سرا فلم أحد له من يتطلى بحقيقته راغبا ، وأما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالبا على أتى جمعت أكثرها للناس، ولطلب المثالة منهم ولعقد الرئاسة بينهم، ولد الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله ، ولا شك في حسن ما اختاره الله لى، ونأطه بناصيتي ، وربطه بأمرى بوركته مع هذا وغيره أن تكون حجة على لائى . يوما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه أنى فقدت ولدا نجيبا ، وصديقا حبيبا ، وصاحباً قريبا ، وتابعا أدبيا ،

ورئيساً منيها ، فشق على أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، وينتسبون عرضي إذا نظروا فيها
ويشتمون بسهولة وغلطي إذا تصفحوها ، ويتأوون ويعيبون من أجلها .

فان قلت: ولم تسمحهم بسوء الظن وتفرغ جماعتهم بهذا العيب؟ .

فجوابي لك: إن عياني منهم في الحياة هو الذي حقق ظني بهم بعد الممات . وكيف أتركها
لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ
واقدا اضطرت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى
التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروعة ، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة
والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم . ويطرح في قلب صاحبة الألم ، وأحوال الزمان
بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك وليس ما قلته يخاف عليك مع معرفتك وفطنتك ، وشدة
تتبعك وتفرك ، وما كان يجب أن ترتب في صواب ما فعلته وأتيت ، بما قدمته ووصفته ، وبما
أمسكت عنه وطويته ، إما هرباً من التطويل ، وإما خوفاً من القال والقال وبعد ، فقد أصبحت هامة
اليوم أوغد ، فأني في عشر التسعين وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة ، أو رجاء
لحال جديدة؟ ألسنت من زمرة من قال القائل فيهم:

نروح ونغدو كل يوم ليلة وعما قليل لا نروح ولا نغدو وكما قال الآخر:

توفقت دارت الصبي في ظلاله إلى أن أتاني بالفطام مشيب .

وهذا البيت للورد الجعدي وتماهه يضيق عنه هذا المكان .

والله يا سيدي لو لم أنقطع إلا بمن فقدته من الإخوان أو الأخدان في هذا الصقع من الغريباء
والألباء والأجباء لكفى ، فكيف بمن كانت العين تقربهم ، والنفس تستثير بقريهم ، فقدتهم بالعراق
والحجاز والجبل والري وما وإلى هذه المواضع وتواتر إلى نعيمهم واشتدت الواعية بهم فهل أنا إلا
من عنصرهم ؟ وهل لي محيد عن مصيرهم؟ أسأل الله تعالى رب الأولين أن يجعل اعترافي بما
أعرف ، موصولاً بنزوعي عما أقترف ، أنه قريب مجيب .

وبعد ، فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بائمة يقتدى بهم ، ويؤخذ بهديهم ، ويعشى إلى نارهم ،
منهم : أبو عمرو بن العلاء . وكان من كبار العلماء ، مع زهد ظاهر ، وورع معروف ، دفن كتبه في
باطن الأرض فلم يوجد لها أثر .

وهذا داود الطائي ، وكان من خيار مثل صراع أو مأساة ، فطورا يستخلصه التصوف وطورا
استتأثر به الفلسفة وسوف نلاحظ أن قسماً من رؤى التوحيد الجمالية ينتمي إلى النزعة الصوفية
، بينما سينتمي قسم آخر منها إلى النزعة الفلسفية ! .

من هذه الزاوية المثالية ، يمكن أن ندرك التأثير الشديد لدى التوحيدى بفكر أفلاطون وقد مرت
بنا شذرات من مثل هذا التأثير ، ويواجهنا الآن وجه آخر من أبرز وجوه هذا التأثير وهو استنكاف
التوحيدى (كأفلاطون) للشعر والشعراء ، فهو يقرر في الإمتاع والمؤانسة لست من الشعر
والشعراء في شيء وأكره أن أخطو على بحض وأحتسى غير محض ، ولعله في ذلك متأثر - بجوار

أفلاطون الذى أخرج الشعراء من مدينته الفاضلة- بموقف القرآن من الشعر والشعراء، حيث وصف القرآن الشعراء بأنهم يقولون ما لا يفعلون وفى كل واد يهيومن ، ويرى لنا التوحيدى عفن ابن كعب الانصارى قوله : «إن من شرف النثر أن النبي لم ينطق إلا به أمرا وناهيا ، ومستخبرا ومخبرا ، وهاديا وواعظا ، وغاضبا وراضيا ، وما سلب النظم إلا لهبوطه عن درجة النثر ، ولانزله عنه إلا ما فيه من النقص».

وعلى الرغم من أن التوحيدى قد يرى بوضوح أن «المحسوسات معابر للمعقولات» فإنه كثيرا ما يرى أن «المعقولات» هى أشرف من المادة ، وأن المعنى من ثم أهم من صياغته . ولقد سأل أبو اسحق الصابى فى تفضيل النثر والنظم فأجاب: «النثر أشرف جوهر ، والنظم أشرف عرضا» لأنه يربط الجوهر بالعقل والعرض بالحس ، والعقل أشرف من الحس، حتى لو كانت «المحسوسات معابر للمعقولات».

فى هذا الفكر المثالى نجد العديد من التناقضات وفى فكر التوحيدى أمثلة وافرة لهذا الفكر ولتناقضاته . نحن نراه يعتبر «اللفظ» مجرد وعاء أو إناء «للمعنى» فى مقابسته الهامة رقم ٦٠ من «المقابسات» يورد قول أستاذه السجستاني : «العقل يطلب المعنى، فلذلك لاحظ اللفظ عنده ، وإن كان متشوقا معشوقا ، والدليل على أن المعنى مطلوب النفس -بون اللفظ الموشع بالوزن المحمول على الضرورة- أن المعنى متى صور بالسائح والظاهر وتوفى الحكم ، لم يبال بما يقويه من اللفظ ، الذى هو كاللباس والمعرض والإناء والظرف » . لكن التوحيدى يعود فى موضع آخر من «الإمتاع والمؤانسة » ليرفض الفكرة التى تقول : « إن من عبر عن نفسه بلفظ ملحون أو محرف أو موضوع غير موضعه ، وأفهم غيره ، فقد كفى » . إنه لا يوافق على ذلك لأنه - يقول د. زكريا ابراهيم - « يحرص دائما على جمال اللفظ ، وموسيقية العبارة ، وحلاوة التعبير ، ورشاقة الصياغة ، وحسن السبك » . وهذا الاعتناء هو ما أكده أحمد أمين فى مقدمة مما أجده من انكسار النشاط ، وانطواء الانبساط ، لتعاود العلل على ، وتخاذل الأعضاء منى . فقد كل البصر ، وانعقد اللسان ، وجمد الخاطر ، وذهب البيان ، وملك الوسواس ، وغلب اليأس ، من جميع الناس . ولكنى حرصت منك ما أضعته منى ، ووفيت لك بما لم تف به لى . ويعز على أن يكون لى الفضل عليك ، أو أحرز المزية بونك ، ومأخذانى على مكاتبك إلا ما أتمته من تشويقك إلى . وتحرقك على ، وإن الحديث الذى بلغك قد بدد فكري ، وأعظم تعجبك ، وحشد عليك جزعك . والأول يقول :

وقد يجزع المرء الجليل ويبتلى

عزيمة رأى المرء نائية الدهر

تعاوده الأيام فيما ينويه

فيقوى على أمر ويضعف عن أمر

على أنك لو علمت فى أى حال غلب على ما فعلته ، وعند أى مرض ، وعلى أية عسرة وفاقاة ، لعرفت من عذرى أضعاف ما أبديته ، واحتججت لى بأكثر مما نشرته وطويته . وإذا أنعمت النظر

تيفت أن لله جل وعز في خلقه أحكاما لا يعاذ عليها ، ولا يغالب فيها . لأنه لا يبلغ كنهها ، ولا ينال غيبها ، ولا يعرف قلبها ، ولا يقرع بابها . وهو تعالى أملك لنواصينا ، وأطلع على أدلينا وأقاصينا ، له الخلق والأمر ، ويده الكسر والجبر ، وعلينا الصمت والصبر ، إلى أن يوارينا اللحد والقبر ، والسلام .

إن سرّك ، جعلني الله فداك ، أن تواصلني بخبرك ، وتعرفني مقر خطابي هذا من نفسك ، فافعل ؟ لأنني لا أدع جوابك إلى أن يقضى الله تعالى تلاقيًا يسر النفس ، ويذكر حديثًا بالأمس ، أو بفراق نصير به إلى الرمس ، ونفقد معه رؤية الشمس . والسلام عليك خاصا ، بحق الصفاء الذي بيني وبينك ، على جميع إخوانك عاما ، بحق الوفاء الذي يجب على عليك والسلام ، وكتب هذا الكتاب في شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ

الحق

كتب أحمد بن اسماعيل إلى ابن المعتز رقعة في فصل منها يصف الحق بقوله :

ولم أر كالحق أصدق قائلًا ، ولا أفضل عالما ، ولا أجمل ظاهرا ، ولا أعز ناصرا ، ولا أوثق عروة ، ولا أحكم عقدة ، ولا أعلى في النصفة ، لا يجري لأحد الا جرى عليه ، ولا يجري على أحد الا جرى له ، يستوى الملك والسوقة في واحته ويعتدل البغيض والحبيب في محضه ، طالبه حاكم على خصمه ، وصاحبه أمير على أميره ، من دعا إليه ظهر اليه برهانه ، ومن جاهد عليه كثر أعوانه ، يمكن دعائه من آلة القهر ، ويجعل في أيديهم آلة النصر ، ويحكم لهم بغلبة العاجلة ، ويسعاده الآجلة . ولم أر كالباطل أضعف سببا ، ولا أوعر مذهبا ، ولا أجهل طالبا ، ولا أزل صاحبًا ، ومن اعتصم به أسلمه ، ومن لجأ إليه خذله ، يرتق فينفتق ، ويرقع فينخرق ، إن حاول صاحبه بيعه بارت سلعته ، وإن رام ستره زادت ظلمته لا يقارنه البرهان ، ولا يفارقه الخذلان ، قد قذف عليه بالحق يدمغه ويقمعه فيمحقه ، صاحبه في الدنيا مكذب وفي الآخرة معذب ، إن نطق دل على عيبه ، وإن سكت تردد في ريبه .

(البصائر والذخائر)

بسط ونشو وإذاذة

(الليلة الحادية والعشرون)

(وسأل مرة عن المغني إذا راسله (١) آخر لم يجب أن يكون ألد وأطيب ، وأعلى وأعذب ؟ . فكان من الجواب : إن أبا سليمان قال في جواب هذه المطالب ما يمنع من افتضاب قول وتكلف جواب ، ذكر أن المسموع الواحد إنما هو بالحس الواحد ، وربما كان الحس الواحد أيضا غليظا أو كدرا ، فلا يكون لنيله . الإذة به (٢) بسط ونشو وإذاذة وكذلك (المسموع ربما لم يكن في غاية الصفاء على تمام الأداء بالتقطيع) الذي هو نفس في الهواء ، فلا تكون أيضا إنالته للذة على

التمام والوفاء ، فإذا ثنى المسموع - أعنى توحيد النعم بالنعم - قوى الحس المدرك ، فقال مسموعين بالصناعة ، ومسموعا واحدا بالطبيعة ، والحس لا يعشق الموادة والمناسبة والاتفاق إلا بعد أن يجدها فى المركب ، كما أن العقل لا يعشق الا بعد أن ينالها فى فضاء البسيط ، فلما قوى الحس باستعماله ، التذ صاحبه بقوته حتى كانه يسمع مالم يسمع بحس أو أكثر ، وكما أن الحس إذا كان كليلا (كان الذى يناله كليلا) ، كذلك الحس إذا كان قويا كان ما يناله قويا .

قال : هذا كله موهوب للحس ، فما للعقل فى ذلك ؟ فاننا نرى العاقل تعتريه بهشة وأريحية واهتزاز .

قلت : قد أتى على مجموع هذا ومعرفته أبو سليمان فى مذكراته لابن الخمار وذكر أن من شأن العقل السكون ، ومن شأن الحس التهيج ، ولهذا يوصف العاقل بالوقار والسكينة ، ومن يوصف بالطيش والعجرفة ، والإنسان ليس يجد العقل وجدانا فيلتذ به ، وإنما يعرفه إما جملة وإما تفصيلا ، أعنى جملة بالرسم وتفصيلا بالحد ، ومع ذلك يشترق إلى العقل ، ويتمنى أن يناله ضربا من النيل ويجده نوعا من الوجدان ، فلما أبرزت الطبيعة الموسيقى فى عرض الصناعة بالآلات المهيأة ، وتحركت بالمناسبات التامة والأشكال المتفقة أيضا ، حدث الاعتدال الذى يشعر بالعقل وطلوعه وانكشافه وأنجلاته ، فبهر الاحساس ، وبث الايناس ، وشوق إلى عالم الروح والنعم ، وإلى محل الشرف العميم ، ويحث على كسب الفضائل الحسية والعقلية ، أعنى الشجاعة والجود والطم والحكمة والصبر ، وهذه كلها جماع الأسباب المكملة للإنسان فى عاجلته وأجلته ، وبالأوجب ما كان ذلك كذلك ، لأن الفضائل لا تقتنى إلا بالشوق إليها ، والحرص عليها ، والطلب لها ، والشوق والطلب والحرص إلا بمشوق وباعت وداع ، فلهذا برزت الأريحية والهزة ، والشوق والعزة ، فالأريحية للروح ، والهزة للنفس ، والشوق للعقل ، والعزة للإنسان ، وما يجب أن يعلم أن السمع والبصر أخص بالنفس من الإحساسات الباقية ، لأنهما خانما النفس فى السر والعلانية ، ومؤسساها فى الخلوة ، وممداها فى النوم واليقظة ، وليست هذه الرتبة لشئ من الباقيات ، بل الباقيات آثارها فى الجسد الذى هو موطئة الإنسان ، لكن الفرق بين السمع والبصر فى أبواب كثيرة : أظفها أن أشكال المسموع مركبة فى بسيط ، وأشكال المبصر مبسطة فى مركب .

قلت : وقد حكيت هذا لأبى زكريا الصيمرى فطرب وارتاح وقال :

ما أبعد نظر هذا الرجل ! وما أرقى لحظه ! وما أعز جانبه !

(الامتاع والمؤانسة)

الغريب فى غريبته غريب

رسالة (يا)

سألتنى - رقق الله بك ، وعطف على قلبك - (و) أن تذكر لك الغريب ومحنه ، وأصف لك

الغربة وعجائبها ، وأمر في أضعاف (٣) ذلك بأسرار لطيفة ومعان شريفة ، إما معرضا ، وإما مصرحا ، وإما مبعدا ، وإما مقربا ، فكنت على أن أجيبك إلى ذلك . ثم أتى وجدت في حالى شاغلا منك ، وحائلا نونك ، ومفرقا بيني وبينك . وكيف أخفض الكلام الآن وأرفع ، وما الذى أقول وأصنع ، وبماذا أصبر ، وعلى ماذا أجزع . وعلى الملات التى وصفتها والقوارف التى سترتها أقول :

إن الغريب بحيث ما حطت ركانته ذليل

ويد الغريب قصيرة ولسانه أبدا كليل

والناس ينصر بعضهم بعضا ، وناصره قليل

وقال آخر :

وما جزعا من خشية البين أخضلت

دموعي ، ولكن الغريب غريب (٤)

يا هذا ! هذا وصف غريب نأتى عن وطن بنى بالماء والطين ، وبعد عن آلاف له عهدهم الخشونة واللين ، ولعله عاقرهم الكأس بين الغدران والرياض ، واجتلى يعينه محاسن الحدق المراض ، ثم إن كان عاقبه ذلك كله إلى الذهاب والانقراض - فأتين أنت عن قريب قد طالت غيبته فى وطنه ، وقل حظه ونصيبه من حبيب وسكته ١٩ وأين أنت عن غريب لاسبيل له إلى الأوطان ، ولإطاقة به على الاستيطان؟ قد علاه الشحوب وهو فى كن ، وغلبه الحزن حتى صار كائن شئ (٥) . إن نطق نطق حزنان منقطعا ، وإن سكت سكت حيران مرتدما ، وإن قرب قرب خاضعا ، وإن بعد بعد خاشعا ، وإن ظهر ظهر ذليلا ، وإن توارى توارى عريلا ، وإن طلب طلب واليأس غالب عليه ، وإن أمسك أمسك والبلاء قاصد إليه ، وإن أصبح أصبح حائل اللون من وساوس الفكر ، وإن أمسى أمسى منتهب السر من هوائك الستر ، وإن قال قال هائبا ، وإن سكت سكت خائبا ، قد أكله الخمول ، ومصه الذبول ، وحالفه النحول ، لا يمتنى إلا على بعض بنى جنسه ، حتى يفضى إليه بكامات نفسه ، ويتعلل برؤية طلعتة ، ويتنكر لمشاهدته قديم لوعته فينثر الدموع على صحن خده ، طالبا للراحة من كده .

وقد قيل : الغريب من جفاء الحبيب وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حبابه الشريب (٦) ، بل الغريب من نودى من قريب ، بل الغريب من هو فى غيبته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . فان كان هذا صحيحا ، فتأمل حتى نبكى على حال أحدثت هذه الغفوة وأورثت هذه الجفوة .

لعل انحدار الدمع يعقب راحة

من الوجد أو يشفى نجي اليلال (٧)

يا هذا! الغريب من غربت شمس جماله ، واغترب عن حبيبه وعداله ، وأغرب فى أقواله وأفعاله ،
وغرب فى إبداره وإقباله ، واستغرب فى طمره (٨) وسرياله ، يا هذا الغريب من نطق وصفه بالحنة
بعد المحنة ، ودل عنوانه على الفتنة عقيب الفتنة ، ويأنت حقيقته فيه فى الفينة حد الفينة . الغريب
من إن حضر كان غائبا ، وإن غاب كان حاضرا ، الغريب من إن رأيته لم تعرفه ، وإن لم تره لم
تستعرفه ، أما سمعت القائل حين قال :

بم التعلل! لا أهل ، ولا (زمن)

ولانديم ، ولا كئس ، ولا سكن (٩)

هذا وصف رجل لحقته الغربة ، فتمعنى أهلا يأتس بهم ، ووطنا يأتوى اليه ، ونديما يجل عقد
سره معه ، وكاسا ينتشى منها ، وسكنا يتوادع عنده ، فأما وصف الغريب الذى اكتفتته الأحزان
من كل جانب ، واشتملت عليه الأشجان من كل حاضر وغائب ، وتحكمت فيه الأيام من كل جاء
وذاهب ، واستغرقته الحسرات على كل فائت وآت ، وشتمت الزمان والمكان بين كل ثقة وراثب ، -
وفى الجملة ، أتت عليه أحكام المصائب والنوائب ، وحطته بأيدي العوائب عن المراتب ، فوصف
يخفى نونه القلم ، ويفنى من ورائه الفرطاس ، ويشل عن بجسه (١٠) اللفظ ، لأنه وصف الغريب
الذى لا اسم له فيذكر ، ولا رسم له فيشهر ، ولاطى له فينشر ، ولاعز له فيعذر ، ولاذنب له فيغفر
، ولاعيب عنده فيستتر .

هذا غريب لم يترجزع عن مسقط رأسه ، ولم يتزعزع عن مهبط أنفاسه ، وأغرب الغرباء من
صار غريبا فى وطنه ، وأبعد البعداء من كان بعيدا فى محل قربه ، لأن غاية المجهود أن يسلو عن
الموجود ، ويغف عن المشهود ، ويقصى عن المعهود ، ليجد من يغنيه عن هذا كله بعباء محدود ،
ورغد مرفود ، وركن موطود (١١) ، وحد غير محدود .

يا هذا ! الغريب من إذا نكر الحق هجر ، وإذا دعا إلى الحق زجر . الغريب من إذا أسند كذب
، وإذا تظاهر (١٢) عذب . الغريب من إذا امتار لم يمر (١٣) ، وإذا قعد لم يزر . يارحمنا للغريب
(١٤) ! طال سفره من غير قنوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب ، واشتد ضرره من غير تقصير ، وعظم
عناؤه من غير جنوى !

الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوا لم ينصروا حوله ، الغريب من إذا تنفس أحرقه
الأسى والأسف ، وإن كتم أكمده الحزن والهلل . الغريب من إذا أقبل لم يوسع له ، وإذا أعرض
لم يسئل عنه ، الغريب من إذا سأل لم يعط ، وإن سكنت لم يبدأ . الغريب من إذا عطس لم يشمت
(١٥) ، وإن مرض لم يتفقد . الغريب من إن زار أغلق بونه الباب ، وإن استأذن لم يرفع له
الحجاب .

الغريب من إذا نادى لم يجب ، وإنهادهى لم يحب ، اللهم إنا قد أصبحنا غرباء بين خلقك ،
فأنسنا فى فنائك . اللهم وأمسينا مهجورين عندهم ، فصلنا بحبائك (١٦) اللهم إنهم عابونا من

أجلك لأننا ذكرناك لهم فنفروا ، وبعوناهم إليك فاستكبروا ، وأوعبناهم بعذابك ففتحيروا ، ووعدناهم بثوابك فتجبروا ، وتعرفنا بك إليهم فتنكروا ، وصناك عنهم فتنمروا ، وقد كعنا (١٧) عن نذيرهم ، ويئسنا من توقييرهم .

اللهم إنا قد حاربناهم فيك وسالناهم لك ، وحكمنا لهم عنهم لوجهك ، وصبرنا على زذاهم من أجلك ، فخذ لنا بحقنا منهم ، وإلا فاصرف قلوبنا عنهم ، وانسنا حديثهم واكفنا طيبهم وخبيثهم . أيها السائل عن الغريب ومحنته ! إلى ههنا بلغ وصفى فى هذه الوراقات . فانها استزدت زدت ، وإن اكتفيت اكتفيت ، والله أسأل لك تسديدا فى المبالغة ، ولى تأييدا فى الجواب ، لتتلاقى على نعمته ، ناطقين بحكمته ، سابقين إلى كلمته .

يا هذا ! الغريب فى الجملة من كله حرقة ، ويعضه فرقة ، وليله أسف ، ونهاره لهف ، وغداؤه حزن ، وعشاؤه شجن ، وأراؤه (١٨) ظنن ، وجميعه فتن ، ومفرقه محن ، وسره علق ، وخوفه وظن . الغريب من إذا دعا لم يجب ، وإذا هاب لم يهب .

الغريب من إذا استوحش استوحش منه : استوحش لأنه يرى ثوب الأمانة ممزقا ، واستوحش منه لأنه يجد لما يقبله من القليل محرقا .

الغريب من ليستة خرقة ، وأكلته سلفة وهجمته خفقة .

دع هذا كله ! الغريب من أخبر عن الله بائباء الغيب داعيا إليه .

بل الغريب من تهالك فى ذكرى الله متوكلا عليه ، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه ، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضا لجدواه .

يا هذا ! أنت الغريب فى معناك

(الإشارات الالهية)

مقابلة

(فى النثر والنظم وأيهما أشد أثرا فى النفس)

قال أبو سليمان ، وقد جرى كلام فى النظم والنثر : النظم أدل على الطبيعة . لأن النظم ، من حيز التركيب والنثر أدل على العقل . لأن النثر من حيز البساطة . وإنما المنظم بأكثر مما تقبلنا المنشور لانا للطبيعة أكثر منا بالعقل . والوزن معشوق للطبيعة والحس : ولذلك يفتقر له (عند) مايعرض استكراه فى اللفظ . والعقل يطلب المعنى فلذلك لاحظ اللفظ عنده وإن كان متشوقا معشوقا . والدليا على أن المعنى مطلوب النفس دون اللفظ الموشح بالوزن المحمول على الضرورة ، أن المعنى متى صور السائح والخطر وتوفى لحكم لم يبيل بما يقويه من اللفظ الذى هو كاللباس والمعروض والاناء والظرف . لكن العقل مع هذا يتخير لفظا بعد لفظ ، ويعشق صورة دون صورة ، ويئس بوزن دون وزن ، ولهذا شقق الكلام بين ضروب وأصناف النظم . وليس هذا للطبيعة ؟ بل الذى يستند إليها ماكان حلو فى السمع ، خفيفا على القلب . بينه وبين الحق صلة . وبين الصواب

وبينه أصرة . وحكمها مخلوط باملاء النفس . كما أن قبول النفس راجع إلى تصويب العقل .
ثم قال: ومع هذا ففي النثر ظل النثر ولولا ذلك ما خف ولا حلا ولا طاب ولا تحلا . وفي النظم ظل
من النثر . ولولا ذلك ماتميزت أشكاله ولا عذبت موارده ، ومصايره ، ولا بحوره وطرائقه ، ولا انتلفت
وصائله وعلائقه .

وقال كلاما أكثر من هذا وقد أخرته إن شاء الله لرسالة معبودة في الكلام على الكلام . ثمرة
هذا فيها بتمامه مع سائر مايكون لها بشرح تام وعناية بالغة إن ساق الله إلى غايتها . ورفع
هذا الفساد الذي قد منع من كل ماتهم النفس به من الخير . وصد عن كل مايكون سببا للسعادة .
ولاملجاً إلا إلى الله في كشف هذه الضراء ، وإماطة هذه اللأواء ، فهو أول كل خير وميسر كل
طالب وناصره .

(المقابسات)

الأسلوب المثالي

ثم قال : فخير الكلام على هذا التصفح والتحصيل ما أيده العقل بالحقيقة ، وساعده اللفظ
بالرقة ، وكان له سهولة في السمع وريح في النفس ، وعذوبة في القلب ، وروح في الصدر ، إذا
ورد لم يحجب ، وإذا صدر لم ينس ، وإذا طال لم يمل ، وإذا قصر لم يحقر ، له غنج كغنج العين ،
ودل كدل الحبيب ، ولذة كذلة الغناء ، وانقياد كانقياد الذليل ، وتيه كتيه المزين ، بومش كجمش
(١٩) الغانية ، ووقار كوقار الشيخ ، وحلاوة كحلوة العافية ، ولين كلين الصبيبي (٢٠) ، وأخذ
كأخذ الخمر ، وولوج كولوج النسيم ، ووقع كوقع القطر ، وريح كريح العطر واستواء كاستواء
السطر ، وسبك كسبك التبر ، يجمع لك بين الصحة والبهجة والتمام ، فأما صحته : فمن جهة
شهادة العقل بالصواب ، وأما بهجته : فمن جهة جوهر اللفظ ، واعتدال القسمة ، وأما تمامه :
فمن جهة النظم الذي يستعير من النفس شغفها ويستثير من الروح كلفها .

(مثالب الوزيرين)

هوامشي

(١) راسله آخر ، أي تابعه في غنائك مساندة له .

(٢) به أي المصموم

(٣) أي: تضاعيف وثأيا

(٤) غضل (من باب فرح) خضلا ، وأخضل وأخضل وأخضوضل : ندى وأبطل ، فهو خضل وخاضل .

(٥) الشن (وبهاء القرية الخلق الصغيرة والجمع : شنان

(٦) الشريب : من يشارك في الشرب ، من يستقي أو يسقي منك ، التديم ، ويقصد به نديم المحبوب .

(٧) هذا البيت لأبي الرمة (راجع لبيواته ، نشرة مكرتتي ص ٤٩٢ بيت رقم ٢ . كمبردج سنة ١٩١٩م (١٢٣٧هـ)

(٨) الطمر : الثوب البالي ، والسريال : القميص ، أو كل مايابس .

(٩) السكن (محركة) : كل مايستنس به .

(١٠) وشل يشل: قل وضعف وانفقر ، ومث الوشل : الماء القليل ، والهجس : تلجر الماء ، ومث: عين بجيس : غزيرة .



(١١) ويطيد : ثابت.

(١٢) تنزه عن الأنتاس ، أو زسلها : تتظاهر (بالظاء المحجمة)

(١٣) مار عياله يميز ميرا وأماهم وأمتار لهم : جلب لهم الطعام

(١٤) تذكر لييب على بن الجهم : يارحمتا الغريب بالبلد النازح - ذا ينقسه صنعا!

(١٥) التضميت والتسميت : النماء للماطس.

(١٦) الصباء (يكسر الماء) : العطية مهر للمرأة.

(١٧) كمت عنه اكيع وأكاغ كيما وكيموعة : إذا هبت وجيفت عنه ، فهو كاشع ، وهم كاعة.

(١٨) ص : ررواه . وظان جمع ظنه بالكسر : تهمة ، أو : ررواهما جمع رؤية الغريب من فجعته محكمة ، وأوعته مشرمة.

(١٩) الجمش : الصوت الخفى.

(٢٠) المصبيب : المصبوب والغسل الجيد.

مدخل إلى قراءة

« حى بن يقظان »

لابن طفيل

تقديم: محمود أمين العالم

إن « حى بن يقظان » ليست مجرد قصة فلسفية كما يقال ، بل هى رؤية فلسفية كاملة ، وإن جاء التعبير عنها فى بنية قصصية ، وهى بنية قصصية من حيث زمنيتها أو تاريخيتها الداخلية ، فنحن مع هذه القصة نتحرك منذ أن تولد أو ولد كائن حى غفل (ولها أعطاء ابن طفيل (١) اسما مجردا هو « حى » ونسب إلى والد يقظان ، لعله الله الذى لاينام ، أو لعل يقظان هو القوة المتفتحة العارفة فيه التى سوف تؤسس له بالجهد الذاتى العقلى عالما معرفيا كاملا مقطوع الصلة بكل المكتسبات والموروثات السابقة على وجوده) .

نتحرك مع هذا الكائن الحى فى عالم معرفى يبدأ من المحسوس الطبيعى إلى التجربة والممارسة والتركيب والتصنيع لنصل إلى التنظير العقلى حتى نبلغ معه الاستشراق الماورائى الميتافيزيقى ، الروحى المغارق . وبهذه التنمية الداخلية تتشكل الأحداث العملية والفكرية لهذه القصة . ويتم هذه التنمية خلال مراحل تاريخية تحسب كل منها بالأعوام السبعة ، فهى سبعة أعوام أو ثمانية وعشرون عاما ، أو خمسة وثلاثون عاما وهكذا . إن الأعوام السبعة هى المعيار الذى نقيس به هذه المراحل وهذه الانتقالات ، بما لعدد سبعة من دلالة فى تاريخ الفلسفة ، وتاريخ المذاهب الباطنية عامة . وإلى جانب هذا ، فإن هذه البنية القصصية تتمثل فى تعدد أشخاصها فهناك حى بن يقظان ، وهناك الراوى - ابن طفيل - وهناك كما سنرى الطبية التى ستعتنى بالطفل حى ، وهناك أبسال وسلامان ، ومايجرى فى القصة من لقاءات ومجاهدات وحوارات واتفاقيات واختلاف . وفى هذه البنية القصصية تتعدد الأصوات ، فبرغم أن لها ساردا أو راويا واحدا ، فإن القصة تتحول فى بعض مواقعها من السرد على لسان الراوى إلى مخاطبة القارئ « فاصغ الآن بسمع قلبك وحدق ببصر عقلك إلى ما أشير به إليك لعلك أن تجد منه هديا يلقىك على جادة الطريق » (٢) .

على أنه برغم هذه البنية القصصية ، فإن « حى بن يقظان » ليس مجرد قصة فلسفية ، كما سبق أن ذكرت - بل نسق فلسفى كامل يكاد يعالج أهم القضايا الفلسفية فى الفكر العربى الإسلامى فى المرحلة المسماة بالوسيطه ، ولهذا نجد الأستاذ الدكتور عاطف العراقى يؤلف كتابا بعنوان « الميتافيزيقا فى فلسفة ابن طفيل » ليس له مصدر أساسى غير قصة حى بن يقظان . فالقصة تبدأ بحوار مع الفلاسفة السابقين عليه مثل الفارابى وابن سينا والغزالى وابن باجه ، وقد يتضمن هذا الحوار نقدا ، بل تبدأ القصة خطابها بقولها « سألت أيها الأخ الكريم الصفى الصميم - منجك الله البقاء الأبدى وأسعدك السعد السرمدى - أن أبث إليك ما أمكننى بثه من أسرار الحكمة المشرقية التى نكرها الشيخ (الإمام) الرئيس أبو على بن سينا » . ثم تأخذ القصة فى بيان النشأة الأولى « لحي » هل بالتولد الطبيعى من الطين أو بالميلاد من أب وأم ، وبيان كل حالة من هاتين الحالتين ، والعلاقة بين الجسد والنفس ، وبين القواد والروح ، وبين المادة والصورة ، ثم الوظائف المختلفة لأعضاء الجسم وعندما تموت الطبية التى قامت على تفنيته ورعايته ،

ويكتشف سر موتها ، تبدأ تأملاته الفلسفية حول الاختلاف والوحدة في الأشياء والنباتات والحيوانات ، ثم حول طبائع الأشياء ، فاكتشافه لقانون السببية ، ثم إدراكه للغة الأولى في الوجود ، وتسأله حول حدوث العالم أو قدمه ، والعلاقة بين العالم وواجب وجوده ، وصفاته ، ثم يعرض لمسألة النفس العاقلة بعد الموت ، هل مصيرها العدم أو الخلود ، ويعرض بشكل رمزي للعلاقة بين الدين والفلسفة ، ويصل أخيرا إلى مسألة الاتصال بالقوى العلوية المفارقة متطلعا وإلى التشبيه بها إلى غير ذلك .. إنها إذن - كما رأينا - ليست قصة فلسفية تعالج موضوعا محددا ، أو حدثا واحدا بل هي رؤية فلسفية شاملة متكاملة تجمع بين المحسوس والمجرد ، الطبيعي وما وراء الطبيعي ونستطيع أن نجد مصابرها الأولى عند بعض الفلاسفة السابقين مثل الفارابي وابن سينا ويخاصة ابن باجة في رؤيته للمتوحد في كتابه «تبدير المتوحد» كما نستطيع كذلك أن نتبين تأثيرها بعد ذلك في فلسفة ابن رشد بوجه خاص (٢) كما نستطيع أن نتبين في القصة تمييزا فلسفيا عن فلسفة دولة الموحدين في الأندلس التي حاولت أن ترفع من شأن العقل وتتخذ منه مركزا لدولتها لتضعف من نفوذ الفقهاء وزجال الدين الذين كانوا ، يواصلون هذا النفوذ برغم سقوط دولة المرابطين ذات التوجه الديني المتعصب ، لم يكن إذن كتاب «حي بن يقظان» أو قصته عملا منبثا عن تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية الوسيطة ، كما أنه لم يكن منبثا أو معزولا عن معركة عصره ومجتمعه . ولهذا تختلف هذه القصة عن كل الأبنية القصصية السابقة واللاحقة - الفكرية منها أو الأدبية - التي تكثر الدراسات حول أوجه التشابه والاختلاف بينها وبين قصة «حي بن يقظان» فلاشك أن قصة «سلامان وأيسال» اليونانية التي ترجمها «حنين بن اسحاق العبادي» ذات دلالة مختلفة تماما عن دلالة قصة ابن طفيل رغم التشابه السطحي بينهما ، وكذلك الأمر بالنسبة لقصة «حي بن يقظان لابن سينا وقصة» «حي بن يقظان» أو الغربة الغريبة للسهروردي ، فهما قصتان رمزيتان عن قوى النفس المختلفة والتمييز بينها وهناك قصة أخرى بعنوان «الكريتيكون» للأب بالتازار جراثيان نشرت في منتصف القرن السابع عشر بين ١٦٥٠-١٦٥٢ وهي تشبه تماما في نصها الأولى «حي بن يقظان» برغم أن ترجمة بوكوك لصي بن يقظان لم تنشر إلا عام ١٦٨١ ، ثم هناك قصة روبنسون كروزو «لدانييل دى فو» التي نشرت عام ١٧١٩ والتي تأثرت بغير شك بالبنية (٤) القصصية لقصة ابن طفيل وإن اختلفا تماما من حيث الدلالة ، «فروبنسون كروزو» قد يكون تصويرا وتجسيدا لفلسفة جان جاك روسو حول الصفاء الأول للإنسان الذي أفسده المجتمع ، وهو ما يختلف تماما عن فلسفة قصة «حي بن يقظان» على أن المشترك بين أغلب هذه القصص السابقة على قصة ابن طفيل أو اللاحقة لها هو التوحد أو التقرد في جزيرة منعزلة ، أو في سجن ، أو في طريق بحثا وتطلعا إلى معرفة عليا ، أو امتحانا واكتشافا لقدرات خاصة .

على أنه بصرف النظر عن النواة القصصية التي تتمثل في عزلة «حي بن يقظان» والتي نجدها

فى قصص أخرى بشكل أو بآخر ، فإننا نستطيع أن نتبين العلاقة المباشرة بينه حتى بن يقظان لابن طفيل وبين المتوحد فى تدبير المتوحد لابن باجة ، وأكاد أقول أن حتى بن يقظان هو الامتداد المتطور لمتوحد ابن باجة. ولد ابن باجة فى أواخر القرن الخامس الهجرى والصادى عشر الميلادى بمات مسموما عام ٥٥٣ هـ / ١١٣٨ م وقضى الجانب الأكبر من حياته فى ظل دولة المرابطين التى كانت تتسم بالتعصب الدينى كما سبق أن أشرنا.

يؤكد ابن باجة فى كتابه أن الإنسان مدنى بطبعه ولأحياة له بغير المجتمع ، ولكن المجتمع ملئ بالشور والردائل وتغلب الجوانب المادية» ولهذا فلا سبيل للفيلسوف الذى يريد أن يصل إلى الحقيقة إلا الابتعاد عن الناس ، ولكنها ليست دعوة إلى عزلة مطلقة بل إلى عزلة مختارة أو منتقاة -لوصح التعبير -أى عزلة بين علماء من أمثاله ، وليست عزلة انفرادية بومع ذلك فقد انتهى الأمر به إلى عزلة انفرادية، فما أندر أن يجد المرء علماء متفرغين للعلم! ولكن كيف يستقيم هذا مع قول ابن باجة بأن الإنسان بالذات مدنى بالطبع ؟ . ويقول ابن باجة إن الإنسان بالذات مدنى بالطبع، ولكنه متوحد بالعرض ، ذلك أن حياة التوحد قد تكون خيرا تماما كاطعام ، فالطعام خير بالذات ولكنه قد يكون شرا بالعرض بالنسبة للمريض .والسموم شر بالذات ولكنها قد تكون خيرا بالعرض فى حالة العلاج مثلا ، ولم تكن دعوة ابن باجة فى الحقيقة دعوة للعزلة عن المجتمع بقدر ما كانت نقدا غير مباشر لمظاهر التعصب والجهالة والشور والردائل التى كانت سائدة فى المجتمع فى ظل دولة المرابطين ، وكانت تعبيراً عن معاناته الفكرية فى هذه الفترة ، وكان توحيده وسيلة لتنمية الصفات العقلية وتوصلا إلى الإصال بالعقل الفعال وتحقيقا للإنسان الكامل، وبرغم الطابع العقلى لفكره فلا نستطيع أن نفعل عن تأثيره بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة ذات التوجه الغنوصى الباطنى. وفى تقديرى أن حتى بن يقظان لابن طفيل هو التجسيد المتطور- كما سبق أن ذكرنا- لمتوحد ابن باجة فى مرحلة جديدة هى مرحلة دولة الموحدين حيث الازدهار والاستقرار والتفتح العقلى. لقد أصبح ابن طفيل طبيا خاصا للسلطان أبو يعقوب يوسف ، وكان هو الذى قدم ابن رشد إليه لتحقيق مطلب السلطان فى شرح وتلخيص كتب أرسطو حتى يسهل إطلاع الناس عليها واستيعابهم لها ، دعما للتوجه العقلانى للدولة، فى مواجهة نفوذ الفقهاء ورجال الدين المتزمتين وقد حل ابن رشد محل ابن طفيل فى مكانته من السلطان بعد وفاته عام ١١٨٥ ميلادية. وقبل أن نعرض لتقييم «حتى بن يقظان» وتحديد دلالاتها ، قد يكون من الضرورى أن نعرض لبعض محاورها الأساسية عرضا مختصرا.

تبدأ قصة «حتى بن يقظان» كأنما هى محاولة للإجابة على سؤال حول أسرار الحكمة الشرقية» التى ذكرها الشيخ الإمام أبو على بن سينا وكيف هذا السؤال قد حرك عند ابن طفيل أو راوى القصة خاطرا شريفا أفضى به إلى حال لم يشهدها من قبل معنى هذا إن الإجابة على

السؤال لا تحتاج إلى مجرد تعرف أو تقرير أو شرح ، وإنما إلى معاناة وجدانية باطنية ، فهذا هو ما يتفق مع ما يسمى بالحكمة الشرقية أو فلسفة ابن سينا التى تنسم بالوجه الغنوصى والإشراقى . وهنا يشير إلى مختلف المحاولات والاجتهادات السابقة للتعبير عن هذه الحال ، عند الفارابى وابن سينا والغزالى وابن باجه ، منتقدا بعض أقاويلهم ، ثم يسعى إلى الجمع بين هذه الأقاويل المختلفة ، وإضافتها إلى ما استجد فى عصره منها حتى استقام له الحق ، أولا بطريق البحث النظرى ثم بطريق النوق اليسير بالمشاهدة أى المعاناة الباطنية ، وهكذا- كما يقول- «أصبح أهلا لكلام يؤثر عنا».

ولعل ابن طفيل فى قوله هذا، يدفعنا إلى الاختلاف مع د. محمد عابد الجابرى فى قوله بأن ابن طفيل فى «حى بن يقظان» يريد أن يذكر أسرار الحكم الشرقية للشيخ الرئيس ابن سينا ، ولكن ذكر هذه الأسرار لا يعنى تبنيها ولا الدفاع عنها بل العكس(هـ) فى تقديرى أن حى بن يقظان تعبير عن فلسفة ابن طفيل التى فيها بعض من غنوصية ابن سينا والفلسفة الأفلاطونية المحدثة وإن تجاوزتهما تجاوزا عقليا.

تبدأ القصة بعد ذلك بحكاية هذا الطفل «حى» الذى تصف تواجهه بأحد فرضين الفرض الأول أنه تولد من تخمر الطين من غير أب أو أم فى جزيرة من جزر الهند ، للملابسات طبيعية أتاقت هذا التولد الذى تعلق به بعد ذلك الروح من أمر الله تعالى.

أما الفرض الثانى فهو أنه مولود من أخت ملك ولدته نتيجة زواج سرى لا يرضى عنه أخوها ، ولهذا اضطرت إلى التخلص منه ، بأن وضعته فى تابوت فى اليم الذى حمله إلى هذه الجزيرة ، على أن الفرضين على اختلافهما يعبران عن دلالة واحدة سوف نعرض لها فيما بعد.

الطفل الوليد أو المتولد تتلقاه ظبية وتعتنى به حتى يشمد عوده ، فياخذ هو بتطوير ملكاته ومعارفه . فيتعلم أصوات الحيوانات بتقليدها لها حتى ألفها وألفته واستطاع طوال السنوات السبع الأولى أن يغطى عريه متخذاً ملابساً من أوراق الشجر ثم من جلود الحيوانات وأجنحة الطيور ، كما يتخذ لنفسه عصاة لحماية نفسه ، ويحسن استخدام يديه ، وفى نهاية هذه المرحلة السبعية الأولى تموت الظبية ، ويكون موتها فرصة لمحاولة اكتشاف أسباب الموت ، بالتالى سر الحياة الذى أخذ يتبينه بعد أن قام بتشريح عدد من الحيوانات . لقد اكتشف أن سر الحياة هو هذه الحرارة التى أحس بها فى ركن من أركان القلب وكان اكتشافه للنار قبل ذلك مغلخا لاكتشاف سر الحياة على أن هذه الحرارة ليست مجرد شئ يلمس فحسب ، بل هى شئ مختلف عن الجسمية ، إنها الروح ، وهكذا توصل إلى أن الجسم ، كل جسم حتى له أعضاء كثيرة ولكنه واحد بالروح ، وبدأ يتكشف له ما بين الأشياء الحية جميعاً من اختلافات فى الصفات والطباع رغم هذه الروح التى توحدتها . هناك إذن روح زائد عن الجسمية ، فالجسم هو مجرد امتداد (كما يقول ديكرت فيما بعد) له أبعاد

ثلاثة طول وعرض وعمق أما الروح فشئ متميز وزائد عن هذا الامتداد ،وهكذا أشرف على تخوم العالم العقلي ، وبدأ يكشف عن قانون السببية بين الأشياء لكل شئ فاعل أو علة .ولكل شئ صورة هي استعداده الخاص. ولكن ما مصدر هذه الصور ،وما مصدر وجود الموجودات جميعا؟ وبدأ شوقه إلى معرفة هذا الفاعل الأول، وكان قد بلغ الثمانية والعشرين من عمره أى أربع سنوات سبع وبدأ يفكر فى الأفلاك من فوقه اكتشف صورتها الكروية . ورأها على أختلافها شيئا واحدا يتصل بعضها ببعض. إنها جميعا تشبه شخصا من أشخاص الحيوان ،وهنا نبت سؤال جديد: هل هذا العالم حادث خرج إلى الوجود من العدم ، أم أنه كان قديما لم يسبقه العدم؟ وتشكك ولم يترجع عنده أحد الحكمين على الآخر، ولكن لابد لهذا العالم من فاعل ليس بجسم . فجميع الموجودات تقتقر فى وجودها إلى هذا الفاعل على أننا نكاد نستشعر بوضوح من بعض نصوصه- رغم تشككه السابق- أنه أقرب إلى القول بقدم العالم يقول العالم كله ، بما فيه من السماوات والأرض والكواكب وما فيها وما فوقها وما تحتها فعله وخلقه ،ومتأخر عنه بالذات وإن كانت غير متأخرة بالزمان (صفحة ٩١) أى أنها مخلوقة أو معلومة له. فهى بهذا متأخرة عنه من حيث الرتبة ولكنها فى الوقت نفسه غير متأخرة عنه من حيث الزمان ، أى أنها قديمة مثله ، ولعلنا نجد هنا نفس الصيغة الاشكالية التى سنجدها بعد ذلك فى فلسفة ابن رشد فى وصفه للعالم بأنه حادث بقديم ، أى أنه قديم قدم الله ،ولكنه حادث فى الوقت نفسه ،وعندما نصل مع حى بن يقظان إلى هذه الحقيقة يكون قد مرت عليه خمس وثلاثون سنة .وهنا يتساءل أى: قوة داخله استطاع بها أن يعرف هذا الفاعل القديم؟ ليس باللمس أو بالبصر أو بالشم أو بالذوق قد عرفه ، هناك قوة غير جسمية إذن قوة لافساد لها أبدا ، أى قوة خالدة ذات طبيعة ربانية فى داخله هى التى أتاحت له هذه المعرفة إنها القوة العقلية ، وهنا نكاد نتبين كذلك الإرهاص بنظرية ابن رشد فى خلود القوة العاقلة فى النفس مع فناء الأجساد والنفوس الفردية ، بل نجد كذلك ما سوف نجده بعد ذلك عند ابن رشد من أن العذاب والثواب فى حالة المعاد أمران معنويان ،وهنا أراد حى بن يقظان أن يزداد معرفة واقتربا من هذا الفاعل واجب الوجود كله. كيف؟ هل يتحقق له ذلك بالتشبه بالحيوان غير الناطق ، أم بالتشبه بالأجسام السماوية ، أم بالتشبه به هو نفسه أى بالموجود الواجب للوجود؟ وينتهى إلى ضرورة هذه الأحوال الثلاثة حقا، إن التشبه الأول عائب بذاته -كما يقول- ولكنه ضرورى ، لأنه لابد من الغذاء لإبقاء الروح الحيوانى ، على أن يأخذ من الطعام كفايته ولا يزيد ، وهنا يدخل فى التمييز بين أنواع الأغذية المختلفة تحقيقا لهذه الغاية . أما التشبه الثانى بالأجسام السماوية فهو ضرورى كذلك ، إنه يستلزم التطهر الدائم والعمل على مساعدة كل ذى حاجة أو عااة أو تواجهه عقبة سواء كان حيوانا أو نباتا ، هذا إلى جانب الطواف باستدارة فى الجزيرة تشبها بحركة هذه الأجسام السماوية . أما التشبه الثالث فهو أن يأخذ بقطع علاقته بالمحسوسات

، وألا يفكر فى شئ سواه، وأن يغيب عن كل الذوات إلا ذاته ، وأن يفنى عن نفسه ، وأن يخلص فى مشاهدة الحق، ما يزال يحاول ذلك حتى تأتى له . وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كان يغيب ثم يعود إلى عالم المحسوسات ثم يأخذ به الشوق مرة أخرى إلى المقام العالى وهكذا . وأصبح من اليسر عليه أن يذهب ويعود كلما أراد . وكان فى هذه الحال قد أناف على سبع مرات من السنوات السبع، من منشأه ، أى بلغ ما يقرب الخمسين عاما، وهنا يلتقى بأبسال الذى انتقل إلى هذه الجزيرة من جزيرة قريبة منها لها ملة من المال الصحيحة المخوذة من بعض الأنبياء المتقدمين ، وكان أبسال مع أخيه سلامان على رأس هذه الجزيرة وكان بينهما خلاف ، فأبسال أشد غوصا على الباطن وأكثر عثورا على المعانى الروحية وأطعم فى التوكل ، أما سلامان فكان أشد احتفاظا بالظاهرة وأشد بعدا عن التوكل ولهذا افترق عنه أبسال وجاء إلى هذه الجزيرة يتعبد على طريقته ويلتقى بحى بن يقظان ذات مرة خرج فيها حى من مفارته . ثم أخذ يعلمه الكلام، ولما تم له ذلك اكتشف أن ما توصل إليه حى بن يقظان هو نفسه الذى تقول به ملته التى أتى بها نبي من الأنبياء ، وهكذا تطابق عند حى بن يقظان المعقول والمنقول وقربت عليه طرق التوكل ، ورأى فيه أبسال وليا من أولياء الله . ولعل هذا هو ما دعا أغلب مؤرخى الفلسفة إلى القول بأن قصة حى بن يقظان تذهب إلى التوفيق بين الدين والفلسفة وتعرض لهذا فيما بعد.

ثم يحكى أبسال لحى بن يقظان حكاية الجزيرة الأخرى التى جاء منها ، وكيف أن أهلها يأخذون الدين بظاهره ويرمونه وأمثاله دون تأويل لها . فضلا عن الطقوس وأشكال العبادات المختلفة مثل العبادات والصلاة والزكاة والصدود، وقطع يد السارق واقتناء الأموال والمتاجرة عامة ، ويعجب حى بن يقظان من كل هذا وينتقده ، ويرى ضرورة أن يذهب إلى هذه الجزيرة لإقناع الناس وبث أسرار الحكم لهم ، ويذهبان إلى الجزيرة حيث يلتقيان بسلامان ويأخذ حى بن يقظان فى الحديث مع أهل الجزيرة معبرا عن رأيه، وينقبض الناس عنه بل يستهزئون به، ويقال له ، ذلك أنهم فرحون ، راضون بما لديهم ويشعرون حى بن يقظان أنهم قد اتخذوا لهم هواهم ، وأصبح معبودهم شهواتهم ، وقد غمرتهم الجهالة كما غمرهم الجشع ، وحب المتاجرة والمنافسة والريح ، وهكذا تبين حى بن يقظان أنه لا سبيل للحكمة إليهم ، فلقد رأى سرائق العذاب قد أحاط بهم وظلمات الحجب قد غشيتهم ، فهم يتخذون من الدين وسيلة ليستقيم بها معاشهم ، ولهذا رأى أن ظاهر الدين بأمثاله ورموزه ألقى بهم وأقيد لهم بومن الصالح أن يظلوا فى حدود هذا الفهم الظاهرى للدين بغير تأويل بوعاد حى بن يقظان وأبسال إلى جزيرتهما ليواصلتا عبادتهما كل على طريقته حتى أتاهما اليقين.

هذه هى المحاور الأساسية -فى تقديرى- لقصة حى بن يقظان وتبقى بعض الملاحظات العامة

عليها:

١- إن الأيديولوجية التي كانت سائدة بشكل عام في المرحلة التاريخية المسماة بالوسيطه ، هي الأيديولوجية الدينية، وكانت هي الإطار العام لكل الأفكار والفلسفات في هذه المرحلة ولهذا فإن الجانب الديني في هذه الأفكار والفلسفات ليس هو المعيار الأساسي لتقييمها وإنما المعيار هو الموقف من هذا الجانب الديني ، بمعنى الاختلاف في نقطة البداية المعرفية : هل الانطلاق من الوحي الديني تفسيراً للموجودات ، أم الانطلاق من العقل الإنساني لتفسير الموجودات ، بل وللدن كذلك؟ ولهذا فليس من الموضوعية اتخاذ بعض الدارسين التوجه الديني الإيمانى عند فلاسفة هذا العصر ومن بينهم ابن طفيل أساسا للحكم عليهم بالاتجاه المثالى غير العقلانى أو غير المادى عامة.

٢- إن الفرضين اللذين قال بهما ابن طفيل لتفسير نشأة حى بن يقظان ، لا يختلفان كثيرا من الناحية الفلسفية التى تسعى القصة إلى تكديدها ، فسواء كانت النشأة متولدة من تخمير قطعة من الطين ، أو ثمرة ولادة من أم وأب ، فإن الدلالة واحدة وهى التى حاول ابن طفيل أن يؤكد بها بقصته ، فلقد استطاع حى بن يقظان المتولد من الطين أو المولود من أبوين أن يبلغ مرتبة عالية من المعرفة بدون موروثات فطرية ، أو مكتسبات من تعليم أو من وحي ، وإنما تحققت هذه المرتبة المعرفية بجهده الذاتى الحسى والتجريبى والعملى والاستدلالى العقلى ، المعارف إذن ليست فطرية يتذكرها الإنسان ويستخلصها بشكل تلقائى كما فعل هذا العبد الجاهل فى إحدى محاورات افلاطون الذى استطاع سقراط أن يستخلص منه كل قوانين الهندسة والرياضة.

- هذا هو المعنى الجوهرى فى تقديرى للقول بالتولد من الطين أو بعزلة الطفل المولود عن أبويه بعد ولادته مباشرة ، ولا يشير التولد من الطين إلى أى دلالة مادية خالصة كما يقول بعض المفسرين ، وإن كان من الممكن ذلك ، بشكل عابر ، لأن الله قد أسبغ على هذا الجسد المتولد ، روحا من عنده فور تولده كما تقول القصة ، وفضلا عن هذا فإن النشأة من الطين التى تشكل بها الجسد لا تعنى -كما يقول تفسير من التفاسير- الحط من شأن الجسد الإنسانى واحتقاره بدليل محاولة حى فى النهاية التخلّى عن جسده فى رحلته الباطنية للاتصال والمشاهدة ، فالمقصود من طبيعة النشأة بفرضيها معا هو كما ذكرنا التمهيد لتقديم نظرية موضوعية فى المعرفة الإنسانية.

٣- يكاد جوهر القصة أن يكون- كما ذكرنا فى النقطة السابقة- هو تقديم نسق كامل لنظرية فى المعرفة ، ويتم تقديم هذا النسق لا بالتنظير المجرد وإنما بالتمثيل والتشخيص العلمى بوجاهة النظرية أن المعرفة لا تستمد من معارف فطرية ، وإنما تتحقق عبر مراحل ومستويات تبدأ بالخبرة الحسية ، لترتفع إلى التجربة والممارسة العملية ، ثم إلى الاستدلال العقلى النظرى ثم إلى المعاناة الوجدانية المؤسسة على النوق والحس ، وصولا إلى حال من الاتصاف والمشاهدة بالمقام الإلهى ، دون أن تعنى هذه الخطوة الأخيرة التخلّى عن مراتب الوصول السابقة وإلغاء الحس والعقل كما

تذهب بعض الدراسات.

وفضلا عن هذا كله ، فإن هذا المسار المعرفي الذي اجتازه حى بن يقظان قد نجح فى تحقيقه بجهده الذاتى ، بغير معارف فطرية أو موروثات ذاتية أو مكتسبات اجتماعية ، أو وحي دينى أو إرشاد نبوى ولا يعنى هذا رفضا للشرط الاجتماعى للمعرفة ، وإنما الهدف الأساسى هو رفض النظرية المثالية اللدنية القبلية للمعرفة.

٤- إن الفكر -بحسب هذه النظرية المعرفية- يمكن أن يتحقق بدون اللغة ، فضلا عن أن اللغة إنما يتم تعلمها بالمثال والنموذج من العينى المحسوس إلى النظرى بشكل متدرج.

٥- إن حى بن يقظان لا تقول بالتوفيق بين الدين والفلسفة ، أو بين النقل والعقل كما يقول أغلب المفسرين ، بل تقول بعكس ذلك تماما ، أى بالانفصال بينهما ، حقا أنها تقول بوحدة الحقيقة النهائية عند كليهما ، ولكن لكل منهما منهجه الخاص به ، فعنهج الإيمان الخالص ، غير منهج العقل الاستدلالى . لقد توصل حى بن يقظان إلى الحق فى غير حاجة إلى رسالة من نبي أو تعليم وإرشاد من فقيه ، توصل إلى الحق بالاعمال العقلية تدرجا من الإدراك الحسى إلى التصور النظرى فالمشاهدة النوقية الوجدانية على حين أن سلامان وأهل جزيرته ممن صدق إيمانهم ، إنما يدركون الحق بإيمانهم الخاص ، وممارستهم للشعائر ، ورفضهم التأويل اكتفاء بالوحي وظاهر الشرع هناك إذن منهجان لا اتصال بينهما ، وصولا إلى الحق! ولعل ابن طفيل حرص أن يجسد هذا فى جزيرتين ، فكل جزيرة هى تجسيد لمنهج فى طريق الحق أما بقاء أبسال معه فى جزيرته فهو لقاء بين عالم الدين الذى يقبل التأويل وهو أبسال والفيلسوف العقلى هو «حى» الذى يلتقى مع أبسال فى التأويل ولكنه يتجاوزه فى الرؤية الفلسفية الشاملة ، ولعلنا نجد فى هذا التمييز بين الجزيرتين ، بين التسليم بظاهر الوحي وتأويله إرهابا لكتاب ابن رشد «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» ، على أن هذا التمييز لا يعنى عند ابن طفيل أو عند ابن رشد من بعده تمييزا طبقيًا اجتماعيًا كما يقول بعض الدارسين بقدر ما هو تمييز بين منهجين للمعرفة ومستويين للإدراك.

٦- أكتفى هنا بالإشارة إلى بعض القضايا الفلسفية التى ذكرناها فى معرض تلخيصنا للقصة ، والتى سوف تصبح من الأعمدة الأساسية فى بناء ابن رشد الفلسفى وهى القول بقدم العالم وحدثه فى الوقت نفسه ، والقول بخلود القوة العاقلة ، وبأنجزاء والعقاب فى الآخرة ، يقتصران على الجانب المعنوى ، والقول بالسببية الموضوعية التى تربط أجزاء الموجودات على اختلافها ، والتى تعد دليلا على القول بالعللة الأولى أى الله ، ثم أخيرا القول بوحدة الوجود بالمعنى الصوفى وإنما بمعنى الترابط العضوى بين كل عناصر الطبيعة بما فوق الطبيعة.

٧- أكتفى أخيرا بالإشارة إلى موقف إنسانى عميق الدلالة الأخلاقية ، لعلى قد أشرت إليه

إشارة عابرة عند الحديث عن محاولة «حي» التشبيه بحركة الأشياء السماوية ، فهو يلزم نفسه ألا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضرة أو ذا عائق من الحيوان والنبات وهو يقدر على إزالتها إلا ويزيلها وهو يوضح هذا قائلاً أو راوياً على لسان ابن طفيل «فمتى وقع بصره على نبات قد حجبته عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه أو عطش عطشاً يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب إن كان ما يزال وفصل بينه وبين ذلك المؤذى بفواصل لا يضر المؤذى وتعهده بالسقى ما أمكنه ومضى وقع بصره على حيوان قد أرقه ضيع أو نشب به ناشب أو تعلق به شوك أو سقط فى عينيه أو أذنيه شئ يؤذيه أو مسه ظمأ أو جوع تكفل بإزالة ذلك كله عن جهده وأطعمه وأسقاه ومضى وقع بصره على ماء يسيل إلى سقى نبات أو حيوان وقد عاق مره ذلك عائق من حجر سقط فيه أو جرف أنهار عليه أزال ذلك كله وعنه وما زال يمعن فى هذا النوع من ضروب التشبيه حتى بلغ فيه الغاية».

والى جانب هذا المسلك الأخلاقى الرفيع أشير إلى ما سبق ذكره من رفضه للمال والمتاجرة والشروع عامة ، ونقده للطقوس الدينية الشكلية ، وليس فى هذا الموقف ، أو فى فلسفة ابن طفيل عامة أى استعلاء فردى نخبوى كما تقول بعض الدراسات ، وإنما تفيض هذه الفلسفة روحاً إنسانية بالغة الرهافة فضلاً عن استنارتها العقلية ونبالتها الأخلاقية.

هذه بعض الملاحظات المستخلصة من هذا النص الفلسفى العميق للدلالة ، الذى لا يعد -كما يقال كذلك- نغياً للعقل أو للعلم التجريبي ، أو تقييماً للذات الإنسانية ، وإنما هو رؤية متسقة عقلانية ، تمثل اقتدار الإنسان على الوصول إلى الحقيقة والفضيلة بمجاهداته الذاتية دون أن ينفى الآخر وإن اختلف معه ، على أنه برغم هذا الطابع العقلانى الذى يتسم به هذا النص الفلسفى ، فإنه لا يخلو من تأثيرات غنوصية إشراقية صوفية ، ويبدو أنه كان على ابن رشد أن يقوم بالدور الفلسفى التاريخى لتطوير الطابع العقلانى وتعميقه فى تراثنا الفلسفى ، وأن يسعى إلى تخليصه أو تمييزه -على الأقل- من هذه التأثيرات الغنوصية ، فكانت شروحه وتلاخيصه لكتب أرسطو -الذى كان لابن طفيل فضل تشجييعه عليها- وكانت إضافاته إلى هذه الشروح والتلاخيص بفضلها عن كتاباته الفلسفية الأخرى ، فكان ابن رشد بهذا امتداداً عقلانياً متطوراً لفلسفة أرسطو وابن طفيل والفلسفة العربية الإسلامية عامة فى عصره.

الهوامش

- (١) ولد أبو بكر بن طفيل فى السنوات العشر الأولى من القرن الثانى عشر الميلادى أى بين ٤٩٥ إلى ٥٠٥ هجرية على حد ترجيح د. عبد الرحمن بدوى ، وتوفى عام ٥٨١هـ -١١٨٥م.
- (٢) نقرأ قصة «حي بن يقظان» لابن طفيل فى «حي بن يقظان» لابن سينا وابن طفيل والسهورودى «تحقيق وتعليق أحمد أمين» الطبعة الثالثة دار المعارف عام ١٩٦٦ ص ١٠٧.

(٣) نلاحظ في الطبعة الثالثة لصي بن يقظان التي أشرنا إليها من قبل خطأ يبدو مطبعياً في تحديد العلاقة بين ابن طفيل وابن رشد تقرأ «وكان ابن رشد أكبر منه سناً وقد حل ابن طفيل طبيباً للسلطان لما طعن ابن رشد في السن» (ص ٧) ونقرأ «وينهب بعض المؤرخين أنه كان تلميذا لابن رشد ولكنه هو نفسه لا يذكر ذلك ص ١٠ وإن جاء في نفس الصفحة «ثم تخلى ابن طفيل عن عمله كطبيب للمنصور وتركه لابن رشد».

(٤) هناك دراسة مقارنة لصي بن يقظان وروينسون كروز للأستاذ حسن محمود عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٣ .

(٥) محمد عابد الجابري بحث التراث ص ٢٩٢ دار الطليعة - بيروت والمركز الثقافي العربي - الدار البيضاء طبعة أولى ١٩٨٠ .



مختارات من قصة حى بن يقظان لابن طفيل كيف تكون حى بن يقظان؟

ذكر سلفنا الصالح- رضى الله عنهم- إن جزيرة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء
وهى الجزيرة التى يتولد بها الإنسان من غير
من غير أم ولا أب (وبها شجر يثمر نساء وهى التى ذكر المسعودى (١) إنها فى جوارى
الواقواق (٢) لأن تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض هواء ، وأتمها لشروق النور الأعلى عليها
استعدادا ، وإن كان ذلك على خلاف ما يراه جمهور الفلاسفة وكبار الأطباء فإنهم يرون أن أعدل
ما فى المعمورة الإقليم الرابع ، فإن كانوا قالوا ذلك لأنه صبح عندهم أنه ليس على خط الاستواء
عمارة لما نفع من الموانع الأرضية ، فلقولهم : إن الإقليم الرابع أعدل بقاع الأرض (الباقية) بوجه ،
وإن كانوا إنما أرادوا بذلك إن ما على خط الاستواء شديد الحرارة ، كالذى يصرح به أكثرهم فهو
خطا يقوم البرهان على خلافة(٣) ، وذلك أنه قد تبرهن فى العلوم الطبيعية أنه لا سبب لتكون
الحرارة إلا الحركة ، أو ملاقة الأجسام (الحارة) والإضاءة ، وتبين فيها أيضا أن الشمس بذاتها
غير حارة ولا متكيفة بشئ من هذه الأمور المزاجية(وقد) تبين فيها أيضا أن الأجسام التى تقبل
الإضاءة أتم القبول هى الأجسام الصقيلة غير الشفافة ، وليلها فى قبول ذلك الأجسام الكثيفة
غير الصقيلة ، فاما الأجسام الشفافة التى لا شئ فيها من الكثافة فلا تقبل الضوء بوجه وهذا
وحده مما برهنه الشيخ أبو على(وحده) خاصة بولم يذكره من تقدمه(٤) فإذا تم وصحت هذه
المقدمات ، فاللزم عنها أن الشمس لا تسخن الأرض كما تسخن الأجسام الحارة أجساما أخرى
تماسها ، لأن الشمس فى ذاتها غير حارة(٥) ، ولا الأرض أيضا تسخن بالحركة لأنها ساكنة
بوعلى حالة واحدة فى شروق الشمس عليها وفى وقت مغيبها (عنها) وأحوالها فى التسخين
والتبديد ، ظاهرة الاختلاف للشمس فى هذين الوقتين ، ولا الشمس أيضا تسخن الهواء ، أولا ثم
تسخن بعد ذلك الأرض بتوسط سخونة الهواء وكيف يكون ذلك ونحن نجد (أن) ما قرب من الهواء
من الأرض فى وقت الحر ، أسخن كثيرا من الهواء الذى يبعد منه علوا؟ فبقى أن تسخن الشمس
للأرض إنما هو على سبيل الإضاءة لا غير فإن الحرارة تتبع الضوء أبدا ، حتى إن الضوء إذا
أفرط فى المرأة المقعرة أشعل ما حاذها. وقد ثبت فى علوم التعاليم بالبراهين القطعية ، أن
الشمس كروية الشكل ، وإن الأرض كذلك(٦) ، وأن الشمس أعظم من الأرض كثيرا وأن الذى
يستضيئ من الأرض بالشمس أبدا هو أعظم من نصفها ، وإن هذا (النصف) المضيئ من الأرض
فى كل وقت أشد ما يكون الضوء فى وسطه لأنه أبعد المواضع من الظلمة (عند محيط الدائرة)

ولأنه يقابل من الشمس أجزاء أكثر ،وما قرب من المحيط كان أقل ضبوا حتى ينتهى إلى الظلمة عند محيط الدائرة الذى ما إضاء (موقعه) من الأرض (قط) ، وإنما يكون الموضع وسط دائرة الضياء إذا كانت الشمس على سمت رؤوس الساكنين فيه وحينئذ تكون الحرارة فى ذلك الموضع أشد ما يكون فإن كان الموضع مما تبعد الشمس (فيه) عن مسامته رؤوس أهله كان شديد البرودة جدا ، وإن كان مما تدوم فيه المسامته كان شديد الحرارة ، وقد ثبت فى علم الهيئة أن بقاع الأرض التى على خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤوس أهلها سوى مرتين فى العام عند حلولها برأس الحمل وعند حلولها برأس الميزان ، وهى فى سائر العام ستة أشهر جنوبا منهم ، وستة أشهر شمالا منهم ، فليس عندهم حر مفرط ، ولا برد مفرط ، وأحوالهم بسبب ذلك متشابهة .

وأما الذين زعموا أنه تولد (من الأرض) فإنهم قالوا أن بطناً من أرض تلك الجزيرة ، تخمرت فيه طينة على مر السنين (والأعوام) ، حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس ، امتزاج تكافؤ وتعادل فى القوى .

وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جدا ، وكان بعضها يفضل بعضها فى اعتدال المزاج والتهيب لتكون الأمشاج ، وكان الوسط منها أعدل ما فيها واتمه مشابهة بمزاج الإنسان ، فتمخضت تلك الطينة ، وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها ، وحدث فى الوسط منها (لزوجة) ونفاخة صغيرة جدا ، منقسمة بقسمين ، بينهما حجاب رقيق ممثلة بجسم لطيف هوائى فى غاية من الاعتدال الثلاثى به ، فتعلق عند ذلك «الروح» الذى هو من أمر الله تعالى وتشبث به تشبثا يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل ، إذ قد تبين أن هذا الروح دائم الفيضان على العالم ، فمن الأجسام ما لا يستضاء به وهو الهواء الشفاف جدا ، ومنها ما يستضاء به بعض استضاءة وهى الأجسام الكثيفة غير الصقيلة ، وهذه تختلف فى قبول الضياء ، وتختلف بحسب ذلك ألوانها ، ومنها ما يستضاء به بعض استضاءة وهى الأجسام الكثيفة غير الصقيلة ، وهذه تختلف فى قبول الضياء ، وتختلف بحسب ذلك ألوانها ، ومنها ما يستضاء به غاية الاستضاءة وهى الأجسام الصقيلة كالمرأة ونحوها ، فإذا كانت هذه المرأة مقمرة على شكل مخصوص ، حدث فيها النار لإفراط الضياء وكذلك الروح الذى هو من أمر الله (تعالى) فياخذ أبدا على جميع الموجودات ، فمنها ما لا يظهر أثره فيه لعدم الاستعداد وهى الجمادات التى لا حياة لها ، وهذه بمنزلة الهواء فى المثال المتقدم ، ومنها ما يظهر أثره فيه وهى أنواع النبات بحسب استعداداتها ، وهذه بمنزلة الأجسام الكثيفة فى المثال المتقدم ، ومنها ما يظهر أثره فيه ظهورا كثيرا وهى أنواع الحيوان ، وهذه بمنزلة الأجسام الصقيلة فى المثال المتقدم .

ومن هذه الأجسام الصقيلة ما يزيد على شدة قبوله لضياء الشمس أنه يحكى صورة الشمس ومثالها وكذلك أيضا من الحيوان ما يزيد على شدة قبوله للروح أنه يحكى الروح ويتصور بصورته

وهو الإنسان خاصة ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : «إن الله خلق آدم على صورته» (٧) فإن قويت فيه هذه الصورة حتى تتلشى جميع الصور في حقها ، وتبقى هي وحدها وتحرق سبحات نورها كل ما أدركته ، كانت حينئذ بمنزلة المرأة المنعكسة على نفسها ، المحرقة لسواها ، وهذا لا يكون إلا للأنبياء صلوات الله عليهم (أجمعين) وهذا كله مبين في مواضعه الثلاثة به ، فليرجع إلى تمام ما حكوه من وصف ذلك التخلق.

قالوا : فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة ، خضعت له جميع القوى وسجلت (له سخرت) بأمر الله (تعالى) في كمالها ، فتكون بإزاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمة إلى ثلاث قرارات ، بينها حجب لطيفة ومساك نافذة ، وامتلات بمثل ذلك الهوائى الذى امتلات منه القرارة الأولى ، إلا أنه أطف منه.

وسكن في هذه البطون الثلاثة المنقسمة من واحد ، طائفة من تلك القوى التى خضعت له ، وتوكلت بحراستها والقيام عليها ، وإنهاء ما يطرأ فيها من دقيق الأشياء وجلبيلها إلى الروح الأول المتعلق بالقرارة الأولى.

وتكون أيضا بإزاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية ، نفاخة ثالثة مملوءة جسما هوائيا ، إلا أنه أغلظ من الأولين وسكن هذه القرارة فريق من تلك القوى الخاضعة وتوكلت بحفظها والقيام عليها ، فكانت هذه القرارة الأولى والثانية والثالثة أول ما تخلق من تلك الطينة المتخمرة (الكبرى) على الترتيب الذى ذكرناه.

كيف تربي حتى ين يقظان؟

إن الطيبة التى تكلفت به وافقت خصبا ومرعى أثيا ، فكثرت لحمها وبر لبنها ، حتى قامت بغذاء ذلك الطفل أحسن قيام ، وكانت معه لا تبعد عنه إلا لضرورة الرعى ، وألف الطفل تلك الطيبة حتى كان بحيث إذا هى أبطأت عنه أشد بكاءه فطار إلى (٨).

ولم يكن بذلك الجزيرة شئ من السباع العادية ، فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الطيبة إلى أن تم له حولان ، وتدرج في المشى وأثغر (٩) فكان يتبع تلك الطيبة وكانت هى ترفق به وترحمه وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة وما كان منها صلب القشر كسرت له بطواحنها ، ومضى عاد إلى اللبن أروته ومضى ظمى إلى الماء أوردته ومضى صحا (١٠) ظللته ومضى حضر (١١) أنفاته ، وإذا جن الليل صرفته إلى مكانه الأول ، وجلته بنفسها ويريش كان هناك ، مما ملئ به التابوت (١٢) أولا فى وقت وضع الطفل فيه ، وكان في غنوهما ورواحهما قد ألفهما ربرب يسرح (وينعش) ويبيت معهما حيث مبيتها .

فما زال الطفل مع الأطباء على تلك الحال : يحكى (١٣) نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما وكذلك كان يحكى جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنوع سائر الحيوان ، محاكاة شديدة (لقوة

انفعاله لما يريده) وأكثر ما كانت محاكاته لأصوات الطيأ في الاستصراخ والاستتلاف والاستدعاء والاستدفاع إذ للحيوانات في هذه الأحوال المختلفة أصوات مختلفة ، فالفته الوحوش وألفها ولم تتكره ولا أنكرها فلما ثبت في نفسه أمثلة الأشياء بعد مغيبيها عن مشاهدته حدث له نزوع إلى بعضها بؤكراهية لبعض.

وكان في ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار والأشعار (أنواع) الريش ، وكان يرى مالها من العدو وقوة البطش، ومالها من الأسلحة المعدة للدافعة من يئازمها ، مثل القرون والأنياب والحوافر والصياصى (١٤) والمخالب ثم يرجع إلى نفسه ، فيرى ما به من العرى وعدم السلاح وضعف العدو ، وقلة البطش ، عندما كانت تنازعه الوحوش أكل الثمرات ، وتستبد بها بونه ، وتغلب عليها ، فلا يستطيع المدافعة عن نفسه ، ولا الفرار عن شئ منها.

وكان يرى أثرابه من أولاد الطيأ ، قد نبئت لها قرون ، بعد أن لم تكن وصارت قوية بعد ضعفها في العدو ، ولم ير لنفسه شيئاً من ذلك كله . فكان يفكر في ذلك ولا يدري (ما) سببه . وكان ينظر إلى نوى العامات والخلق الناقص ، فلا يجد لنفسه شبيهاً فيهم . وكان أيضاً ينظر إلى مخارج الفضول من سائر الحيوان ، فيراها مستورة ، أما مخرج أغظ الفضلتين فبالأناب ، وأما (مخرج) أرقهما فبالأوبار وما أشبهها ولأنها كانت (أيضاً) أخفى قضبانا منه.

فكان ذلك يكرهه ويسوءه فلما طال همه في ذلك كله . وهو قد قارب سبعة أعوام ، ويئس من أن يكمل له (ذلك) وما قد أضر به نقصه . اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئاً جعل بعضه خلفه وبعضه قدماه ، وعمل من الخوص والحلفاء (١٥) (شبه) حزام على وسطه ، علق به تلك الأوراق فلم يلبث إلا يسيراً حتى نوى ذلك الورق وجف وتساقط (عنه) فما زال يتخذ غيره ويخصف بعضه ببعض طاقات مضاعفة ، وربما كان ذلك أطول لبقائه ، إلا أنه على كل حال ، قصير المدة ، واتخذ من أغصان الشجر عصياً سوى أطرافها وعدل متنها . وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له ، فيحمل على الضعيف منها ، ويقاوم القوى منها ، فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نبالة ، رأى أن لديه فضلاً كثيراً على أيديها : إذ أمكن له بها من ستر عورته واتخاذ العصى التي يدافع بها عن حوزته ، وما استغنى به عما أرادته من الذنب والسلاح الطبيعي.

سعرفته عالم الكون والفساد

ثم إنه بعد ذلك أخذ في مأخذ آخر فتصفح جميع الأجسام التي في عالم الكون والفساد (١٦) : من الحيوانات على اختلاف أنواعها ، والنبات والمعادن وأصناف الحجارة والتراب والماء والبخار والثلج والبرد ، والدخان (والجليد) واللهيب والحر ، فرأى لها أوصافاً كثيرة وأفعالا مختلفة وحركات متفقة ومتضادة ، وأمعن النظر في ذلك والتشبيث فرأى أنها تتفق ببعض الصفات وتختلف ببعض ، وأنها من الجهة التي تتفق بها واحدة وبمن الجهة التي تختلف فيها متغايرة ومتكثرة . فكان تارة ينظر خصائص الأشياء وما يتفرد به بعضها عن بعض ، فتكثر عنده كثرة تخرج عن الحصر ،

وينتشر له الوجود انتشارا لا يضبط، وكانت تتكرر عنده أيضا ذاته ، لأنه كان ينظر إلى اختلاف أعضائه وأن كل واحد منها منفرد بفعل وصفة تخصه ، وكان ينظر إلى كل عضو (منها) فيرى أنه يحتمل القسمة إلى أجزاء كثيرة جدا ، فيحكم على ذاته بالكثرة ، وكذلك على ذات كل شئ . ثم كان يرجع إلى نظر آخر من طريق ثان ، فيرى أن أعضائه ، وأن كانت كثيرة ، فهي متصلة كلها بعضها ببعض ، لا انفصال بينها بوجه ، فهي في حكم الواحد ، وأنها لا تختلف إلا بحسب اختلاف أفعالها ، وأن ذلك الاختلاف إنما هو بسبب ما يصل إليها من قوة الروح الحيوانى ، الذى إنتهى إليه نظره أولا ، وأن ذلك الروح واحد فى ذاته ، وهو (أيضا) حقيقة الذات ، وسائر الأعضاء كلها كالآلات ، فكانت تتحد عنده ذاته بهذا الطريق.

ثم كان ينتقل إلى جميع أنواع الحيوان ، فيرى كل شخص منها واحدا بهذا النوع من النظر ، ثم كان ينظر إلى نوع منها: كالظباء والخيل ، والحرر ، وأصناف الطير صنفا صنفا ، فكان يرى أشخاص كل نوع يشبه بعضه بعضا فى الأعضاء الظاهرة والباطنة ، والإدراكات والحركات ، والمنازع ، ولا يرى بينها اختلافا إلا فى أشياء يسيرة بالإضافة إلى ما اتفقت فيه . وكان يحكم بأن الروح الذى لجميع ذلك النوع شئ واحد ، وأنه لم يختلف إلا أنه انقسم على قلوب كثيرة ، وأنه لو أمكن أن يجمع جميع الذى إفترق فى تلك القلوب منه ويجعل فى وعاء واحد ، لكان كله شيئا واحدا ، بمنزلة ماء واحد ، أو شراب واحد ، يفرق على أوان كثيرة ، ثم يجمع بعد ذلك ، فهو فى حالته تقريفة وجمعه شئ واحد ، وإنما عرض له التكرار بوجه ما ، فكان يرى النوع كله بهذا النظر واحدا ، ويجعل كثرة أشخاصه بمنزلة كثرة أعضاء الشخص الواحد التى لم تكن كثيرة فى الحقيقة.

ثم كان يحضر أنواع الحيوان كلها فى نفسه ويتأملها فيراها تتفق فى أنها تحس وتتغذى ، وتتحرك بالإرادة إلى أى جهة شاعت ، وكان قد علم أن هذه الأفعال هى أرخص أفعال الروح الحيوانى ، فظهر له بهذا التأمل ، أن الروح الحيوانى الذى لجميع جنس الحيوان واحد بالحقيقة . وإن كان فيه اختلاف يسير ، اختص به نوع دون نوع ، بمنزلة ماء واحد مقسوم على أوان كثيرة بعضه أبرد من بعض ، وهو فى أصله واحد . وكل ما كان فى طبقة واحدة من البرودة ، فهو بمنزلة اختصاص ذلك الروح الحيوانى بنوع واحد ، ويعد ذلك ، فكما أن ذلك الماء كله ، فكذلك الروح الحيوانى واحد ، وإن غرض له التكرار بوجه ما . فكان يرى جنس الحيوان كله واحدا بهذا النوع من النظر . ثم كان يرجع إلى أنواع النبات على اختلافها ، فيرى كل نوع منها تشبه أشخاص بعضها بعضها فى الأغصان والورق ، والزهر والثمار والأفعال ، فكان يقيسها بالحيوان ، ويعلم أن لها شيئا واحدا اشتركت فيه ، هو لها بمنزلة الروح للحيوان ، وأنها بذلك الشئ واحد . وكذلك كان ينظر إلى جنس النبات كله ، فيحكم باتحاده بحسب ما يراه من إتفاق فعله فى أنه يتغذى وينمو .

ثم كان يجمع فى نفسه جنس الحيوان وجنس النبات ، فيراها جميعا متفقين فى الإغذاء والنمو ، إلا أن الحيوان يزيد على النبات بفضل الحس والإدراك (والتحرك) ، وربما ظهر فى النبات

شئ شبيه به، مثل تحول وجوه الزهر إلى جهة الشمس، وتحرك عروقه إلى جهة الغذاء، وأشباه ذلك، فظهر له بهذا التأمل أن النبات والحيوان شئ واحد، بسبب شئ واحد مشترك بينهما، هو في إحداهما أتم وأكمل وفى الآخر قد عاقه عائق (ما)، وأن ذلك بمنزلة ماء واحد قسم بقسمين أحدهما جامد والآخر سيال، فيتحد عنده النبات والحيوان.

ثم ينظر إلى الأجسام التى لا تحس ولا تفتدى، ولا تنمو من الحجارة والتراب والماء والهواء والهلب، فيرى أنها أجسام مقدر لها طول وعرض وعمق، وأنها لا تختلف، إلا أن بعضها نولون، وبعضها لالون له، وبعضها حار، وبعضها بارد، ونحو ذلك من الاختلافات. وكان يرى أن الحار منها يصير بارداً وبالبارد (يصير) حاراً، وكان يرى الماء يصير بخاراً والبخار (يصير) ماء والأشياء المحترقة تصير جمرًا؛ ورمادًا ولهيبًا، وبخانا والدخان إذا وافق فى صعوده قبة حجر انعقد فيه وصار بمنزلة سائر الأشياء الأرضية، فيظهر له بهذا التأمل، أن جميعها شئ واحد فى الحقيقة، وإن لحقتها الكثرة بوجه ما، فذلك مثل ما لحقت الكثرة للحيوان والنبات.

معرفة العالم الروحاني

النفس الحيوانية والنفس النباتية

وطبائع الجمادات

وكذلك نظري إلى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء، فرأى أن حقيقة (وجود) كل واحد منهما مركبة من معنى الجسمية، ومن شئ آخر زائد على الجسمية، إما واحد، وإما أكثر من واحد، فلاحظ له صور الأجسام على اختلافها وهو أول ملاحظ له من العالم الروحاني، إذ هى صور لا تترك بالحس، وإنما تدرك بضرب (ما) من النظر (العقلي) ولاح له فى جملة ملاحظ من ذلك، أن الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب هو الذى تقدم شرحه أولاً - لا بد (له أيضا) من معنى زائد على جسيمته يصلح بذلك المعنى لأن يعمل هذه الأعمال الغريبة (التي تختص به) من ضروب الإحساسات وفنون الإدراكات، وأصناف الحركات وذلك المعنى هو صورته وفصله الذى انفصل به عن سائر الأجسام، وهو الذى يعبر عنه النظائر بالنفس الحيوانية.

وكذلك أيضا للشئ الذى يقوم للنبات مقام الحار الغريزي للحيوان شئ يخصه هو فصله وهو الذى يعبر عنه النظائر بالنفس النباتية وكذلك لجميع أجسام الجمادات: وهى ما عدا الحيوان والنبات (مما) فى عالم الكون والفساد شئ يخصها، به يفعل كل واحد منها قلة الذى يختص به مثل صنوف الحركات وضروب الكيفيات المحسوسة عنها، وذلك الشئ هو فصل كل واحد منها وهو الذى يعبر عنه النظائر عنه بالطبيعة.

فلما وقف بهذا النظر على أن حقيقة الروح الحيوانى الذى كان تشوقه إليه أبدا مركبة من معنى الجسمية (ومن) معنى آخر زائد على الجسمية، وأن معنى (هذه) الجسمية مشترك وإسائر الأجسام بالمعنى الآخر المقترب به ينفرد به هو وحده، فإن عنده معنى الجسمية فاطرحه وتعلق

فكره بالمعنى الثانى وهو الذى يعبر عنه بالنفس ، فتشوق إلى التحقق به فالتزم الفكرة فيه وجعل مبدأ النظر فى ذلك تصفح الأجسام كلها ، لا من جهة ما هى أجسام بل من جهة ما هى نوات صور تلتزم عنها خواص ، ينفصل بها بعضها عن بعض ، فتتبع ذلك ويحصره فى نفسه ، فرأى جملة من الأجسام ، تشترك فى صورة ما يصدر عنها فعل ما ، وأفعال ما ، ورأى فريقا من تلك الجملة ، مع أنه يشارك الجملة بتلك الصورة ، يزيد عليها بصورة أخرى ، يصدر عنها أفعال ما ، ورأى طائفة من ذلك الفريق ، مع أنها تشارك الفريق فى الصورة الأولى والثانية تزيد عليه بصورة ثالثة ، تصدر عنها أفعال ما خاصة بها ، مثال ذلك : أن الأجسام الأرضية (كلها) : مثل التراب والحجارة ، والمعادن ، والنبات والحيوان ، وسائر الأجسام الثقيلة ، هى جملة واحدة تشترك فى صورة واحدة تصدر عنها الحركة إلى أسفل ، ما لم يعقها عائق عن النزول ومتمى حركت إلى جهة العلو بالقسر ثم تركت تحركت بصورتها إلى أسفل.

مشكلة حدوث العالم وقدمه

فلما تبين له أنه كله كشخص واحد فى الحقيقة ، (قائم محتاج إلى فاعل مختار) واتحدت معه أجزاؤه الكثيرة ، بنوع من النظر الذى اتحدت به عنده الأجسام التى فى عالم الكون والفساد ، تفكر فى العالم بجملته ، هل هو شئ حدث بعد أن لم يكن ، أو خرج إلى الوجود بعد العدم ؟ أو هو أمر كان موجودا فيما سلف ، ولم يسبقه العدم بوجه من الوجوه ؟ فتشكك فى ذلك ولم يترجع عنده أحد الحكمين على الآخر ، وذلك أنه كان إذا أزمع على اعتقاد القدم ، اعترضته عوارض كثيرة ، من استحالة وجود (ما) لا نهاية له ، بمثل القياس الذى استحال عنده به وجود جسم لا نهاية له وكذلك (أيضا) كان يرى أن هذا الوجود لا يخلو من الحوادث ، فهو لا يمكن تقدمه عليها ، وما لا يمكن أن يتقدم على الحوادث ، فهو أيضا محدث ، وإذا أزمع على اعتقاد الحدث ، اعترضته عوارض آخر ، وذلك أنه كان يرى أن معنى حدوثه ، بعد أن لم يكن ، لا يفهم إلا على معنى أن الزمان تقدمه ، والزمان من جملة العالم وبغير منفك عنه ، فإن لا يفهم تأخر العالم عن الزمان وكذلك كان يقول : «إذا كان حادثا ، فلا بد له من محدث وهذا المحدث الذى أحدثه ، لم أحدثه الآن ولم يحدثه قبل ذلك؟ الطارئ طرأ عليه ولا شئ هناك غيره أم لتغير حدث فى ذاته ، (فإن كان) فما الذى أحدث ذلك التفسير ؟ «وما زال يفكر فى ذلك عدة سنين ، فتعابرض عنده الحجج ، ولا يترجع عنده أحد الاعتقادين على الآخر.

فلما أعياه ذلك ، جعل يفكر ما الذى يلزم من كل واحد من الاعتقادين ، فلعل اللازم عنهما يكون شيئا واحدا . فرأى أنه إن اعتقد حدوث العالم وخروجه إلى الوجود بعد العدم . فاللازم عن ذلك ، ضرورة ، أنه لا يمكن أن يخرج إلى الوجود بنفسه ، وأنه لا بد له من فاعل يخرج به إلى الوجود ، وأن ذلك الفاعل لا يمكن أن يدرك بشئ من الحواس ، لأنه لو أدرك بشئ من الحواس لكان جسما من الأجسام ، ولو كان جسما (من الأجسام) لكان من جملة العالم ، وكان حادثا واحتاج إلى

محدث ولو كان ذلك المحدث الثانى أيضا جسما لاحتاج إلى محدث ثالث، والثالث إلى رابع ، ويتسلل ذلك إلى غير نهاية (وهو باطل) فإنن لأبد للعالم من فاعل ليس بجسم ، وإذا لم يكن جسما فليس إلى إدراكه بشئ من الحواس سبيل ، لأن الحواس الخمس لا تترك إلا الأجسام ، أو ما يلحق الأجسام ، وإذا (كان) لا يمكن أن يحس فلا يمكن أن يتخيل ، لأن التخيل ليس شيئا إلا احضار صور المحسوسات بعد غيبتها ، وإذا لم يكن جسما فصفات الأجسام كلها تستحيل عليه ، وأول صفات الأجسام هو الامتداد فى الطول والعرض والعمق وهو منزه عن ذلك وعن جميع ما يتبع هذا الوصف من صفات الأجسام ، وإذا كان فاعلا للعالم فهو لا محالة قادر عليه وعالم به «ألا يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير».

ورأى أيضا أنه إن اعتقد قدم العالم ، وأن العدم لم يسبقه ، وأنه لم يزل كما هو ، فإن اللازم عن ذلك أن حركته قديمة لا نهاية لها من جهة الابتداء ، إذ لم يسبقها سكن يكون مبدؤها منه بأكمل حركة فلا بد لها من محرك ضرورة ، والمحرك إما أن يكون قوة سارية فى جسم من الأجسام- إما جسم المتحرك نفسه ، وإما جسم آخر خارج عنه -وإما أن تكون قوة (ليست سارية ولا شائعة فى جسم بأكمل قوة سارية فى جسم وشائعة فيه ، فإنها تنقسم بانقسامه ، وتتضاعف بتضاعفه ، مثل الثقل فى الحجر مثلا ، المحرك له إلى أسفل ، فإنه إن قسم الحجر نصفين انقسم ثقله نصفين ، وإن زيد عليه آخر مثله ، زاد فى الثقل آخر مثله ، فإن أمكن أن يتزايد الحجر أبدا إلى غير نهاية ، كان تزايد هذا الثقل إلى غير نهاية ، وأن وصل الحجر أبدا إلى غير نهاية ، كان تزايد هذا الثقل إلى غير نهاية ، وأن وصل الحجر إلى حد من العظم ووقف . وصل الثقل إلى ذلك الحد ووقف ، لكنه قد تبرهن أن كل جسم (فإنه) لا محالة متناه ، فإنن لكل قوة فى جسم (فهى) لا محالة متناهية ، فإن وجدنا قوة تفعل فعلا لا نهاية له ، فهى قوة ليست فى جسم وقد وجدنا الفلك يتحرك أبدا حركة لانهاية لها ولا انقطاع و إذ فرضناه قديما لا ابتداء له فالواجب على ذلك أن تكون القوة التى تحركه ليست فى جسمه بولاجسم خارج عنه ، فهى إذن لشئ برئ عن الأجسام وغير موصوف بشئ من أوصاف الجسمية ، وقد كان لاح له فى نظرة الأول فى عالم الكون والفساد أن حقيقة وجود كل جسم، إنما هى من جهة صورته التى هى استعداد له لضروب الحركات ، وأن وجوده الذى له من جهة مادته ضعيف لا يكاد يدرك، فإنن وجود العالم كله إنما هو من جهة استعداده لتحريك هذا المحرك البرئ عن المادة بوعن صفات الأجسام المنزه ، عن أن يدركه حس ، أو يتطرق إليه خيال (سبحانه) . وإذا كان فاعلا لحركات الفلك على اختلاف أنواعها ، فعلا لا تفاوت فيه ولا فتور، فهو لا محالة قادر عليه وعالم به.

الله: وجوده ، وصفاته ، وكيف يعرف

فانتهى نظره بهذا الطريق إلى ما انتهى إليه بالطريق الأول، ولم يضره فى ذلك تشككه فى قدم العالم أو حنوته ، وصح له على الوجهين جميعا وجود فاعل غير جسم ، ولا متصل بجسم ولا

منفصل عنه ، ولا داخل فيه ، ولا خارج عنه ، إذ الاتصال والانفصال ، بالدخول ، والخروج ، هي كلها من صفات الأجسام وهو منزّه عنها .

ولما كانت المادة من كل جسم مفتقرة إلى الصورة إذ لا تقوم إلا بها ولا تثبت لها حقيقة دونها ، وكانت الصورة لا يصح وجودها إلا من فعل هذا الفاعل (المختار) تبين له افتقار جميع الموجودات في وجودها إلى هذا الفاعل ، وأنه لا قيام لشيء منها إلا به ، فهو إذن علة لها ، وهي مطلوبة له ، سواء كانت محدثة الوجود ، بعد أن سبقها العدم ، أو كانت لا ابتداء لها من جهة الزمان ، ولم يسبقها العدم قط ، فإنها على كلا الحالين معلولة ومفتقرة إلى الفاعل ، متعلقة الوجود به ، ولولا دوامه لم تدم ، ولولا وجوده لم توجد ، ولولا قدمه لم تكن قديمة ، وهو في ذاته غنى عنها وبرئ منها ! وكيف لا يكون كذلك وقد تبرهن أن قدرته وقوته غير متناهية ، وأن جميع الأجسام ، بما يتصل بها أو يتعلق (بها) ولو بعض تعلق ، هو متناه متقطع فإنّ العالم كله بما فيه من السماوات (والأرض) والكواكب ، بما بينها ، بما فوقها ، بما تحتها ، فله (وخلقه) وهو متأخر عنه بالذات ، وإن كان خير متأخر بالزمان ، كما أنك إذا أخذت في قبضتك جسما من الأجسام ، ثم حركت يدك ، فإن ذلك الجسم لا محالة يتحرك تابعا لحركة يدك ، حركة متأخرة عن حركة يدك تأخرا بالذات ، وإن كانت لم تتأخر بالزمان عنها بل كان ابتداءهما معا فكذلك العالم كله معلول ومخلوق لهذا الفاعل بغير زمان (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) (١٧)

فلما رأى أن جميع الموجودات فعلة تصفحها من قبل ذا تصفحها على طريق الاعتبار ، في قدرة فاعلها ، والتعجب من غريب صنعته ، ولطيف حكمته ، وبتقيد علمه ، فتبين له في أقل الأشياء الموجودة ، فضلا عن أكثرها ، من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ، ما قضى منه كل العجب ، بتحقيق عنده أن ذلك لا يصدر إلا عن فاعل مختار في غاية الكمال (وفوق الكمال) ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر (١٨) .

فأصغ الآن بسمع قلبك ، ووجدق ببصر عقلك إلى ما أشير إليه ، لعلك أن تجد منه هدايا يليقك على جادة الطريق ! وشرطى عليك أن لا تطلب مني في هذا الوقت مزيد بيان بالمشافهة على ما أودعه هذه الأوراق فإن المجال ضيق ، والتحكم بالألفاظ على أمر ليس من شأنه أن يلفظ به خطر .

فأقول : إنه لما فنى عن ذاته وعن جميع النوات ولم ير في الوجود إلا الواحد (الحى) القيوم ، وشاهد ما شاهد ، ثم عاد إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاق من حالة تلك التي هي شبيهة بالسكر ، خطر بباله أنه لا ذات له يغير بها ذات الحق (تعالى) وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق ، وأن الشيء الذى كان يظن أولا أنه ذاته المخايرة لذات الحق ، ليس شيئا فى الحقيقة ، بل ليس ثم شيء إلا ذات الحق ، وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذى يقع على الأجسام الكثيفة (فتراه) يظهر فيها فإنه وإن نسب إلى الجسم الذى ظهر فيه فليس هو فى الحقيقة شيئا سوى نور الشمس . وإن زال ذلك الجسم . زال نوره وبقي نور الشمس بحالة لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه . بومتي حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور ، قبله ، فإذا عدم الجسم ذلك القبول ، لم يكن له معنى

ويتقوى عنده هذا الظن بما قد كان بان له من أن ذات الحق، عز وجل، لا تتكثر بوجه من الوجوه، وأن علمه بذاته، هو ذاته بعينها، فلزم عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته، فقد حصلت عنده ذاته وقد كان حصل عنده العلم فحصلت عنده الذات وهذه الذات لا تحصل إلا عند ذاتها بنفس حصولها هو الذات، فإن كان هو الذات بعينها وكذلك جميع النوات المفارقة للمادة العارفة بتلك الذات الحق التي كان يراها أولا كثيرة، وصارت عنده بهذا الظن شيئا واحدا وكادت هذه الشبهة ترسخ في نفسه لولا أن تداركه الله برحمته وتلافاه بهدأيته: فعلم أن هذه الشبهة إنما ثارت عنده من بقايا ظلمة الأجسام، وبكسرة المحسوسات فإن الكثير والقليل والواحد والوحدة، والجمع والاجتماع، والافتراق، هي كلها من صفات الأجسام، وتلك النوات المفارقة العارفة بذات الحق، عز وجل، لبراعتها عن المادة، لا يجب أن يقال إنها كثيرة، ولا واحدة، لأن الكثرة وإنما هي مغايرة النوات بعضها لبعض، والواحدة أيضا لا تكون إلا باتصال، ولا يفهم شيء من ذلك إلا في المعاني المركبة المتبسة بالمادة. غير أن العبارة في هذا الموضع قد تضيق جدا لأنك إن عبرت عن تلك النوات المفارقة بصيغة الجمع حسب لفظنا هذا، أوهم ذلك معنى الكثرة فيها، وهي بريئة عن الكثرة. وإن أنت عبرت بصيغة الأفراد، أوهم (ذلك) معنى الاتحاد، وهو مستحيل عليها، وكأنى بمن يقف على هذا الموضع من الخفافيش الذين تظلم الشمس في أعينهم يتحرك في سلسلة جنونه، ويقول: لقد أفرطت في تدقيقك حتى أنك (قد) انخلت عن غريزة العقلاء، وأطرحت حكم المعقول، فإن من أحكام العقل أن الشيء إما واحدا وإما كثير، فليتند في غلوائه، وليكف من غرب لسانه وليتهم نفسه، وليعتبر بالعالم المحسوس الضمير الذي هو بين أطباقه بنحو ما اعتبر به حتى بن يقظان حيث كان ينظر فيه بنظر (آخر) فيراه (كثيرا) كثرة لا تنحصر، ولا تدخل تحت حد، ثم ينظر (فيه) بنظر آخر، فيراه واحدا، ويبقى في ذلك مترددا ولم يمكنه أن يقطع عليه بأحد الوصفين، بل الآخر، هذا، فبالعالم المحسوس منشؤه الجمع والأفراد، وفيه تقه حقيقته وفيه الانفصال والاتصال بالتحيز والمغايرة، والاتفاق والاختلاف، فما ظنه بالعالم الإلهي الذي لا يقال فيه كل ولا بعض، ولا ينطبق في أمره بلفظ من الألفاظ المسموعة، إلا وتوهم فيه شيء على خلاف الحقيقة، فلا يعرفه إلا من شاهده، ولا تثبت حقيقته، إلا عند ما حصل فيه، وأما قوله: «حتى انخلت عن غريزة العقلاء وأطرحت حكم المعقول» فنحن نسلم له ذلك ونتركه مع عقله وعقلاته فإن العقل الذي يعنيه هو أمثاله، إنما هو العقل «فنحن نسلم له ذلك ونتركه مع عقله وعقلاته فإن العقل الذي يعنيه هو أمثاله، إنما هو القوة الناطقة التي تتصفح أشخاص الموجودات المحسوسة، وتقتنص منها المعنى الكلي والعقلاء الذين يعنيه، هم ينظرون بهذا النظر والنمط الذي كلامنا فيه فوق هذا كله، فليسد عنه سمعه من لا يعرف سوى المحسوسات وكلياتها وليرجع إلى فريقه الذين «يعملون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة معرضون» (١٩).

هوامش

١- الوراق: بانه في الصين على الأرجح.

٢- لاحظ غلظة ابن طفيل في رده على الفلاسفة فهو يذنب خطأ إلى أن منطقة خط الاستواء ليست شديدة الحرارة.

- ٣- لاحظ تأثيره الشديد بآبن سينا ، فهو يجاريه حتى في الخطأ لفتته به.
- ٤- خطأ آخر يرتكبه آبن طفيل في قوله أن الشمس في ذاتها ليست حارة.
- ٥- قرله أن الأرض كروية داليل على سبق العرب في هذه المسألة ، فهم يعتقدون يعتقدون أن كولومبوس هو الذي أثبت كروية الأرض بعد اكتشافه أمريكا في القرن الخامس عشر.
- ٦- أن الله خلق آدم على صورته ، أو خلق الإنسان على صورته مقولة مسيحية ، ولكنها تسربت إلى الفكر الإسلامي وظهرت عند المتصوفة بشكل واضح وهناك حديث شريف رواه البخاري عن أبي هريرة بهذا المعنى.
- ٧- طارت إليه: الظبية لا تطير ، وهي تعني أسرع إليه.
- ٨- أثر : ظهرت أسنانه
- ٩- ضحا: برز للشمس
- ١٠- خصر: برد
- ١١- هذا يشير: إلى اعتقاد آبن طفيل برواية الولادة من أب وأم
- ١٢- يحكى : يقد.
- ١٣- الصياصي: جمع صيص وهو شوك الديك وقرن البقرة والظبية إلخ وكل ما يمتنع به.
- ١٤- الخوص والحلفاء : اسمان نباتيتان يستخرج منهما خيطان تنسج منها الأكياس.
- ١٥- عالم الكون والفساد : العالم الأرضي ، لأن الكائنات التي توجد على الأرض من حيوان ونبات وجماد تكثر (تخرج من العدم إلى الوجود) وتفسد (تخرج من الوجود إلى العدم).
- ١٦- سورة يس الآية ٨٣
- ١٧- سورة سبأ ، الآية ٣
- ١٨ سورة الوم، الآية ٧

من أوراق الكاتب الشهيد :

كين سيرا ويوا

ترجمة وإعداد : فريدة النقاش

كان توحيد جماهير " الأوجوني " أسهل كثيرا من جمع عدد من الخريجين والمتقنين ليلتقوا في رؤية واحدة دفاعا عن " الأوجوني " إذ كان المثقفون مشغولين ومطلعين للحصول على مكان لهم لدى السلطة .

لم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي يعبر فيها الكاتب والشاعر النيجيري الشهيد " كين سيرا ويدا " عن خيبة أمله في بعض مثقفي أهله ، هؤلاء المثقفون الذين انشغلوا بأنفسهم وبنجاحهم الخاص وغضوا الطرف عن محنة شعبهم التي وهب لها " سيرا ويدا " جهده وعمره ، وقال لأبيه الذي اقترب من التسعين وجاء ليزوره في سجنه ذات مساء :

" مثلى يتوقعون المتاعب والألام ويمكن أن يفقدوا حياتهم دفاعا عن مثلم ، وعلى الطريق الذي اختاروه لأنفسهم... " .

وكان " سيرا ويدا " نموذجا آخر للمثقف الذي يقدر ماعرف واجبه تجاه شعبه عاش في ضميره . كان الشاعر والكاتب الدرامي والروائي الصحفي الساخر والمناضل من أجل حقوق الأقليات العرقية ومن أجل بيئة نظيفة ومستوى حياة لائق لشعبه .. وكأنه كان يتنبأ بمصيره المرتقب على أيدي الدكتاتورية العسكرية المستبدة الفاسدة التابعة والمقاطعة مع شركات النفط الكبرى في العالم ، والتي لفقت له مع ثمانية من رفاقه تهمة قتل أربعة من المواطنين من أهالي " الأوجوني " المتهمين بالتعاون مع السلطة العسكرية وقدمتهم لمحكمة استثنائية حكمت عليهم بالشنق ورفضت كل الأدلة القاطعة التي تقدم بها أهالي " الأوجوني " وحركتهم ، وسارعت بتنفيذ الحكم ليليل رغم الاحتجاجات والصرخات التي انطلقت من كل أرجاء العالم .

هددت رابطة نول الكومنولث التي تقودها بريطانيا وتضم كل الدول التي كانت في السابق مستعمرات بريطانية بأن توقع عقوبات رادعة على الطغمة العسكرية في نيجيريا إلا أن مثل هذه العقوبات لم توقع حتى الآن .

وكان " سيرا ويدا " يكاد يتنبأ بمثل هذا الموقف المهادن للامباليا من قبل حكومات الغرب الضالعة مع شركات النفط والمساندة موضوعيا للدكتاتوريات العسكرية حين قال :

" إن الغرب يعبر عن قلقه على الأقبالي ويوقف تصدير قرون الخرافات ، ولكنه لا يشعر بأدنى قلق على الكائنات البشرية التي تموت .. " .

وقد صحت نبوءته . وعجز المثشدقون بالدفاع عن حقوق الإنسان عن إنقاذ الكاتب البري ورفاقه من حبل المشنقة ، بل لم تتعرض شركة شل التي فضحتها حركة الدفاع عن بقاء شعب " أوجوني "

التي أسسها " سيرا ويوا " ورأسها - لآى عقاب باعتبارها مجرمة ومرتكبة للمذابح العرقية بسبب تدميرها المنظم للبيئة فى منطقته التي تحولت إلى أرض خراب على حد تعبيره.

وفى ساحة الإعدام غنى " كين سيرا ويوا " ورفاقه نشيد حركتهم ، وهتفوا فى وجه جلادهم ، إن النضال سوف يستمر وسوف ينتصر شعب " الأوجونى " وكل الشعوب التي تتعرض للاستغلال والتهب والإذلال .. المهم أن تستيقظ وتنظم نفسها ، ويلعب مثقفوها المخلصون دورهم .

تعرض " سيرا ويوا " للسجن أربع مرات منذ بدأ نضاله السياسى ، وحين سجن فى المرة قبل الأخيرة عام ١٩٩٣ كتب مذكراته بعنوان " شهر ويوم .. مذكرات الاعتقال " .

وكتب له الروائى الانجليزى : " إليم بويد " - أحد أقرب أصدقائه مقدمة ليصدر الكتاب بعد تنفيذ حكم الإعدام ، وكانت واحدة من رسائل " سيرا ويوا " الأخيرة لبويد تحمل هذه الكلمات :

" إن معنوياتى مرتفعة للغاية .. ولا يساورنى الشك أبداً فى أن فكرتى سوف تتجع مع الزمن وأنا مهيا على الصعيد العقلى لأسوأ الاحتمالات ولكنى مفعم بالأمل فى ما هو أفضل ، وأظن أننى قد حققت نصراً أخلاقياً .

* * *

يقول بويد فى مقدمته للكتاب

التقيت " بسيرا ويوا " للمرة الأولى سنة ١٩٨٦ بناء على طلبه وكان ناشراً فى ذلك الوقت قال إنه قرأ أولى رواياتى " رجل طيب فى أفريقيا " والتي اكتشف أن أحداثها تقع فى نيجيريا رغم الأتمة والأسماء الروائية ، إذ كانت نيجيريا هى وطنى فى سنوات المراهقة وبداية العشرينيات من عمرى .

وكان " كين " طالباً فى جامعة " إبادان " غرب نيجيريا فى منتصف الستينيات ، وكان أبى المرحوم " ألكسندر بويد " مديراً للخدمات الصحية هناك وقام بعلاج " كين " وتعرف عليه وأدرك " كين " أن " د . مورى " فى الرواية كان تصويراً لدكتور " بويد " ، فعلاه الفضول للتعرف على ابنه .

وفى يوم صيفى مشمس ، من الأيام القليلة شديدة الحرارة فى انجلترا أخذنا نذرع معا إحدى الساحات المريعة النظيفة فى كلية بكاميردج ونحدث عن نيجيريا . كان " كين " قصيراً ممتلئاً دافق الحبيبة له ابتسامة كبيرة أسرة ، يدخن " البايب " التي عرفت فيما بعد أنها كانت بمثابة شعار وعلامة يميزه الناس بها فى نيجيريا . ويدا فى الصور التي كانت تنشرها الصحف النيجيرية له فى الأيام الأخيرة وهو فى طريقه إلى المحكمة أو خارجاً منها نحيفاً ومكتئباً على عصا وكأنه طعن فى السن بعد ثمانية عشر شهراً من السجن .. وكان البايب كالعادة معلقاً بين أسنانه .

لم يكن " سيرا ويوا " ناشراً فحسب ، بل عمل قبل ذلك فى التجارة - وهو ماسوف يحكى عنه فى مذكراته - وكان صحفياً لامعاً يكتب فى السياسة وله أسلوب لاذع قوى ، وكتاب رواية ومسرحياً وشاعراً ومؤلف قصص أطفال غزير الإنتاج نشر معظم أعماله بنفسه ، وكان بالإضافة لذلك كله كاتباً

لامعا للدراما التلفزيونية التجارية الكوميدية الأكثر شعبية فكتب " باس وفرقة " فى مائة وخمسين حلقة شاهدها الأفارقة وطالبوا بإعادتها ويقدر عدد هؤلاء بثلاثين مليوناً . ويحكى السلسل قصة مجموعة من الشباب النيجيرى الكسول الذى لايفعل شيئاً سوى تدبير خطط عقيمة للحصول على الثروة ، وفى ثنايا الكوميديا برزت نزعة تعليمية واضحة لم يخجل منها الكاتب أبداً ، كان ماهو غلط فى مسلك وتوجه هؤلاء الشبان هو نفسه الغلط العام فى نيجيريا ، فما من أحد منهم كان يريد أن يعمل ، وسلخوا جميعا كما لو أن العالم مدين لهم بتقديم سبل العيش وإذا لم يحصلوا على ذلك بالطرق الصحيحة فانهم لايتورعون عن فعل العكس وتبريره.

وكلما أتى " كين " إلى لندن كنا نلتقى عادة فى " نادى شلس الفنى " وكان يأتى كثيرا إذ كانت زوجته وأطفاله الأربعة يعيشون فى انجلترا حيث يتلقى الأطفال تعليمهم ، ورغم تنوع كتاباته وغناها أعتقد أن عمله الرئيسى هو " سوزا بوى " أو " فتى الجندي " الذى يحمل عنوانا فرعيا يقول إنها " رواية بالإنجليزية البالية مزج فيها بطريقة فريدة بين الإنجليزية التقليدية ، واللغة التى استخدمها سكان المستعمرات البريطانية فى غرب أفريقيا وإنجليزية أخرى تحمل فى ثناياها وجعلها روحا غنائية كلاسيكية وحسا أدبيا شعبيا يلتقط مفرداته الإنجليزية برشاقة وذكاء لتصبح اللغة فى نهاية المطاف أداة طيعة للقصة التى تحكيها عن صبي قروى بسيط أصبح جنديا فى جيش بيافرا الانفصالى أثناء الحرب الأهلية النيجيرية وطالما حلم الصبي أن يصبح جنديا (سوزا) ، ولكن الوقائع الغظة لهذا الصراع الضارى خيبت آماله وأحلامه بقسوة.

وفى رأى أن " سوزا بوى " أو فتى الجندي ليست مجرد رواية أفريقية عظيمة ، لكنها أيضا رواية عظيمة ضد الحرب من بين أفضل روايات القرن العشرين قاطبة (لم تترجم إلى العربية) . تأسست الرواية على التجربة الشخصية " لكن " أثناء الحرب الأهلية بين بيافرا والحكومة الاتحادية ، كذلك كانت جل أعماله مستقاة مباشرة من خبرته الخاصة فى الحياة خاصة فى هذه المرحلة من الصراع.

" وبيافرا " هو اسم مجموعة عرقية غير متماسكة تسكن شرق نيجيريا وتهيمن عليها قبائل الإبو الذين قرر زعيمهم الانفصال عن الاتحاد النيجيرى بما فيه من غالبية نط البلاد الاحتياطى وسقط فى هذه الحرب مايقرب من مليون قتيل معظمهم راحوا ضحية المجاعة.

وحين اندلعت الحرب سنة ١٩٦٧ كان " كين " يقضى عطلته وسرعان ماوجد نفسه محاصرا فى " بيافرا " التى لو بقى فيها لاضطر مرغما إلى المشاركة فى القتال ، فهرب إلى المناطق الاتحادية حيث شغل موقعا مدنيا فى ميناء " بونى " الذى يتحكم فى تصدير النفط فى دلتا نهر النيجر وبقي هناك حتى سقوط " بيافرا " سنة ١٩٧٠ . ومن واقع هذه التجربة كتب مذكراته " فى سهل معتم " . وقد شكلت هذه الحرب خلفية صراعه المقبل ضد العسكرية النيجيرية ، إذ عرف جيدا ذلك الشعور

بالعجز وقلة الحيلة الذى يداهم الأقليات العرقية فى مواجهة الدكتاتورية العسكرية المهيمنة ، حيث النفط وثروات النفط هى عوامل إفساد تدمير للمجتمع ، وحيث تبرز الحاجة لأن يصبح الإنسان صادقا أمام ضميره ومخلصاً له .

وقد ظهرت هذه الصرامة الأخلاقية بشكل خاص فى كتابات " كين " السياسة الساخرة التى واصلها ككاتب عمود فى عدة صحف يومية وتجلت فى الكثير منها روح " سوفيتية " لاذعة (نسبة إلى كاتب المقالات الساخرة البريطانى جوناثان " سوفيت ") ، فسخر من أمراض المجتمع النيجيرى القبلية ، تجاهل حقوق الأقليات ، تقشى روح التكالب على المادة ، عدم الكفاة واستغلال النفوذ على نطاق واسع ، وفضلا عن مسلسل " باسى وفرقة " كانت كتاباته الصحفية اللاذعة هى السبب فى شهرته الواسعة بين مواطنيه .

أخذ " كين " ينغمس منذ نهاية الثمانينات فى قضية قومه " الأوجونى " الذين يصل تعدادهم إلى نصف مليون مواطن ويميشون فى دلتا نهر النيجر الخصبة . ومن سوء طالعهم أن موطنهم يقع فوق احتياطي هائل للنفط النيجيرى مما جعل أرض الأوجونى أرضا للخراب والتلوث بسبب عمليات التنقيب والاستخراج بعد أن كانوا يعيشون فى رغد وسلام فلاحين وصيادين .

ويقول " كين " فى آخر مقابلة تلفزيونية أجرتها معه القناة الرابعة (القناة الثقافية) فى التلفزيون البريطانى وأذيعت بعد شنقه تحت عنوان " بلا أسوار الرجل المشنوق .. عار نيجيريا) وترجمها الزميل " نبيل زكى " يقول :

تتكون نيجيريا من ثلاثمائة مجموعة عرقية تختلف كل منها عن الأخرى . وقامت بريطانيا بتجميع هذه المجموعات فى دولة واحدة ، ورغم أنه من المفترض أن الشكل الذى يضم هذه المجموعات هو الاتحاد الفيدرالى لدولة نيجيريا فقد حاول العسكريون منذ تولوا السلطة أن يجعلوا من هذا الاتحاد دولة مركزية واحدة .

وفى ظل الدولة المركزية انتهجت الجماعات العرقية الرئيسية الكبرى سياسة الخداع والتضليل تجاه الجماعات - العرقية الصغيرة . والسبب أن ٩٤٪ من الناتج القومى الإجمالى لنيجيريا هو البترول ، ويوجد هذا البترول - فى الأساس - فى أراضى دلتا نهر النيجر التى تقطنها الجماعات العرقية الصغيرة .

ومنذ عام ١٩٥٨ ، ويولد " الأوجونى " تنتج البترول ، ولكن شعب الأوجونى لا يملك أى شئ يدل على امتلاكه أى ثروات أو موارد " إننى أريد العدل لشعب " أوجونى " .

خلال ثلاث وثلاثين سنة أطلقت شركات البترول الغاز فى نيجيريا مما تسبب فى هطول الأمطار الحمضية والمعروف أن معدل سقوط المطر فى منطقة الأوجونى مرتفع للغاية ، وهكذا تهطل الأمطار

الحمضية بفزارة وتفسد التربة.

ونظرا لأن العلاقة بين الحكومة النيجيرية والأقليات العرقية هي علاقة استعمارية ، فإن مصالح شركة " شل " تمتزج مع مصالح هؤلاء الذين يديرون نفة الأمور في نيجيريا الآن ..
إننى أتهم شركة شل بالعنصرية لأنها ترتكب أفعالا في " أوجوني " لا تجوز على أن تمارس مثلها في أوربا أو أمريكا حيث تقوم بعمليات تنقيب عن البترول أيضاً.

وقد توات الحكومات العسكرية على نيجيريا وواصلت الحياة - يقول بويد - اعتمادا على هذه العوائد الضخمة من النفط الذى استقادت منه الطغمة العسكرية وكسدت مليارات الدولارات .
وكان لابد من إسكات صوت أى حركة تقاوم هذه الأوضاع وإخمادها . ومع صعود " أباشا " وطمعته الشرهة القمعية أصبح " كين " يقف وجها لوجه مع الخطر . ومع ذلك فقد عاد إلى نيجيريا بعد لقائنا الأخير ليواصل الاحتجاج فى بلد أصبح فيه كل من الاغتصاب والقتل وإحراق القرى أفعالا عادية بتعمدها سياسة الإرهاب الحكومى المنظم ، وكان أن سقط ألفا قتيل من أهل " الأوجوني " فى هذه العمليات منذ بدء حركتهم المنظمة سنة ١٩٩٠ .

* * *

يتحدث " كين " فى برنامجة التلفزيونى الأخير عن دور الأدب فيقول إنه :

فى دول الغرب يكتب الكتاب للتسلية ويمارسون الترف الفكرى ، فيطرحون تساؤلات حول وجود الفرد ، وأنتم تعرفون مشكلات الحصر النفسى والقلق لدى الفرد عندهم ، أما بالنسبة لكاتب نيجيرى فى موقفى فإنه لا يستطيع المضى على هذا النحو.

الأدب يجب أن يكون مقاتلا ، وليس بوسعك أن تدعو للفن من أجل الفن ، فهذا الفن يجب أن يفعل شيئا لتغيير حياة أفراد المجتمع والأمة.

إن للأدب فى مجتمع مثل المجتمع النيجيرى مهمة تختلف تماما عن مهمته فى المجتمع البريطانى . وأنتم تعرفون أن الكاتب لا يكسب مالا فى نيجيريا ، ورغم أن نيجيريا تضم مائة مليون نسمة فإن معظم مواطنيها لا يستطيعون القراءة والكتابة وبالتالي فإن للأدب رسالة مختلفة فى نيجيريا .

وها أنذا أمامكم . لقد كتبت ٢٢ كتابا . و ١٥٠ برنامجا ومسلسلا تليفزيونيا أستمتع بها كل مشاهد .. ومع ذلك فأننى فقير ، وهذا لا يهمنى ، وكل ما يهمنى هو أن يكون فنى قادرا على تغيير وجه الحياة بالنسبة لعدد كبير من الناس ، وتغيير مجتمع بأكمله ، ويلادى برمتها .

وعلى هذا الأساس فإن الأدب الذى أكتبه ينبغي أن يكون مختلفا كل الاختلاف عما يعرفه الغربيون .. والقصص التى أرويها يجب أن تكون من نوعية مغايرة لتلك التى يرويها الفنان فى العالم الغربى ، وأن يكون لها هدف مختلف .

لم تعد المسألة الآن مجرد رحلة من رحلات الأنا لممارسة التأملات الذاتية ، وإنما القضية الآن هي

السياسات الاقتصادية وكل شيء تعرفه .. وعندئذ يصبح الفن مغزى ومعنى ودلالة سواء بالنسبة للفنان ذاته ، أو بالنسبة لمتنوعى هذا الفن ، لأنك لانتظر منهم قراءة كتبك فحسب وإنما عليك أن تعيش حياتهم.

لذلك أقول إن الفنان فى مجتمعا دوراً مختلفاً . وفى تقديرى أنه دور أكثر قيمة وأهمية من دور الفنان فى الغرب . وعندما تطالب بحقوق الشعوب ، فإنه ليس بمقدورك أن تشرع فى التساؤل عما إذا كنت ستواجه خطر دخول السجن أو ستعرض للقتل أو أى شيء آخر ، فالحق هو الحق ، ويجب القتال من أجله.

تلك كانت حياتى خلال العشرين سنة الماضية وفى هذه السن ، وعند هذه المرحلة من حياتى ليس هناك حقاً ما أخافه أو أخشاه .

وقد رأينا العديد من الطغاة فى الماضى يتساقطون ، والطغاة الجدد سوف يتساقطون أيضاً .

* * *

وفيما يلى مقتطفات من مذكرات السجن والأشعار التى كتبها هناك :

مفكرات السجن

فى الواحد والعشرين من يونية ١٩٩٢ ، وكنا عدد مفترق طرق فى " بورت هاركوت " حيث يزدحم التقاطع مع الطريق السريع الذى يربط المدينة " أيا " فى الشمال ، وقعت الدراما فى مواجهة مكتب الاشتراكات فى المواصلات العامة خيل إلى أن الكثيرين من الواقفين عرفوا أننا معتقل ، أما أنا فأعرف على وجه اليقين أنها المرة الرابعة التى أتعرض فيها للاعتقال فى غضون ثلاثة أشهر ..

* * *

دفعوا إلى بأوراق ، وطلبوا منى أن أملأها ببيان عن نشاطى فى يوم الانتخابات فى الثانى عشر من يونيه ١٩٩٢ .

وكانت " الأوجونى " تحت قيادة حركة الدفاع عن بقاء شعبها قد قاطعت الانتخابات ، وقبل أن أكتب شيئاً طلبت السماح لى بمقابلة المحامى ، وتبما كما توقعت - رفضوا طلبى ، بهده أخرجت قلمى وكتبت ، وأنا أعرف جيداً أن ما أكتبه لن يجرى استخدامه أبداً ومع ذلك وقعت عليه بافتخار .

وسرعان ما دخلت على شابة جميلة تحمل رتبة ضابط كبير جاءت لتفحص ما كتبت ، قرأته وبدأ عليها الرضا ، وقدمت لى مكاناً أجلس عليه فوق كرسي متحرك فى مكتبها الذى تظله الستائر . كم كان ذلك لطيفاً منها ، ما أن أخذت أنأمل هذا اللطف إلا وكانت المرأة قد اختفت ومعها الورقة وبقيت وحيداً مع الباب الذى حشوته وأشعلته لأنخن بعمق بينما يحلق عقلى كطائر مجنح.

* * *

عادت السيدة وسألتنى أن أصحبها للمبنى الرئيسى ، وفيما نعبى الحوش الرئيسى وقد امتلأ

بالسيارات فى فوضى ضارية ، همس طائر لى أنهم سوف يأخذوننى إلى معتقل فى " لاجوس " ، وهو شئ لم أستبعد من قبل ، أخذت أهيئ نفسى لأكون قادرا على مواجهة كل الاحتمالات وحينئذ فقط وحين همست لنفسى بضرورة هذا الإعداد تذكرت أنتى لم أكل شيئاً طيلة اليوم .

* * *

وكانتلى لم أكن أعرف هناك فى الدور الأرضى سوف التقى برجال ونساء قادمين من مناطق العبودية فى دولة العبودية الحديثة التى تسمى نيجيريا ، وفى الأنوار العليا يقبع الاستعماريون المحليون ، ليس من الضروري أن يحسنوا الكلام أو حتى يتلقوا تعليماً جيداً ولكنهم يقبضون على زمام السلطة ويعرفون ذلك جيداً .

سألت الرجل الغليظ القابع على المكتب ، وكان عقالى يحوم فى مكان آخر .

- منذ متى وأنت تعيش فى " ريفر ستيت " .

- منذ عام

أوربما قال شيئاً كهذا ، فلم أكن أستمع ولم أبه لإجابته .

- هل يروق لك المكان هنا ؟

- نعم

- هل تراهن أنكم سوف ترطوننى إلى " لاجوس "

- من قال لك ذلك ؟

- الطير

- ماذا ؟

- الريح

- إنا لن أرسلك إلى " لاجوس "

كان يكذب ، وددت أن أسدد قبضتى لشفتيه اللتين تكذبان . أخرجت الباب وحشوته ، وأشعلت ثقاباً وأخذت أسحب (نفاثاً عميقاً ، رقص البخان فى الهواء وهو يصعد بطيئاً إلى السقف .

* * *

قام الرجل متثاقلاً وخرج بطيئاً من الغرفة يتبعه ثوبه القضااض الذى يمسح قذارة الأرض ، وبقيت مع أفكارى تحوم المظالم حول الأرض كتمر يطارد فريسته ، وأن تقع تحت رحمة الحمقى لهى الإمانة الحقيقية ، وأن تحوك أدوات القوة التى تملكها الدولة إلى ذرات من تراب لهُو الجرح ذاته .

* * *

كان الجميع فيما عداى قد ناموا ، أخذت أفكر فيما مضى من عمرى وكيف لو أنتى كنت مازلت شاباً لربما وقعت تحت إغراء سنوات الجموح تلك وقفزت من السيارة ، وانتزعت مسدساً من الحراس

النائمين وأطلقت النار لأؤمن لنفسى السلامة أو الدخول فى مفامرة قد تنتهى بالموت . والحظة استعدت أسرتى ، أبى ، أمى ، إخواتى وإخوتى وكيف يشعرون الآن . تنكرت أطفالى ، ذلك المريض فى بورت هاركوت ، وذاك الوسيم ابن الرابعة عشرة الذى كان يدرس فى " ريتون " بانجلترا وقد دفنته بنفسى فى مقبرة " ريتون " .

ولكن المجرى الرئيسى الفكرى كان متجها لشعب الأوجونى والعناء الذى كان عليه أن يتحملة ، بل كان مجبراً على تحمله عبر مايزيد على قرن من الزمان ذلك العمل الذى عقدت العزم على إزاحته عن كاهله فى حياتى .

هذا الشعب الذى يمشى كالتنائم إلى مصيره .. إلى الفناء نون أن يعرف ما ألحقه الاستعمار الداخلى به من أذى ينتظره المزيد منه فى مستقبل الأيام . وقعت على مهمة إيقاظه من سبات قرن من الزمان وقبلت المهمة والمسئولية برضى .

فهل سيكون قادرا على الصمود فى وجه العنف الذى يفرضه الكفاح ؟

* * *

أن تموت محارباً من أجل أن ينصلح عالم معوج لى أعظم هبة من الحياة

* *

ومن الأشعار التى كتبها فى السجن

نشيد الأوجونى

ياخالق الأوجونى

أرضاً للمجد والغنى

هبنا سلامك وحبك الخالد

وألقي بينور العدل نثاراً فى أرضنا

وامنحنا بعض حكمتك والقوة

لنلحق العار بأعدائنا

* * *

ياخالق الأوجونى

أرضاً للمجد والغنى

امنحنا بركاتك الخالدة أيها المعبود

امنحها لكل من الجوكانا

ولكانا وإيليم

وتايى وبابى

* * *

السجن الحقيقي

ليس هو القف الذي يرشح
ولا البعوض الذي ينخرط في الزن
طليقا، في الزنزانة الرطبة التعيسة
ولا هو صرير المفتاح حين يفلق
الحارس الباب عليك
لا ، ولا الغناء الذي يعافه
كل من الإنسان والحيوان
لا ولا فراغ النهار الذي
ينزلق في شجر الليل
إنه ليس هذا
ليس هذا
ليس هذا
بل الأكاذيب التي حاكوها
وصنوها في الأذان
إنه رجل الأمن يحوم في المكان
يعدد أوامره القاسية الفاجعة
التي يقوم آخرون بتنفيذها لقاء
وجبة تعيسة في اليوم
ومديرة تكتب في سجلها
عقوبات هي تعرف أنها لا تستحق
هو المعجز الأخلاقي
والشلل العقلي
يضيف شرعية مزورة
على الاستبداد
ويتخفى الجبن في ثياب الطاعة
ليلحق أرواحنا التي تشوهت

إنه الخوف يبطل السراويل

حين لانجرح على إخراج يوانا

هذا هو

هذا هو

هذا هو

يا أصدقاء

إنه يقلب حياتنا الحرة

إلى سجن كئيبي

تستطيع أن تصف الحالة الحقيقية لأمة في حين تعرف سجونها - حيث المسجونين دائما بعيدون عن البصر.. وهكذا وجدت في نيجيريا باحة خالية كبيرة.

بنى السجن في زمن الاستعمار ، وكان في حينه أكبر سجن في غرب أفريقيا مصمماً لينخله الهواء النقي من كل جانب ، مع مبان ومعدات للتعليم مثل الورش والمكتبة ، وكانت به أيضا عيادة، وجناح للنساء مايزال قائما .. والآن تاكلت كل الأشياء وانهارت .. نهبت أنراج الرياح حتى وكان القسم الخاص بالإدارة لم يعرف الطلاء منذ دهور ، أما الغرفة التي يجلس فيها كبار الضباط فهي مكسوة وقذرة تتأثر فيها نون نظام كراسي وطاولات قديمة، لا مراوح أو مكيفات ، لا تليفون أو دورات مياه اللهم واحدة رديئة يستخدمها مدير السجن ، وما من أحدهم يملك سيارة .. يا إلهي إنه ليؤس فاضح، وقد كان هناك من أبناء نيجيريا من هم وزراء داخلية وقد شهدوا بأن أعينهم كل هذا الأسار ، ولم يتقوه أحدهم بكلمة احتجاج أو يصدر أمرا ، وكان هناك نيجيريون هموقون تعرضوا "سجن واحتجاز في هذا المكان والحال وخرجوا جميعا دون أن يفعلوا شيئا لتغييره لم أقض في "سجن أكثر من يوم واحد إلا وتيقنت أن أحوال السجن والمسجونين في نيجيريا سوف تضال إلى قائمة الحملات التي أعد لها .. وما أكثرها .

* * *

وذا رتني أمي

جاءت لزيارتي اليوم .

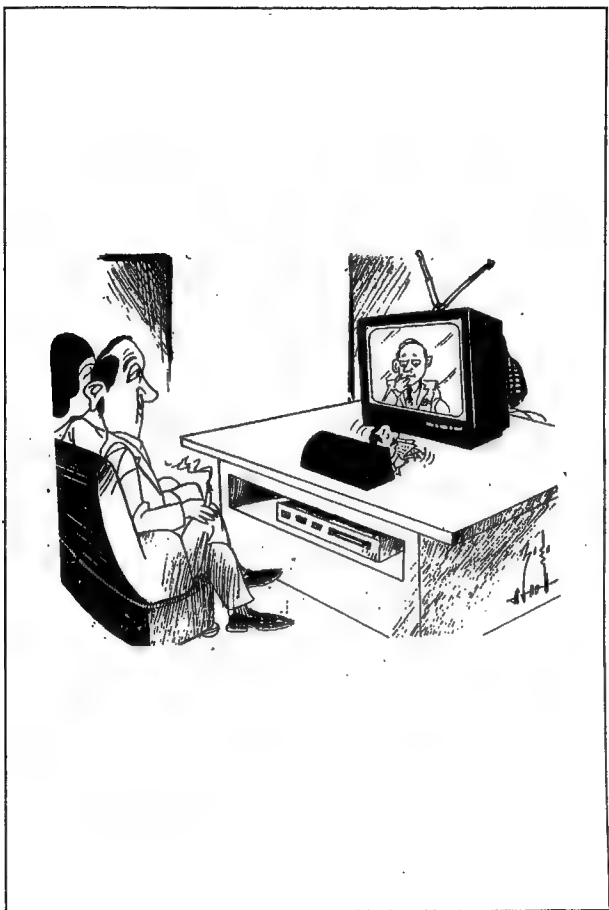
تلك السيدة الصغيرة الجميلة.

حاملة لى الزاد

من ثمار النخيل

كنت قد نسيت هذا المذاق الطو

استعيده الآن



من أيام الطفولة
حين كان شفتائى الصغيرتان
تلتهمان ثدييها
وفى ثمر النخيل
أشرب مرة أخرى
لبن أمى المبارك

* * *

فى مساء ذلك الأحد ، وكانت حالتى الصحية قد تدهورت تماما كان على أن أصرخ من أجل
العون غير الشاباك الحديدى لزنزانتنا .
جائنى حارس عاجز قليل الحيلة . وقال إنه أرسل طلبا عاجلا للمفتش - رئيسه - الذى كان أشد
عجزا وقلة حيلة.

نظر إلى شبابكى وتمتم بكلمات غير مفهومة كان يمكن أن أموت من هذه اللحظة لكننى امتلأت
بعزيمة بدا لى إنها تنقذنى من هذا الموت المحقق الذى كان سيريح أعدائى .. كنت مصمماً على العيش
.. طلع الفجر وبعد ساعات أرسلت فى طلب مدير السجن متحديا قلت له .. إنك قاتل كان ذلك أمام
مؤسسه الكثيرين . لم أكن أفهم لماذا هذا الرفض العنيد لإرسالى إلى المستشفى رغم نصيحة الطبيب ،
رفضت من حيث المبدأ فكرة أن البوايس هو الذى يقرر وايس الطبيب.

● عشرون عاماً من الصمود والعطاء ●

بمناسبة مرور عشرين عاماً على صدور « أدب ونقد »
تقيم المجلة احتفالات ثقافية خلال شهرى يناير
وفبراير، فى مقر الحزب بالقاهرة، وفى معرض الكتاب
بالقاهرة، وفى الإسكندرية وسوهاج وبورسعيد
والاسماعيلية.

مختارات من الفقه الأسود

اختيار وتقديم : د. حسن طلب

تكشف هذه النصوص التي اخترناها من الكتب الصفراء الملقاة على الأرصفة في كل مكان ، عن المصادر المباشرة والمرجعية الأولى لفقه الظلام الذي نراه يكسب أرضاً جديدة كل يوم ، في وسائل الإعلام المختلفة من صحف وإذاعة وتليفزيون ، وفي المؤسسات والهيئات الدينية ، وفي الجامعات ، فينير في كل شبر من هذه الأرض الطيبة بنور التخلف والتعصب والإرهاب ، يكفر الفن والفلسفة وينكر العلم ، ويصادر الكتب والأفلام ويحتقر المرأة إلى الحد الذي لا يراها فيه إلا مجرد حية أو شيطان ، وقصارى ما تستطيعه هو أن تهين للرجل متعته وتشبع شهوته . وفوق ذلك كله ينشر الخرافة والجهل ، فينسج بخياله المريض أقاصيص يرقى بها إلى مستوى الحقائق الدينية ، حول الجن والشياطين ، وحول الجنة والنار ، مما لا يقبله عقل ولا يقره نظر سليم .

ولاشك في أن بعض هذه النصوص يعتمد على الفهم المخلوق المتزمت لبعض آيات القرآن الكريم ، كما أن بعضها يعتمد على أحاديث موضوعة أو ضعيفة ، فهم يبيخون الفعل بالأحاديث الضعيفة في الوعظ والزجر .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فحينئذ سنستطيع أن نواجه هؤلاء الفقهاء بالدعوة إلى تلويل عقلائي مستتير للنص القرآني بما يتفق وروح العصر ويخدم مصالح الناس السائرة ، وكذلك بالدعوة إلى اتباع صحيح السنة دون الضعيف والموضوع من الأحاديث والأخبار ، غير أننا سنكتشف أن الأمر أكبر من ذلك بكثير ، فزواج ابنة تسع سنوات يستند إلى زواج الرسول من عائشة في هذه السن ، والآيات التي ذكرت الجن في القرآن كثيرة خلاف صورة الجن نفسها .

إن الأمر هنا يبدو أخطر بكثير من مجرد التنبية على رد تأويل فاسد بأخر سليم ، أو من مجرد تصحيح حديث أو خبر موضوع من السنة بأخر متواتر أو متفق ، عليه فهذا أو ذاك لا يعالج إلا مواضع جزئية من نسق كامل يطمس على عقولنا ، ويلفنا بسواده ويمضى بنا إلى هاوية التخلف والضياع .

إن المواجهة التي تفرض نفسها هنا بوضوح ، تبدأ من التمسك بالفصل بين الدنيا والدين ، بين العمل والعبادة ، بين العقل والإيمان ، وأول خطوة في هذا السبيل هي تنقية المستور من المواد التي تهين لفقهاء الظلام سنداً قانونياً يستمدون منه شرعية فتاواهم وأحكامهم ، ويدسون باسمه أنوفهم في كل صغيرة وكبيرة من دقائق حياتنا الخاصة ، من ختان الأنثى صغيرة إلى أن يصحبوها وهي امرأة إلى سرير الزوجية ، فيملأوا عليها وعلى زوجها ما الذي يجب أن يفعلاه في حرركاتهما وسكناتهما ، حتى لا يغافلهما الشيطان ، فيقع على الزوجة وينجب منها ذرية مخنثة ! إن وراء هذا الفقه الظلامي العتيد ، بلا شك خيالاً منحرفاً شاذاً لا يعتد إلا بالخرافة ولا يقدر إلا الأوهام ، ولا يرى

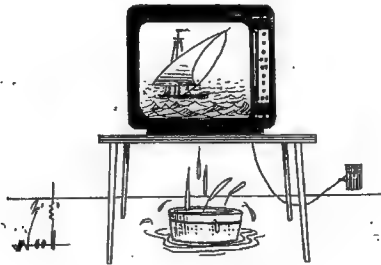
فى العلاقة بين الرجل والمرأة إلا ذلك الجانب الشهوانى الحيوانى ، الذى أغراه - وقد قاس الإنسان على الحيوان - أن يعكس الآية فيقيس الحيوان على الإنسان ، ليطلع علينا من هذا القياس بنظرية مضحكة فى (زنا الحيوان) ، ويعمم هذه النظرية فيرى أن البغل ابن زنا لأنه نتاج لقاء جنسى غير شرعى بين حمار وفرس ! دون أن ينتبه إلى النص القرآنى الذى ورد فيه " والخيل والحمير والبغال وتركبوها ، وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون " !

وحين يمد هذا الفقه المريض بصره إلى ما وراء هذه الحياة الدنيا أو مابعدها ، لا يجد خياله فى الجنة إلا الصورة المنفرة التى يختزلها إلى مجرد لحظة جنسية ممتدة إلى ما لا نهاية ، حيث تلتقى فيها (أيور لا تكل بأفراخ لا تحفى) ، فى قسمة يكون لكل رجل فيها من الحور والجوارى ، سبعون واحدة فى أقل الروايات تقديرا .

ألا ما أبعد هذا الخيال النهم المكبوت ، عن خيال المصريين القدماء الذين لم يروا فى الجنة إلا مجرد حقل أخضر وارف كحقولهم التى حرثوها وزرعوها فى حياتهم ، يروىها نهر هو نيل ثان لا يزيد فى شئ عن نيلهم الذى عاشوا على ضفافه ، وكل واحد منهم لا يعاشر فى الجنة غير زوجته الأولى التى أحبها وأحبته أول مرة ، أما هذا الخيال النهم المكبوت ، فانه يمنحنا فى الآخرة ما لا نلتحق : نساء بلا عدد وشهوة بلا حد ، لأنه باختصار يسلبنا فى الدنيا ما لا نستطيع أن نتخلى عنه بدون أن نتحول إلى حيوانات حريتنا وعقولنا وإنسانيتنا التى كرمنا الله من أجلها .

هذا الخيال النهم المكبوت ، هو الذى يحكمنا الآن ، ولا فرق بين العطش إلى الدم عند الإرهابى الذى يحمل السلاح والعطش إلى السلطة عند من يحمى فقهاء الظلام فيظلمهم ليستظل بهم ، والعطش إلى الجنس هو الذى يرمز إلى العطشين معا ، ويفسرهما .

حسن طلب



- يرون تليفزيون -

معزى الآخرة

قالوا : رويتم أن النبي قال : " استوصوا بالمعزى خيرا ، فإنه مال رقيق وهو من الجنة " ، وقالوا : كيف يكون من الجنة ، وهو عندنا يولد ؟ وإن كان فى الجنة معزى ، فينبغى أن يكون فيها بقر وإبل وحمير وخيل.

قال أبو محمد ، ونحن نقول : إنه لم يرد أن هذه المعزى بأعيانها فى الجنة . وكيف تكون فى الجنة وهى عندنا ؟ وإنما أراد أن فى الجنة معزى ، وقد خلق الله تعالى هذه فى الدنيا لها مثالا ، وكذلك أيضا الضأن والإبل والخيل .

ليس منها شئ ، إلا ولها فى الجنة مثال ، إنما تخلو الجنة من الضبائن ، كالقروود والضنازير والمقارب والحيات ، وإذا جاز أن يكون فى الجنة لحم جاز أن يكون فيها معزى وضأن ، وإذا جاز أن يكون فيها طير يؤكل ، جاز أن يكون فيها نعم يؤكل ، قال الله تعالى : " وإحم طير معايشهم " . ابن قتيبة الدينورى (تأويل مختلف الحديث) ٩/٢١٨

أمة الكلاب

قالوا : رويتم أن رسول الله قال : " لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها ، ولكن اقتلوا منها كل أسود بهيم " . وقال : " الأسود شيطان " .

قالوا : فكأنه إنما قتله لأنه أسود أو لأنه شيطان مع عفو عن جماعة الكلاب لأنها أمة ، وليس فى كونها أمة علة تمنع من القتل ولا توجب .

قالوا : ثم رويتم أنه عليه السلام أمر بقتل الكلاب حتى لم يبق بالمدينة كلب ، فكيف قتلها وهى أمة ؟ أو لا يمنع ذلك من قتلها ؟ قالوا : وقد صارت العلة التى عفا عنها بها ، هى العلة التى قتلها بها .

ابن قتيبة الدينورى (تأويل مختلف الحديث) ١٣٢

الشعر الفاحشة

ومن أقوى ما يهيج الفاحشة ، إنشاد أشعار الذين فى قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش ، ومقدماتها بالأصوات المطربة ، فإن المغنى إذا غنى بذلك حرك القلوب المريضة إلى محبة الفواحش ، فعندما يهيج مرضه ، ويقوى بلاؤه ، وإن كان فى عافية من ذلك جعل فيه مرضا ، كما قال بعض السلف : الغناء رقية الزنا ، (ورقية الحية هى ما تستخرج الحية من جحرها ، ورقية العين هى

ماستخرج به العافية) ورقية الزنا هو مايدعو إلى الزنا ويخرج من الرجل الأمر القبيح والفعل الخبيث ، كما أن الخمر أم الخبائث ، قال ابن مسعود " الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل " وقال تعالى لإبليس : " واستقرز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد " واستفزازه إياهم بصوته يكون بالغناء كما قال السلف وبغيره من الأصوات ، كالنياحة وغير ذلك ..

ابن تيمية (تفسير سورة النور) - ٣٩

الرقص والتصفيق

أما الرقص والتصفيق بخفة ورعونة ومشابهة لرعونة الإناث ، فلا يفعلها إلا أزعن أو متصنع جاهل ، ويدل على جهالة فاعلها أن الشريعة لم ترد بها في كتاب ولا سنة ، ولا فعل ذلك أحد من الأنبياء ولا معتبر من أتباع الأنبياء ، وإنما يفعله الجهلة السفهاء الذين التبست عليهم الخقائق بالأنواء وقد حرم بعض العلماء التصفيق على الرجال لقوله صلى الله عليه وسلم " إنما التصفيق للنساء "

ابن حجر المكي (كف الراع) - ٧٣

معجزة !

من آياته صلى الله عليه وسلم : أن رجلا كان في غنمه يزعاها فأغفلها ساعة من نهاره ، فخالته ذئب فأخذ منها شاة ، فاقبل يتلفه ، فطرح الذئب الشاة ثم كلمه بكلام فصيح فقال : ويحك ؛ لم تمنعني رزقا رزقنيه الله تعالى ؟ فجعل الرجل يصفق بيديه ويقول : تالله مارأيت كاليوم ذئبا يتكلم ! فقال الذئب : أنتم عجب وفي شئناكم عيرة ، هذا محمد يدعو إلى الحق ببطن مكة وأنتم لاهون عنه ، فهدي الرجل لرشده ، وأقبل حتى أسلم ، وحدث القوم بقصته ، وبقي لعقبه شرف يفخرون به على العرب ويقول مفتخرهم : أنا ابن مكلم الذئب.

الماوردي (إعلام النبوة) - ٩٤

غش

من ابتاع أمة على أنها بكر ، فزعم أنه لم يجدها بكرا ، نظر النساء إليها ، فإن قلن : اقتضاضها لمثل ما قبضها المشتري ، فهي منه وليس يخفى أثرها ، وإن قلن : هو شئ قديم قبل التبائع ، ردوا ، ولأيمين في ذلك ، إنما يقطع في هذا النساء ، وفي سماع أشهب وابن نافع عن مالك : إن قلن هو قديم ، حلف المبتاع وريها وإن قلن : فرى أثرها طريا ، حلف البائع ما كان عنده

ولزمت المشتري .

أبو الأصيص بن سهل الأندلس (الأحكام الكبرى) - ٨/٧٧

حاجة الرجل

ينبغي للمرأة العاقلة أن تتلمع مقصود الرجل فتتبعه ، ومتى كان الرجل من أهل الصيانة والتدين وشرف النفس ، أحب سكوت المرأة عن الجماع ، واستعمالها الوقار .. ومن الرجال من يجب كلام المرأة حينئذ ، ويميل إلى تهالكها عند الجماع ، ويقول هؤلاء : إذا باشرنا امرأة ساكنة فكاننا نطأ خشبة مبخورة ، قالوا : وإنما يطيب الأكل مع المتكلمين ، ويجب الأولون عن هذا فيقولون : إنما يقضى الرجل بالوطء حاجة نفسه ، فإذا تهالكت المرأة عليه كان كأنما يقضى حاجتها .

ابن الجوزي (أحكام النساء) ٢٥٠

النساء حيات

عن عطاء الخراساني يرفع الحديث ، قال : " ليس للنساء سلام ولا عليهن سلام " قال الزبيدي : أخذ على النساء ما أخذ على الحيات ، أن يتحجرن في بيوتهن ، وقد روينا عن أحمد بن حنبل أنه كان عنده رجل من العباد ، فعمطت امرأة أحمد ، فقال لها العابد : يرحمك الله ، فقال أحمد : عابد جاهل .

ابن الجوزي (أحكام النساء) - ٢٠٨

أكل الفجل ونهيق الحمير

وأما الصلاة عليه (الرسول) عند أكل الفجل ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أكلتم الفجل وأرتمم ألا يوجد لها ربح ، فاذكروني عند أول قضمة ، أخرجه الديلمي في مسنده ، والأشبه ما رواه مجاشع بن عمرو بن أبي بكر بن حفص عن سبيد بن المسيب . قال : من أكل الفجل فسرره ألا يوجد منه ربحه ، فليذكر النبي صلى الله عليه وسلم عند أول قضمة . وأما الصلاة عليه عند نهيق الحمير ، فروى الطبراني من حديث أبي رافع : لا ينهق حمار حتى يرى شيطاناً أو يتمثل له شيطان ، فإذا كان ذلك فاذكروا الله وصلوا على [السخاوي (القول البديع) - ٢٢٨

الذباب داء ودواء

روى أبو هريرة " إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامقلوه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء " ، وفي رواية أبي سعيد الخدري (فانه يقدم السقم ويؤخر الشفاء) وفي هذين الحديثين

أمران : فقهى وطبى ، أما الفقهى فهو أن الزباب إذا وقع فى ماء أو مائع فمات ، لا ينجس ، وهذا قول جمهور العلماء ، وأما الأمر الطبى فهو يقع ضرر الأشياء بضدادها .

الفيروز آبادى (سفر السعادة) - ١٢٨

فن الحجامة

كان صلى الله عليه وسلم يقول : " الشفاء فى ثلاثة ، فى شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار ، وأنا أنهى أمتى عن الكي " ، قال العلماء : هذا الحديث إشارة إلى معالجة جمع الأمراض المادية ، لأن المرض إما دموى أو صفراوى أو بلغمى أو سوداوى ، فإن كان دمويا فعلاجه بإخراج الدم ، وإن كان الأقسام الثلاثة فعلاجها الإسهال ، نبه بالعسل على ذلك ، وبالمحجم على القصد والحجامة ، ونبه بالكى على حالة يعجز فيها الطبيب ويعيا ، وآخر الدواء الكى ، ولما حجه صلى الله عليه وسلم أبو طيبة ، أمر له بصاعين وقال ، لساتته : خففوا عنه شيئا من خراجه ففعلوا ، وكان قول : " خير ماتداويتم به الحجامة " .

الفيروز آبادى (سفر السعادة) - ١٢٢

فضل المحدثين

أخرج عبد الرحمن بن مهدي قال : من طلب العربية فأخذه مؤدب ، ومن طلب الشعر فأخذه شاعر يهجو أو يمدح بالباطل ومن طلب الكلام فأخذه أمره الزندقة ، ومن طلب الحديث فإن قام به كان إماما ، وإن فرط فيه ثم أناب يوما ، يرجع إليه وقد عتبت وجانت .

السيوطى (صون المنطق والكلام) - ٦١

تحريم الموسيقى

الأوتار والمعازف كالطنبور والعود والصيغ أى ذى الأوتار ، والرياب والجنك والكنجة والسنتير والدرج ، وغير ذلك من الآلات المشهورة عند أهل اللهو والسفامة والفسوق ، هذه كلها محرمة بلا خلاف ، ومن حكى فيها خلافا فقد غلط أو غلب عليه هواه حتى أصمعه وأعماه ومنعه هداة ، وزل به عن سنن تقواه .

ابن حجر المكي (كف الرعاع) - ١٢٤

لعنة الشطرنج

أخرج الديلمى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ملعون من لعب بالشطرنج .. وأخرج الطيمى

حديثاً طويلاً فيه : " ومن لعب بالشطرنج والنرد والجوز والكماب مقتله الله ، ومن جلس إلى من يلعب الشطرنج والنرد ينظر إليهم ، محيت عنه حسناته كلها ، وصار ممن يمقتله الله " .

ابن حجر المكي (كف الرعا ع) - ١٥٦

خمس كلمات ا

" ونهى (الرسول) أن تتكلم المرأة مع غير زوجها أو ذي رحم غير محرم إلا خمس كلمات فيما لابد منه " - وهذا سببه ماتقدم ، لأن الكلام نفمة ، وفي النفمة فتنة وشهوة ، فإذا كلمت غير زوجها فقد أذاقته بعض شهواتها ، فقد خانت زوجها ، ألا ترى أنه استثنى المحرم لأنها لا تحل له ، وقرب رحمها منه يحول دون أن يجد جلعماً لذاتها ، ثم أطلق لها في كلمات محظورات ذات عدد لابد منها للضرورة ..

قال أبو عبد الله ، رحمه الله : وكان عندنا رجل أعمى ، افتتن بجارية له حتى ابتلى بلاء عظيماً وخرب منزله ، فسألت عن سبب ذلك فقيل : كان بينهما كوة ، فكانت تجيء تلك المرأة ، فتحدث امرأة الأعمى ، ويستمع الأعمى إلى حديثها ، فافتتن بها لحلاوة نغمتها وعذوبة ألفاظها .. فيما ذكر لى .
والنفمة شأنها عظيم ، ومن هنا قال : " من نابه شيء في صلاته ، فلتسبح الرجال ، ولتصفق النساء " لحال النفمة ، فإن فيها افتتاناً للمصليين إذا سمعوا نفمة المرأة بالتسبيح ، والمرأة جند من جنود إبليس عظيم ، ولذلك قال إبليس حين خلقت المرأة : أنت نصف جندى ، وأنت موضع سرى ، وأنت سهمي المسموم الذى أرمى بك فلا أخطئ ، وإنما صارت مسمومة لأنها خلقت من الضلع الذى يجاور موضع الشهوة من آدم عليه السلام ، فهي من قرنها إلى قدمها شهوة ، حتى شعرها وظفرها ، فلذلك أمرت أن تستر كل شيء منها إلا ما ظهر مما لا يمتنع وهو : الوجه والكفان ، فبالوجه تنظر ، وبالرجل تمشى وباليدين تتناول.

(الحكيم الترمذى - المنهيات ١٢٨ - ٩)

عوى الله

وأما قوله : " ونهى أن يقال للزنى : يا أبا فلان " ، فذاك من أجل أن الكنية كرامة وإجلال ، فلا يحيا بها الزنى ولا يوجب له ذلك ، ولا يستحق الإجلال لأنه عوى الله .

المنهيات - الحكيم الترمذى (٢٠٤)

زنا البهائم

وأما قوله : " ونهى أن تنزى الحمير على الخيل " فذلك احتال في خلق الله ، ومنه تكون البغال ،

وفى حديث آخر قالوا : يارسول الله إنا ننزى الحمير على الخيل - قال : إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون " وهو فعل الملوك الجبابرة ، وهذا زنا البهاثم ، حدثنا بذلك عمر بن أبى عمر بن حفص بن عمر ، عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، فى قوله تعالى : " لولا أن رأى برهان ربه " ، قال : جاء جبريل عليه السلام فقال : يا يوسف ، أما علمت أن الطير إذا زنا تساقط ريشه ، وأن الثور إذا زنا وقع الدود فى قرنه ، وزنا الطير أن تنزى حمامة على الدجاجة ، وزنا الثور أن ينزى على حمار أو جنس غير جنسه .

الحكيم الترمذى (المنهايات) - ٢٥٠

هبة الزوج

ولا ينبغي للرجل أن يمزح مع المرأة فتطمع فيه طمعا يخرجها عن طاعته ، ولا أن يسلم ماله إليها فيصير هو كالرهن فى يدها ، فريما استغنت واستوثقت لنفسها ثم تركته ، وقد قال الله تعالى : " ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما " ، بل ينبغي أن يمزح بنوع من الهيبة . وأكثر العلاج فى إصلاح المرأة منعها من محادثة جنسها ، ومن خروجها من بيتها ، وإطلاعها من ثروته ، وأن تكون عنده عجز تؤذيها وتكفيها تعظيم الزوج ، وتعرفها حقوقه .

ابن الجوزى : (الطب الروحاني) - ٦٢

لقمة من جمر جهنم

عن عائشة رضى الله عنها قالت : أيا امرأة امتزلت فراش زوجها بغير إذن زوجها فهى فى سخط الله حتى يستغفر لها ، وإيا امرأة استشارت غير زوجها لقت من جمر جهنم ، وإيا امرأة رضى عنها زوجها رضى الله عليها ، إلا أن يأمرها بما لا يحل لها .

السيوطى (مسند عائشة) ١٧١

زواج الأطفال

وبنت تسع إننها معتبرة إن لم تكن مع الولى مجبرة . أى إن بنت تسع سنين صحيح معتبر نصا لقول عائشة : إذا بلغت الجارية تسع سنين فهى امرأة ، رواه أحمد وروى عن ابن عمر مرفوعا ، ومعناه : فى حكم المرأة ، ولقوله عليه السلام : " تستأمر اليتيمة فى نفسها فإن سككت فهو إننها ، وإن أبت فلا جواز عليها ، رواه أبو داود ، وقد انتفى الإذن فيمن لم تبلغ تسع سنين ، فيجب حمله على من بلغتها .

ثم إن كان الوالى مجبرا كئبى البكر ، فاستئذناها سنة وليس بشرط كالكيبرة ، وإن لم يكن مجبرا كجد اليتيمة وعمها وأخيها ، فلا باننها كالبالغة وأما اليتيمة دون التسع فلا تزوج بحال لأن

الوالى ليس مجبراً ، ولا إذن لها حتى تبلغ تسعاً فأكثراً .

ابن يونس اليهودى (المنع الشافيات) ج ٢ - ٥٠١

حوريات الجنة

وروى عن النبى أنه قال إن الله تعالى خلق وجوه الحور العين من أربعة ألوان : أبيض وأخضر وأصفر وأحمر ، وخلق أبدانها من الزعفران والمسك والكافور ، وشعرها من القرنفل ، ومن أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران المطيب ، ومن ركبتيها إلى ثيبيها من العنبر ، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور ، ولو بزقت (بصقت) واحدة منهن فى الدنيا لصابرت مسكا ، ومكتوب على صدرها اسم زوجها ، واسم من أسماء الله تعالى ، وفى يد كل منهن أسورة ، وفى أصابعها عشرة خواتم من الجواهر واللؤلؤ.

الخويوى (مرة الناصحين) - ٢٢١

شعرة واحدة

وفى الخبر : إذا كان يوم القيامة ، يوقف العبد بين يدى الله تعالى فيؤتى كتابه ، ويجد فيه سيئات كثيرة ، فيقول : إلهى ، ما فعلت هذه السيئات ، فيقول الله تعالى : إن لى شهيداً ثقات ، فيلتفت إلى يمينه وشماله ولم ير أحداً من الشهود ، فيقول : يارب أين الشاهد ، فيأمر الله جوارحه بأن تشهد عليه فتشهد ، فتقول الأنتان : إنا قد سمعنا والعينان. إنا قد نظرنا ، واللسان : أنا قلت وكذا الرجلان واليدان : إنا فعلنا ، والفرج أنا أنبت ، فيبقى العبد متحيراً ، فيأمر الله تعالى به إلى النار ، فتظهر من عينه اليمنى شعرة واحدة تستأذن من الله تعالى أن تتكلم فيأذن الله تعالى لها فتقول : يارب أأست قلت أى عبد أغرق شعرة واحدة من أجفانه بدموع عينيه من خشيتى إلا أنجيت من النار ؟ فيقول الله تعالى : بلى ، فتقول : أنا أشهد أن هذا العبد المذنب قد أغرقنى بالدموع من خشيتك ، فيأمر الله تعالى به إلى الجنة ، فينادى المنادى : ألا إن فلانا ابن فلان قد نجا من النار بشعرة واحدة من جفون عينيه !

الخويوى - (مرة الناصحين) - ٢٧٣

دموع آدم

يقال إن آدم عليه السلام بكى حين هبط من الجنة ثلاثمائة عام ومارفح رأسه إلى السماء حياء من الله تعالى ، وسجد سجدة على جبل الهند مائة عام يبكي حتى جرت دموع عينيه فى واد سرنديب ، فأنبت الله تعالى فى ذلك الوادى من دموع عينيه : الدار صينى والقرنفل ، وشريت الطيور من دموع عين آدم ، فقالوا : لم تشرب شراباً أعذب من هذا ، نظن آدم أنهم يسخرون منه لعصيانه

فأوحى الله تعالى إليه : يا أدم إني لم أخلق شراباً ألد وأعذب من ماء عيون العصاة.

الخبوي (برة الناصحين) ٢٧٤

شرط الكفاة

كفاة النكاح فيه تشترط وخالف الشيخان في الشرط فقط لكن لمن لم يرض فسخ العقد حتى أخ على أبيع يعدي

يعنى اختلفت الرواية عن أحمد في اشتراط الكفاة لصحة النكاح ، فروى عنه أنها شرط ، فانه قال : إذا تزوج المولى العربية فرق بينهما ، وهذا قول سفيان ، وقال أحمد في الرجل يشرب الشراب : ما هو بكفه لها يفرق بينهما ، وقال لو كان المتزوج حائناً فترقت بينهما لقول عمر : (لأمعن فروج نوات الأحساب إلا من الأكفاء " ، رواء الخلال ، وهذا اختيار الخرقى ، فلورضيت المرأة والأولياء بغير كف ، لم يصح النكاح لأنها حق الله ، وإن عدمت الكفاة بعد العقد لم يبطل النكاح.

والرواية الثانية : ليست شرطاً في النكاح واختارها الشيخان ، قال في الشرح : وهي أصح ، وهذا قول أكثر أهل العلم ، وروى عن عمر وابن مسعود لقوله تعالى : " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " ، وقالت عائشة : إن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة تبنى سالماً وأنكحه ابنة أخيه هند ابنة الوليد بن عتبة وهو مولى لامرأة من الأنصار " أخرجه البخارى ، وأمر النبي فاطمة بنت قيس أن تتكح أسامة بن زيد مولاه ، فنكحها بأمره . متفق عليه . لكن لمن لم يرض من المرأة ، والأولياء كلهم ، الفسخ ، لأن للزوجة ، ولكل واحد من الأولياء فيها حقاً ، حتى لو زوج الأب بغير كف ، ففلاخ الفسخ ، نص عليه لأنه ولى في حال ، يلحقه العار بفقد الكفاة فملك الفسخ كالمساويين .

السابق ٥٠٤ - ٥

سبعون في سبعين

في الخبر أن وراء الصراط صحارى فيها أشجار طيبة ، تحت كل شجرة عينان من ماء ينفجر من الجنة ، إحدهما عن اليمين والأخرى عن اليسار ، والمؤمنون حين يجاوزون الصراط يشربون من إحدى العينين فيزيلون عنهم الفل والخيانة والقذر والدم والبول ، فيطهر ظاهريهم وباطنيهم ، ثم يجيئون إلى حوض آخر فيغتسلون فيه ، فتصير وجوههم كالقمر ليلة البدر وتلين نفوسهم كالحرير ، وتطيب أجسادهم كالسك ، فينتهون إلى باب الجنة ، فتخرج الحور ، فتعانق كل واحدة ، زوجها وتدخل بيته وفى البيت سبعون سريراً وعلى كل سرير سبعون فراشاً ، وعلى كل فراش زوجة عليها سبعون حلة يرى مخ ساقها من لطافة الحل.

(الخبوي (برة الناصحين) ٢٢٠٠)

إمام فاجر

وأما قوله : " صلوا خلف كل بر وفاجر ، ولابد من إمام بر أو فاجر " ، فإنه يريد السلطان الذي يجمع الناس ويؤمهم في الجمع والأعياد ، يريد : لا تخرجوا عليه ، ولا تشقوا العصا ، ولا تفارقوا جماعة المسلمين وإن كان سلطانكم فاجرا ، فإنه لابد من إمام بر أو فاجر ، ولا يصلح الناس إلا على ذلك ، ولا ينتظم أمرهم .

ابن قتيبة الدينوري (تأويل مختلف الحديث) - ١٤٧- ٨

هاروت وماروت

وهما ملكان أهبطا إلى الأرض حين عمل بنو آدم بالمعاصي ، وأمرا ألا يزنيا ولا يقتلا ولا يشربا الخمر ، فجاءتهما (الزهرة) تخاصم إليهما ، فأعجبتهما ، فأراداهما ، فأبى عليهما حتى يعلمهما الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلماهما ، ثم أراداهما فأبى حتى يشربا الخمر فشرباهما ، وقضيا حاجتهما ، ثم خرجا فرأيا رجلا فظنا أنه قد ظهر عليهما فقتلاه ، وتكلمت الزهرة بذلك الاسم فصعدت ، فخنست ، وجعلها الله شهابا ، وغضب الله تعالى على الملكين ، فسماهما هاروت وماروت ، وخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا .

فهما يعلمان الناس ما يفرقون به بين المرء وزوجه . والذي أنزل الله عز وجل على الملكين فيما يرى أهل النظر والله أعلم - هو الاسم الأعظم الذي صعدت به زهرة - وكانا به قبلها وقبل السخط عليهما يصعدان إلى السماء ، فعلمته الشياطين ، فهي تعلمه أوليائها ، وتعلمهم السحر ، وقد يقال إن الساحر يتكلم بكلام فيطير بين السماء والأرض ويطفو على الماء .

ابن قتيبة الدينوري (تأويل مختلف الحديث) - ١٦٩

تكفير التفكير

وأما كتب الفلسفة فالباطل غالب عليها ، بل الكفر الصريح كثير فيها ، وكتاب (الإحياء) له حكم نظائره ، ففيه أحاديث كثيرة صحيحة وأحاديث كثيرة ضعيفة أو موضوعة ، فإن مادة مصنفة في الحديث والآثار وكلام السلف وتفسيرهم للقرآن ، مادة ضعيفة .

ابن تيمية (شرح العقيدة الأصفهانية) - ١٤٦

الزراعة للكفرة

وقال بعضهم : المزارعة مذمومة ، لما روى أن النبي رأى شيئا من آلات الحراثة في دار قوم فقال : " ما دخل هذا بيت قوم إلا ذلوا " وسئل عن قوله عز وجل : " إن تطيعوا الذين كفروا يردكم على

أعقابكم " أهو التعرب ؟ قال : لا ، ولكنه الزراعة "

الإمام الشيباني (الكسب) - ٦٣

تطرق في التشبيه

وسأل بعضهم معاذاً العنبري : أله وجه ؟ (يعنى الله سبحانه) ، قال : نعم ، قلت : فعين ؟ قال : نعم ، حتى عددت جميع الأعضاء من أنف وأذن وصدر ويطن ، وهو يقول : نعم ، فاستحييت أن أذكر الفرج ، فأوميت بيدي إلى فرجى ، فقال : نعم ، فقلت : ذكر أم أنثى ؟ قال : ذكر ، ففرح القوم غير هؤلاء المعتزلة ، فأنهم لعنوه وكفروه .

ابن كرامة البيهقي (رسالة إبليس) - ٤/٣٣ .

اجتهدوا .. وتعصبوا

هؤلاء ، أهل الألفة في البلاد الإسلامية ، تتركونهم هملاً تستخدمونهم ، وتستبطنونهم ، ولا ترى منكم فقيهاً يجلس مع ندى ساعة واحدة ، يبحث معه في أصول الدين ، لعل الله تعالى يهديه على يديه ، وكان من فروض الكفايات ومهمات الدين أن تصرفوا بعض هممكم إلى هذا النوع ، فمن القبايح أن بلادنا ملأت من علماء الإسلام ، ولا ترى فيها نبياً دعاه إلى الإسلام مناظرة عالم من علمائنا ، بل إنما يسلم من يسلم إما لأمر من الله تعالى لا مدخل لأحد فيه ، أو لغرض دنيوى ، ثم ليت من يسلم من هؤلاء يرى فقيهاً يمسكه ، ويحدثه ، ويعرفه دين الإسلام ، لينشرح صدره لما دخل فيه ، بل - والله - يتركونه هملاً لا يدري ما يباطنه : هل هو كما يظهر من الإسلام ، أو كما كان عليه من الكفر ؟ لأنهم لم يروه من الآيات والبراهين ما يشرح صدره فيما أيها العلماء ، في مثل هذا فاجتهدوا ، وتعصبوا .

الإمام السبكي (معيد النعم ومبيد النقم)

حتى الخراء

وقد ثبت في صحيح البخارى وغيره من حديث أبى هريرة ، نهى صلى الله عليه وسلم عن الاستنجاء بالعظم والروث في أحاديث متعددة ، وفي صحيح مسلم وغيره عن سلمان قال : " قيل له قد علمكم نبيكم كل شئ حتى الخراء ، قال : فقال : أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول ، وأن نستنجى باليمين بأقل من ثلاثة أحجار ، وأن نستنجى برجيع أو عظم " ، وفي صحيح مسلم وغيره أيضاً عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتمسح بعظمة أو بعر .

ابن تيمية (البيان المبين) - ٩١/٦٠

مختارات من شعر

رسول حمزاتوف

إعداد وتقديم: طلعت الشايب

كل الأغاني إنتهت إلا أغاني الناس

«يخرج المسافر في سفر، فماذا يحمل معه؟ خمرًا يحمل . خبزًا يحمل! لكن يا ضيفي العزيز اننتأخر في إكرامك وإن تحتاج إلى ما تحمل ، الجبيلة ستخزن لك خبزًا والجبلى سيقدم لك خمرًا .
يخرج المسافر في سفر فماذا يحمل معه ؟ خنجرًا مشحونًا يحمل! لكن يا ضيفي العزيز ، فى الجبال ستقدم لك فروض الإكرام ، وإذا كان العدو لا يغفل عنك ، فالجبلى عنده أيضًا خنجر وهو سيحميك .
يخرج المسافر في سفر فماذا يحمل معه ؟ أغنية يحمل! .

لكن يا ضيفي العزيز ، الأغاني المدهشة لا حصر لها عندنا فى الجبال .. لكن لا بأس ، أحمل معك أغنيك ، فحملها ليس بالثقل! (١) .

.. وهكذا يحمل الشاعر رسول حمزاتوف (٧٢ سنة) أغنيته معه أينما ذهب، ويوصى كل إنسان بأن يحمل معه أغنيته (حملها ليس ثقيلًا) أينما ذهب.. أما الأغنية فهى الوطن الذى ينسل ندى صباحه البارد أقدام المتعبين ، وتفسل مياه أنهاره وسواقيه وجوه أبنائه ، الأغنية هى الإنسان ينشدتها شاعر يشعر بمسئوليته ليس عن بلده فقط وإنما عن كل شبر من الأرض يعيش عليه إنسان فى هذا الكوكب ، فالشعر كامن فى كل قلوب الناس « نعم ! نحن جميعًا شعراء » ، بعضنا ينظم الشعر لأنه يعرف كيف ينظمه ، وبعضنا ينظمه لأنه يظن أنه يستطيع ، وبعضنا لا ينظم الشعر على الإطلاق.. ومن يدري ؟ فكل هذه الزمرة الأخيرة أن يكونوا فعلاً هم الشعراء حقاً» .

تمرت على عالم ذلك الشاعر المدهش من خلال كتابه الجميل «داغستان بلدى» الذى نقله إلى العربية عبد المعين ملوحي ويوسف حلاق عام ١٩٧٩ ، وهو كتاب عجيب عن حب الوطن والحياة والإنسان والأرض والسماء واللغة والموسيقى وأغاني الناس وحكمة الموروث الشعبى وذكريات الطفولة ووصايا الآباء والأمهات . كل ذلك من خلال نافذة مشرعة على محيط عظيم .. نافذة أسماها داغستان! .

استجاب رسول حمزاتوف لطلب بأن يكتب عن بلده ، أبخل الخيط فى ثقب الإبرة ، فأى قفطان سيخيط ؟ سوى أوتاره فأى أغنية سيغنى ؟ إنه لا يريد أن يكون مثل أولئك الصيادين الذين اشتروا أيلًا من السوق وقالوا فى البيت إنهم اصطادوه ، لذلك كتب نفسه فكتب وطنه ، بكتب شعبه فكتب الحياة ، لم يسرج أفكار الآخرين ولكنه ينفذ وصايا والده الشاعر ومعلمه الأول بأن يكون إضافة «أجرؤ على تشبيهه الألب بالطيور والكتاب بالأوتار المشدودة عليه ، لكل وتر منها صوته .. رنينه . لكننا كلها نؤلف اللحن .. لو أنى أستطع أن أصنع وترًا متميز الرنين ! لو أنى أصبح وترًا آخر على ألتنا الأقرابية القديمة!!» .

وكما الصائغ الماهر يوجد رسول حمزاتوف أمامه كل ما يريد:

الذهب والفضة والأدوات والطارق والمناقر الصغيرة والدمغات والرسوم . وجد أمامه وخلفه وبداخله لغته الأم وتجربته الحياتية وصور الناس وألحان الأغاني وحس التاريخ وطبيعة بلاده الجبيلية بذكري والده وشعراء وطنه وماضى شعبه ومستقبله .. سبائك ذهب بين يديه ولكن «كيف لى أن أفعل حتى أصنع أغنيتى

على راحتكم عصفورا حيا نابضا».

وجاءت أغنية حمزاتوف عصفورا حيا نابضا ، ملأت القلوب كما الحب ، لأنه قبل أن يطلق كلماتها فى العالم الفسح رأت عيناه وسمعت أذناه وخفق قلبه . وهل يمكن أن تتطلق فى العالم كلمة لم تكن قد عاشت فى القلب؟!

يرصع حمزاتوف كتابه بأشعار له والشعراء بلاده ويمقتطفات من دفتر منكراته ووصايا والده ومئات الحكايات الصغيرة الدالة التى تجرى على ألسنة سكان الجبال . يكتب عن اللغة فيفتح لنا دفتر منكراته : «اللغة للكاتب مثل غلة الحقل بالنسبة للفلاح ، محبوب كثيرة فى كل سنبل ، السنابل كثيرة لا عد لها ، لكن لو بقى الفلاح ينظر إلى حقله دون أن يفعل شيئا لما حصل على حبة حنطة واحدة ، يجب أن يحصد القمح ثم يدرس ، لكن هذا ليس إلا نصف العملية ، يجب أن يذرى النريس لفصل الحبوب النظيفة عن الخسيسة والحشائش ، ثم يجب أن يطحن ويعجن ويخبز .. ولكن أهم ما فى الأمر كله هو أن تتذكر أنه مهما بلغت حاجتك إلى الخبز ، فلا يجوز أن تستفد كل الحبوب ، أفضل الحبوب يبيعها الفلاح للبزار ، والكاتب الذى يتعامل مع اللغة أشبه ما يكون بالفلاح».

ولد رسول فى بيت شاعر فى بلاد تتنفس شعراء ، والده هو حمزة تساداسا (توفى عام ١٩٥١) ، كان يكتب بالعربية والروسية واللاتينية ، كتب شعرا للصغار والكبار كما كتب المسرحية والحكاية وجرت أبيات كثيرة من شعره مجرى الأمثال فى قريتهم «تسادا» الرابضة فوق رؤوس الجبال ، نقل الأدب إلى ابنه حكمة الشعب والزمن ، كان يقول له: من لم يسمع أغنية الأم كمن نشأ يتيماً ومن نشأ دون أب أو أم لا يحسب يتيماً إذا ردوا فوق مهده الأغاني الداغستانية ، كان يقول له «إن الوالد حين يموت يورث أبنا» بيتا .. حقلا .. سيفاً .. مزماراً .. لكن الجيل حين يذهب ، يورث غيره من الأجيال التالية اللغة» وأن من عنده لغة بوسعها أن يبنى بيتا ويحرق حقلا ويصنع سيفاً أو مزماراً يعزف عليه ، منذ صغره ، نما فى قلبه حب الموسيقى والشعر والفناء ، كل ما حوله يقنى ، الجبال الشاهقة والجداول وسكان الجبال .. والأمهات - أول الشعراء - اللاتى يرمين بذور الشعر فى نفوس الأبناء والبنات فتتمو منها الأزهار وتفتح فيما بعد ، وفى أحلك الظروف يتذكرون وهم كبار ، كل ما سمعوه من أغنيات وهم صغار ، وهما هو رسول حمزاتوف بعد أن وهن العظم منه واشتعل رأسه شيبا يظل على نفس المهده .. ينخل الأحداث وشئون الناس والحياة كلها فيحصل على أغنيته.

ويتذكر رسول ما حدث له ذات يوم وكان فى عامه الدراسى الثانى ، كان قد ذهب إلى قرية قريبة ليستمع إلى شيخ عجوز يشدو بأغنيات فانتة وفى طريق عوبته هاجمته كلاب الرعاة ولم يتقده منها سوى راع طيب كان يعرف والده ، سأل الراعى عن سبب وجوده فى الجبال فقال إنه ذهب إلى بصرى ، لبحث عن قصائد وأشار إلى كيسه قائلاً: إنها هنا : «سحب الراعى القصائد ، وراح يتقحصها ثم قال له : أتريد أن تكون شاعراً؟» إذن فلماذا تخاف من الكلاب؟ ستلقى فى طريقك فى المستقبل كلاباً أشد سعارة ، هؤلاء لن يتركوك إذا شمو رائحة القصائد كما تركتك كلابي هذه ، ولكن لا تخف لا تخف شيئاً على الإطلاق (...) إن الجبال فى بلدك تهب إلى نجتك».

ومنذ اليوم ، يجد رسول حمزاتوف تجذته وحماه فى الجبل وفى الجبل الذى يقسم بأنه ولد إنسانا ويموت إنسانا ، فى الوطن الجميل الذى يسمى أشجع الشجعان نسور الجبال وفى الشعر الذى يتغنى بكل ذلك فيكتب له وإصاحبه الخلود.

ويعود إلى نوع التكريات التى لا يتغضب «قالوا عندما مات الشاعر الكبير محمود ، أخذ والده - وقد سحقته الحصية - الحقيقة التى تضم مخطوطاته وألقى بها إلى النار: - احترق أيتها الأوراق اللعينة التى كانت السبب فى موت ولى قبل أوان موته ، واحترقت الأوراق ولكن قصائد محمود بقيت على قيد الحياة ، لم تنس من أغانيه كلمة واحدة ، لا تزال أغانيه تعيش فى قلوب الناس ، لاسلطان للنار ولا للماء عليها».

رسول حمزاتوف الذى تخرج فى عام ١٩٥٠ فى معهد جوركي للأدب فى موسكو وعمل فى صدر شبابه بالتعليم ، ظهر أول كتيب له بالأفارية قبل أن يبلغ العشرين وكان نائباً فى مجلس السوفيت الأعلى فى الاتحاد السابق ورئيساً لاتحاد كتاب داغستان وفى عام ١٩٥٨ منح لقب شاعر الشعب وهو حاصل على جائزة لينين وجائزة لوتس الأقرى أسبوية - ١٩٨٧ - وعلى جائزة نهرو فى الهند ١٩٨٩ - ويتردد اسمه فى كل عام كمرشح على قائمة نوبل ومع ذلك يبقى حب الناس له ولأعماله - عنده - أسمى من كل الجوائز ، لكن الصعب هو كتابة كتاب جيد ، وأعلى وسام يناله الكاتب هو أن يقول له قارئ حقيقى: أحسنت! لقد كتبت كتاباً جيداً».

منذ مجموعته الأولى الحب العار والكراهية الحارقة ١٩٤٣ - أصدر رسول حمزاتوف أكثر من ثلاثين كتاباً نذكر منها: حوار مع أبى ١٩٥٣ و«البت الجبلية» ١٩٥٨ و«النجوم العالية» ١٩٦٢ - و«كتاب الحب» ١٩٧٤ و«كلمات الشاعرة» ١٩٧٩ و«جزيرة النساء» ١٩٨١ و«العصر والعالم» - ١٩٩٠ - و«المهد والوجاق» ١٩٩٤.

ولابد أن يتسائل القارئ عن موقف رسول حمزاتوف اليوم من كل ما حدث ويحدث من حوله منذ انهيار وتشقق الاتحاد السوفيتى وهو الذى كان شاهداً ومشاركاً للإجابة عن هذا السؤال لابد من العودة قليلاً إلى الوراء منذ خمس سنوات أجرت مجلة اليوم السابع حواراً معه (٢) تحدث فيه عن أن «البرويسترويكا» «باتت تعنى للكثيرين مهنة وليس طابع حياة» ويدافع عن سمعته طوال السنوات الخمس - الأخيرة آنذاك - قائلاً إن ذلك لم يكن عملاً بحكمة القماء الذين نصحوا الشاعر بالوقوف على الشاطئ وليس فى البحر ، لحظة العاصفة ، ولكنه عمل بنصيحة أصدقائه الذين قالوا له يائه أمر عابر وأن من الأفضل له أن يكتب شعراً كان يقلق روحه سؤال مهم: هل سنقع فى محيط الشر والافتراق وكان يقلقه واقع اجتماعى جديد حل فيه «كثير من المنتقمين الشعبيين محل العملاء السريين والمتخفين» . قال حمزاتوف «إن السياسة تمكّر على الشعراء لدى وادى الآخرين والسيطرة الغربية على منحنى الثقافة البرويستريكية مصدرها عقدة الغرب نحن نعيش أزمة خضوع لكل ما ينتجه الغرب لعجزنا عن إنتاج ثقافة حقيقية ، أنا أفهم جيداً أن إعادة الاعتبار للعديد من الأسماء والظواهر والأعمال الأدبية التى كانت ممنوعة وعاش أصحابها فى الغرب قد أعطت البرويسترويكا طابع التعددية والديمقراطية ولكن لا أفهم مسألة أن يكون الغرب مقياساً ثقافياً يملئ علينا شروط علم الجمال وعلم الأخلاق.

أما ديوانه الأخير «المهد والوجاق» الذي تتفنى قصائده أيضاً بطبيعة داغستان الساحرة وجمال نسائها فقد صدره بمقدمة فرضتها المتغيرات السياسية المتسارعة ، لم يستطع حمزاتوف السكوت إزاء الحرب الشيشانية الدائرة في شمال القوقاز ذلك الجرح النازف في قلب الجميع في مناطق متعددة الألبان والقوميات وذات تاريخ معقد وظروف اقتصادية أكثر تعقيداً لا يمكن أن تكون الحرب هي الملأ لى مشكلة . قال حمزاتوف إنه الساسة يعوزهم الصبر المرفق وبفتنة إلى الخيال.. (أرأوا أن يقطعوا قلوب الثور فالتهموه) «وتحدث عن ديوانه الجديد الذي كتب فيه عن «البلاد التي فقدناها وعن الأرض التي نعيش عليها وعن محبوبتي الوحيدة التي تفهمنا» وأشار إلى أن القارئ سيجد فيه أناشيداً وتوبيعات للكر.. وللينابيع الجافة.. وللأمهات والآباء.. وللرقابة أيضاً.

يقول حمزاتوف الذي يرأس الآن مؤسسة خيرية للعمل الاجتماعي والثقافي تصدر الكتب وتوزع الإعانات وتقيم المعارض وتدير ملجأ للأيتام في شمال القوقاز وتساعد متضرري الكوارث والحروب : «عندما يسألني البعض ما هو الحزب الذي تنتمي إليه أجيبهم : أنا من حزب الشعر، أما نظامي الداخلي فيتألف من أشعار بوشكين وباطير وإيرمنتوف وسليمان وانضباطي الحزبي اكتسبته من أبي حمزة تساداسا ، ولا يمكن أن يطردني من هذا الحزب أحد سوى الشعب ، أما برلمانى فهو قريتي الجبلية ، هناك توضع قوانين وقواعد سلوكي».

وفي لقاء أجراه أخيراً أحمد الضميسى في بيته في محج قلعة عاصمة داغستان (٣) ، عبر «حمزاتوف» عن موقف واضح إزاء التحولات الدرامية التي جرت في روسيا ، لم ينكر أن السلطة السوفيتية كانت لها أخطاؤها الكثيرة (مثل الشمولية ومحاربة التمايز القومي ومحاولة إقامة شعب واحد بالقوة) . لكن ما الذي أعقب الانهيارات الكبرى؟ تحولت البلاد إلى سوق كبيرة يباع ويشترى فيها كل شئ .. أى شئ ، النساء والأطفال والشعر والموسيقى والأرض وكافة القيم النبيلة .. «نحن نعيش مرحلة وحشية تتحالف فيها السلطة مع رجال الأعمال والبنوك والمجرمين .. ولا شئ عدا ذلك «حمزاتوف» الذي وقف ضد تفكيك الاتحاد السوفيتي وكان يتخيل مخرجاً آخر للأخطاء غير الانهيار يجد نفسه اليوم في وضع تحولت فيه الأقدام إلى رؤوس ، وأصبحت الرؤوس أقداما ، في زمن يعاني فيه البعض من فرط الشعب والبعض الآخر من فرط الجوع .. ولا عاصم اليوم إلا أغاني الناس عن الوطن ، كل الناس عن جميع الأوطان ، ويقدروا ما تكون الأزمات متنوعة تكون الباقية أجمل ويقدروا ما تكون النجوم في السماء أكثر ، تكون السماء أشد تألقاً».

ط. ش

حلم

حلمت بأننى قد مت ، وحين تحسست صدرى حزينا ،
وجدت عشا خاويا فى موضع القلب
أين أختفى طائر هناك ، كان ينزف دماً حاراً؟
أردت أن أصرخ : وا أسفى على الحياة .
فتسمرت
صرختى على الشفاء !
ها أنذا مميد ميت .. بارد كالثلج
ويجوارى تتدفق
شلالات الجبال ، ويريق ضحى الخريف
دموعه على خلود الأوراق . أرى الحزن
فى وجوه الأصدقاء وهم يتساقطون خطاهم، ويحملوننى إلى مثواى الأخير على أكتافهم المحنية.
ويسخر بى الحلم الشرير ، فيجعلنى
أسير فى جنازتى المشيعيين ..
أسير شاردة وأبكى على نفسى،
أبكى كما لو كنت فى اليقظة ..
ولأول مرة لا أخفى
الدموع!
ترى أبكى على حياة قد ولت ، أم لانى أعيش؟!.

صباح الخير

صباح الخير! أهتف بكم جميعا ، صيفا وشتاء.
صباح الخير يا قصائدي النائمة ، ويا
أيتها اليمامة فى أيكها الجبلية ، صباح
الخير يا قريتي الجبلية ، ويا موقدي الحبيب،
الذى يهدأ فى الليل ، كى يستعر بقوة فى الصباح!.

ترجمة : إبراهيم الجرادى

نقوش على عصي

حين لا تقدر أن تمتطي
سأسير الهوينى جانبك،
رغم أنى أرتدى الموشى لامعاً
فإن السائرين معى حزاني!
التجيل واجب وإجلال،
لك يا من تنقل منكبي ،
إنك إما طاعن في العمر ،
أو جندي جريح!
أشاركك الأسى ،
لأجل أيام خلت
حينما الفصن والأوراق.
كانت غرة وخفيفة!
لأجل أعمى بانس ،
كنت عينا
لأجل فاقد الساق
أنا ساقه!

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

حوار

بين رجل وامرأته : - لماذا تصرخ بي؟
- أنا لا أصرخ ، هذه طريقتي في الكلام!
بين شاعر وقارئ
شعرك لا يشبه الشعر..
- هذه طريقتي في نظمه!
من «داغستان بلدي»

ترجمة : عبد المعين ملوحى

ويوسف حلاق

الكرة الأرضية

عند البعض ، هي بطيخة صغيرة
يقطعونها إلى شرائح
وينهشونها بأستنانهم!
وعند آخرين ، هي كرة قدم ، يمسون
بها ، يعانقونها
ثم يتراكلونها فيما بينهم!
الأرض عندي ليست بطيخة
وليست كرة قدم،
الكرة الأرضية وجه محبوب ! أمسح عنه الدم إذا نزف .
والدمع إذا انهمر !!

ترجمة طلعت الشايب

طير القلق

يبدو لي أحيانا أن الجنود
الذين لم يرجعوا من ميادين القتال،
لم يواروا ثرى البلاد ،
بل أصبحوا لقالق بيضاء
ومنذ تلك العهود البعيدة
وهم يخلقون صائحين بنا
أليس ذلك سبب صمتنا وحزننا ،
عندما نتطلع إلى السماء؟!
والآن .. أرى اللقالق البيضاء ،
تطير فوق أرض غريبة فى ضباب الفسق،
فى تسقى المعهود
كما كانت تمشى على الأرض بشراً.
يطير مثلها المكود فى السماء
فى ضباب الغروب،
وفى هذا النسق ثمة فجوة

ربما كانت مكانا لى
سيئتى اليوم الذى أرحل فيه
مع سرب القالاق فى هذا الغسق
وأنادى حزينا ومن أعالي السماء
كل من تركتهم ورائى على الأرض!!

ترجمة أبو بكر يوسف

وأتى الحب

أمس، كنت أتسلل إلى أعشاش الطيور،
أغرى أصدقائى الأطفال بصعود الجبال
وأتى الحب عنيفا أزرق العينين، فجعلنى
-بفعة واحدة- راشداً، أشيب وحكيماً حتى آخر أيامى.. وأتى
الحب وابتسم فى بساطة، فإذا أنا واد صغير!!

من هذا

كنت يانعا فى العرس البهيج وكانت
الخمر تتدفق من الأقداح، وضعوا عصا
فى يدى وقالوا اختر فتاة تراقصها، وتقفزت مرتبكاً
وسط الزحام، لا أعرف أى جميلة أختار. وأخذ الكبار
يرشدوننى .. لا تختار هذه .. بل تلك!
وأصبحت بالغا وأعطونى القيثارة كى أغنى بلدى الرائع
لكنهم يعلموننى من جديد كلئى طفل.. غن ذا .. ولا تقن ذلك!

ترجمة يوسف حلاق

عندهم

عندما يولد طفل جبلى، أحس أننى
وادت، وعندما يقتل فى مكان ما..
إنسان ما، وعندما تثن فى مكان ما

أم فوق ابنها الشهيد ،وعندما تغص نسوة بالبكاء
فوق أرض ما .. أحس أنهم يدفونى!

ترجمة إبراهيم الجرادى

اغاني الناس

هناك ثلاث أغنيات مقدسة عند
الناس، تحمل أفرانهم وأترانهم .
واحدة من هذه الأغاني ،هى الأكثر
قداسة بينها .

إنها تلك التى تدمم بها الأم فوق مهد ابنها!
الثانية أيضا من أغاني الأم، تلك التى تغنيها
فوق نعش ابنها .وهى تمرر يدها فوق خدة
البارد ! الأغنية الثالثة .. بقية الأغاني!

ترجمة : إبراهيم الجرادى

المهد والوجاق

تجمدت لالى ثلاث على خدى
فرأيت فى أولها ذكرى الماضى وفى الثانية .. ماذا أرى؟ هل إنها مرآة
نهارى ؟ أما الثالثة فكانت تريد:
أنت يوم غدى ،
أنت قتام ليلى!
إننى كنت أكرح فى مقالع الحجر ،
وأبنى مع الآخرين
برجا شامخا بين السحب والصخر:
وحين أحتمم
الجدل أذكركو أن جدراننا مائلة كما أن بانيه فاقد البصر
رأيت رجلا يضمم نثيا أرجله دامية،

ولم تصدق
عيناي ما أرى ، ولم أفقه معانيه ، إذ
كنت
نفس ذاك الرجل في دنياه الفانية..
هتف لى نور القمر ، وصاح بلغة
الأموات من
شاهد القبر : « لا تجعل فى اليقين بحكم الدهر ،
ويأتك لن تجد خيرا هنا بعد أن لحقت من غير ».

ترجمة عبد الله حبة

لا تصدقوا النفاق

لم يضع على قلبه التعويذة ، فمات
البطل أمام وجه الزمن.
لم يسقط صريع رصاصه أو وشاية
بل مات رويدا
بعد النفاق!
تسلل إليه كالعاهرة الماكرة ، إذ ترقى ثوب البراءة.
والطهر ، فاستعذب شفتيها الغادرتين
وهما تقطران
عسلا! واستسلم لهما مغتبطا بوخيل إليه أنه
لم يرتكب إثما ، لكن الدنيا انقلبت فى لحظة.
عندما رأى القهوة تحت قدميه!
وبعدما أتم النفاق لعبته المفضلة ، انقلبت حية
زحفت مبتعدة ، فاحت على الحجر بسرور ، فأحرقت.
قطرة من سمها!
لا تصدقوا النفاق ، ففيه يكمن الشر ،
وكم من مرة قتلنا ،
لا بالرصاص أو المجد أو الوشاية ، بل بسمه المسكرا!

وينبغي أن ينكر ذلك- وهم يرقون
لنرى المجد
الشعراء، ورواد الفضاء ، ورجال النواة أيضا.

ترجمة أبو بكر يوسف

استلة

-أيها البحر ! لماذا ملوحة مائك؟
دموع البشر ذائبة فيه!
-أيها البحر! ما سر لونك؟
المرجان الذين في أعماقه !
-لماذا أنت مضطرب أيها البحر؟
في خضمي هلك أبطال كثيرون
بعضهم كان يمتنى النفس بالألا أكون
مالحا ، والبعض الآخر كان يمنيها
بالحصول على المرجان
-أيها النسر! ما أحب أغانيك إليك؟
تلك التي تحكى عن الجبال الشامخة!
-أيها النورس ! ما أحب أغانيك إليك؟
تلك التي تحكى عن الجيف الشهية
في ساحة القتال!

ترجمة طلعت الشايب

نقوش على خناجر

رفيق لو ستخلف خنجرًا .. لا تنس غمدها
مهما تسخن الشمس في الأعلى
فلن يجف دم
هذه البشرة!
للرجال المنتضدين سكينًا أقول:

أكثر من أيديكم .. استعملوا الرأس!

الأرعن يسحبه بلمح البصر.

والعاقل يفكر مرتين!

خفف شواربك بموسى ، واقطع

شجرتك بالفأس

لكن لا تضرب فى نضو خنجر

أغمده واسترح!

بعد أن أقتل رجلا ، أنمى مصيره

قبل أن أقتل ، أبغض فقط!

أحلف غير حانث جنب مقبض خنجرى

واحفظ عهدك ، جنب شفرتى!

أينما يراق الدم البشرى بالعداء،

فهو يشمذ مدية .. ليعيد سفك الدماء

لا توبخنى بحقيقة أو إشاعة ،

ليس لدى الخناجر من فكاهة!

وحشيا ومحموما بالشر ،

أو باتراً وبارداً كالثلج

لا ينجب الخنجر صغيراً،

بل يتامى بلمح البصر!

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

الأحمر والأسود

—من أين ينبع الأحمر؟

من الأسود ينبع ، فمن قديم الزمان

تسيل الدماء

بسبب الأفعال السوداء!

—ومن أين ينبع الأسود؟

من الأحمر ينبع ، فعندما تسيل الدماء ، يتشبع العالم بالسواد!

ترجمة أبو بكر يوسف

اغنية فلسطين

ليل طويل يضنيه حزن موجع ، ولا فجر للحزن ، فائين
أنت يا فلسطين ؟ حارق ربيعك
وشتاؤك حارق
شهيق دائم ، فائين زفيرك يا فلسطين؟
ينذل وردك ويجف نيمك ، والمقيب دموى .. فائين فجرك
يا فلسطين؟
أبدية أنت في الحلم ، وفي المنام
والأغاني .. فهل نسي الله
رملك وحجرك ، ولم يسمع أغانيك
وصلواتك؟ خرس الطير
على سعف نخلك المبتور ، وصرت
جرح جسد الأرض العربية
البليغ .. نامت القنابل على رؤسائد
أطفالك مكان اللعب
وسن أطفالك خناجرهم في المهد ، فائى
الأغاني أغنى لك
يا فلسطين ؟ وأجمل أغاني العالم
أنت!
يدق القلق وأوتار الروح ، فائى
الحكايات أقصر عليك ،
ولم يبق من حكاية مضيئة غيرك
في المهد الغريب ، غادر النوم والأمان
عيون أطفالك ،
ولا سعادة لهم يا فلسطين
حزن موحش في تونس ، ولا فرح في باريس ،
ولا أجمل منك يا فلسطين
مساجد القدس ، ونهر الأردن ، بوكلنا نغنى

ونعرف أغنية واحدة .. أننا سنعود

إليك يا فلسطين!

ترجمة: زينات بيطار

رغم أنك لست غزالا

رغم أنى لست زهرة الخلود ،ولست

أنت زهرة البنفسج،

فسيقطفنا فى يوم ما ، بستانى أبيض

اسمه النهار، بستانى أسود اسمه الليل،

ورغم أنك لست قمحا ،ولست أنا شعيرا ،

فسيحصدنا يوما شفقة ، حصاد

أبيض اسمه النهار ،حصاد أسود اسمه الليل.

رغم أنك لست غزالا ،ولست أنا وعلا ، فلن

يستطيع

كبح شهوة الصيد ، صياد أبيض اسمه

النهار ، وصياد أسود اسمه الليل،

هل يقتفى أثرنا صياد أبيض ، أم يقتلنا صياد أسود؟

ولكن.. ربما أخطأنا الأول ،

واهترت نراع الثانى!!!

ترجمة : أبو بكر يوسف

فمن أنت ؟

فى الهند يقولون إن الثعبان ، كان أول

ما ظهر

من مخلوقات الله!

لا ! إن الله أول ما صنع ، صنع النصر المحقق

هكذا يقول الجبلى!

أنا لست مع الهنود ، ولا مع الجبلى
أنا أعتقد

أن البشر هم أول من ظهر ، ولكن
البعض

ارتفع وحلق مع النسور ، والبعض الآخر
هبط وزحف مع الثعابين!!

ترجمة : طلعت الشايب

اللغة الأم

كل شئ فى الحلم غريب وغير معقول
واليوم فى نومي ترائى لى الموت، فى يوم
قائظ فى وادى داغستان، كنت أرقد على
الأرض بلا حراك كئن رصاصا على صدرى،
النهر يجرى ، يسرع مزيدا، أنا منسى لا
يحتاج إلى أحد
تمددت على التراب الحبيب ، قبل أن
أصبح أنا ترابا .
أحتضر ، لكن أحدا لن يعرف ، وإن
يحضر إلى ،

النسور وحدها فى الذرى تتصايح
والأيل ينث فى مكان ما بعيد
لا أم لا صديق لا حبيب،
حتى ولا نادبة هناك تبكى على قبرى
أنا من مات فى شرخ الشباب
هكذا كنت أرقد وأحتضر عاجزا
وفجأة .. سمعت على مقربة منى
رجلين يسيران ويتكلمان
بلغتى الأقارية الأم

فى يوم قانظ وفى وادى داغستان كنت أحتضر،
 وكان الرجلان يتكلمان عن دهاء حسن
 وعن أحابيل على،
 اسمعت وقع لغتى الأم غائما فانتعشت
 وأدركت وقتها أن من يشفينى ليس الطبيب
 ولا الحكيم .. بل لغتى الأم!
 قد تشفى بعضهم لغة أخرى
 لكنى لا أستطيع أن أغنى بها،
 وإذا كانت لغتى تضمحل غدا
 فأتا مستعد أن أموت اليوم!
 أنا أخشى يوما عليها،
 ليقولوا إن لغتى فقيرة
 وإنها لا تسمع من منبر الأمم المتحدة
 لكنها عظيمة بالنسبة لى وعزيرة!
 حين يبلغ ابنى محمود مرحلة الفهم
 فهل سيقرا شعري متوجاً
 وهل أكون من آخر الكتاب الذين يكتبون ويفنون بالأفارية؟
 أنا أحب الحياة .. أحب كوكبنا كله،
 وأحب فيه كل زاوية .. حتى الصغيرة
 وأحب أكثر منها كل بلاد السوفيت
 لها غنيت بالأفارية كما استطعت
 يعز على هذا البلد المزدهر والحر كله
 من البلطيق حتى ساخلين
 فى سبيله أنا مستعد أن أموت أينما كان
 لكن .. فليقبرونى هنا فى هذه الأرض!
 حتى يذكر الأفاريون أحيانا
 عند قبرى قرب «الأول» بكلمة أفارية
 اسم ابن بلدهم رسول
 نجل حمزة من تساد!

ترجمة يوسف حلاق

خطب الدكتاتور الموزونة

شعر: محمود درويش

تقديم: طلعت الشايب

أى صدر تعمل ما يتحمل صدرى من الأوسمة؟

الدكتاتورية شكل من أشكال الحكم تتركز فيه السلطة في يد فرد أو جماعة صغيرة ، نون أى قيود أو ضوابط دستورية والكلمة مشتقة من مصطلح الدكتاتور Dictator ، وهو اللقب اللاتينى للحاكم المؤقت الذى كانت تعينه الجمهورية الرومانية بتركية من مجلس الشيوخ وتمنحه سلطات مطلقة لفترة محدودة ، يخرج فيها بالبلاد من أزمة مدنية أو عسكرية . وقد جرت العادة أن يكون الدكتاتور عسكريا ، وه أقرب مثل عندنا الآن بقرينا من وظيفة الدكتاتور الرومانى ، هى وظيفة «الحاكم العسكرى العام» الذى يعين فى أوقات عصبية تمر بها البلاد ، لاتخاذ إجراءات سريعة وحاسمة ولفترة محدودة فقط (١) أما الدكتاتور الذى نعرفه الآن فامرء مختلف حيث هو أقرب إلى الطاغية القديم..

والدكتاتور الحديث يلجأ عادة إلى العنف أو الخداع للاستيلاء على السلطة السياسية ، كما يحتفظ بها من خلال الإرهاب والقمع واستخدام كافة أساليب الدعاية لكسب التأييد الجماهيرى . ومع انهيار واختفاء أنظمة الحكم الوراثية فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، أصبحت الدكتاتورية أحد نظامين للحكم فى دول العالم ، أما النظام الآخر فهو الديمقراطية الدستورية . وقد أخذ الحكم الدكتاتورى أشكالا عدة ، وفى القرن التاسع عشر قامت فى أمريكا اللاتينية دكتاتوريات كثيرة بعد انهيار السلطة المركزية فى الدول الحديثة التى تحررت من الحكم الأسبانى . وكان الزعيم (الكوديلو) عادة يخرج من بين صفوف العسكريين الذين يحاولون السيطرة على إقليم أو منطقة قبل الانقضاض على حكومة وطنية ضعيفة ، وهناك نموذجان لذلك هما «أنطونيو لوبيز دى سانتا أنا» فى المكسيك ودخول مانويل دى روزاس» فى الأرجنتين . أما دكتاتور القرن العشرين فهو مختلف حيث نجده قائدا عسكريا على مستوى الدولة (مثل بيرون فى الأرجنتين) وغالبا ما يكون مرتبطا بطبقة اجتماعية معينة ويحاول الحفاظ على مصالح النخبة الثرية أو تحقيق إصلاحات اجتماعية من خلال تحولات يسارية .

أما فى الدول الحديثة فى أفريقيا وآسيا فقد ظهرت الدكتاتوريات بعد الحرب العالمية الثانية على أطلال الترتيبات الدستورية الموروثة عن القوى الاستعمارية الغربية والتى فشلت فى حل مشكلات الجماهير .

فى بعض هذه البلاد كان الرؤساء المنتخبون يستحوذون على السلطة من خلال فرض نظام الحزب الواحد وقمع المعارضة ، وفى بعضها الآخر كان العسكر يستولون على الحكم - ولا يتخلون عنه - ليقوموا بدكتاتورياتهم العسكرية .

أما الديكتاتوريات الشيوعية والفاشية التى قامت فى النصف الأول من القرن العشرين فى بلاد متقدمة تكنولوجيا ، فكانت مختلفة عن الأنظمة السلطوية فى دول أمريكا اللاتينية وأنظمة ما بعد

الاستقلال فى أفريقيا وآسيا .

وفى كل من ألمانيا النازية تحت «هتلر» والاتحاد السوفيتى تحت «ستالين» نجت الدولة نفسها مع حزب واحد ،الحزب مع زعامة كاريزمية(٢) وأيديولوجية رسمية تمنح النظام شرعية وتحافظ عليه واليات الرعب والدعاية لقمع المعارضين والمنشقين مع استخدام العلم، الحديث والتكنولوجيا للتحكم فى الاقتصاد وسلوك الأفراد . أما فى أوقات الأزمات المحلية والخارجية فإن معظم الحكومات ، بما فى ذلك الدستورية منها، منحت سلطات استثنائية للحاكم المنتخب وهىأت له فرصة للتخلّى عن الديمقراطية والحكم بأسلوب دكتاتورى . والمعروف أن قوانين الطوارئ والقوانين الاستثنائية كانت بداية طريق الدكتاتورية فى ألمانيا «هتلر» وإيطاليا «موسوليني» وتركيا «أتاتورك» وبريتقال «سالازار».

أما أكثر شعوب العالم دراية بالدكتاتورية والدكتاتور فهى شعوب العالم الثالث وفى العالم العربى على نحو خاص تبدو الصورة أكثر قتامة وؤسا، أنظر حولك من الماء إلى الماء حيث الحاكم إما وريث عن أب أو عسكري استبدل ثيابا بثياب... مع تنوعات أكثر يؤسا على الحالتين فين ورثة العروش والأنظمة من تخلص من أبيه أو أخيه بطريقة ما ، وبين العسكر من تخلص من رفاق الانقلاب- أو الثورة ! اما المنافسين أو المعارضين بطريقة ما . وليس غريبا أن تسمع فى كل دولة عربية اصطلاح «ثورة التصحيح».

الدكتاتور هو كل شئ ، فهو الحاكم والقائد والزعيم والأب والمهيب وطويل العمر والمخدى ، هو البطل والمجاهد والمناضل ، بحكمته تسيير الأمور ، ويتوجيهاته تتحقق المعجزات وبعبقريته تنتصر الجيوش وبإلهامه تزدهر الآداب والفنون ، ولذلك يصبح من حقه أن يختار شعبا يليق به ، يختاره فردا فردا .

لأنه الأدرى بمن يصلح حارسا لكلبه أو سائسا لحصانه أو حاملا لاتجاه النشيد أو مستشارا لسك النقود أو حاجبا للفضائح أو نائباً للمدائح.

الحاكم الدكتاتور يمنع الجميع حق خدمته ورفع صورته ، وشكره لأنه رضى بهم أمة له . فى هذه الخطب الموزونة يسير محمود درويش أغوار الدكتاتور المنتخب العادل المتسامح الحر ، الذى تسيير جماهيره المنتخبة العادلة الحرة إلى خدمته أمة . الدكتاتور الذى يتحمل أعباء الحكم الثقيل ، أى صدر تحمل ما يتحمل صدرى من الأوسمة؟.

الحاكم الذى يعرف كلمة السلام بعد أن خبر الحروب التى لم تجر على الشعوب سوى الخراب ، فهى ليست سوى غرائز أولى وخلاف على الأرض، والأرض ليست سوى رمال..

الدكتاتور هو عودة الوعى لتصحيح التاريخ وتلقين أعداء الوطن «السلم درسا وحلا» بقطع كل الزرائع عليهم حتى لا يفروا منه ، الحاكم العالم المعلم الذى يحول الجيوش إلى شرطة للدفاع عن



الأمن ضد الرعاع والجياح وانتفاضات «الحرامية» ويرى بثاقب عقله أن السلام مع الآخرين هناك ليس سلاماً مع الراضين هنا، ولا مع الفاضبين، ولكي يحيا السلام هنا «أن تقوم لأى فئات يسارية قائمة»، فلا بد من حجب ضوء النهار عن المعارضين الناقمين الحاقدين.
وهفى السجن متسع للجميع..

من الشيخ حتى الرضيع.. ومن رجل الدين حتى النقابى والخادمة..
والدكتاتور هو الأمير الذى لا هدف له سوى استقرار الأمور على ما استقرت عليه، «أمير على عرشه وشعب على نعشه» وحدة وطنية- أمير يحب رعيته إن هى أخلصت وأرخصت دمه فى سبيله، ولكن حقوقه عليهم أكبر من واجبه، فهو الذى أطعم وكسا وهدى «والذى أخرج المرمى .. وسأوى بين الجمع وانطلق بهم قائدا لمسيرة «الروح والدم وتكملة المشوار» نحو مجتمع الرخاء ..
الدكتاتور زعيم خالد، يصدر أوامره - حتى الموت، ليتركه وشعبه الولد معا للأبد.. من لفته تأخذ الرعية ملامح أحلامها مرة كل عام، وتعرف الحقيقة فى لفظتين: حلال .. حرام..
فيأمرهم بالآ يقربوا الشعر «فالشعر يهدم صرح الثوابت فى وطن من وثام»..

لنقرأ معا خطب الدكتاتور الموزونة التى كتبها له محمود درويش ونحن ماضون فى طريق مهندنا بأيدينا ورصفنا بجماجمنا، فإذا جفت مياه البحيرات فلننصر لفظة من خطاب السحاب، وإن مات عشب الحقول يكفينا مقطع من خطاب الطعام.

ط. ش

(٢) أفكار موزونة

* أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه.

«ال خليفة المنصور»

* إننا لم نخلق التاج إلا من الله ، فسلطة سن القوانين هي من اختصاصنا وحنا بلا تبعة أو شركة.

«لويس الخامس عشر»

* أمراء هذا العالم آلهة والناس العاديون الشيطان ، وعن طريقهم يفعل الرب أحيانا ما يفعله في أحيان أخرى مباشرة عن طريق الشيطان . أو أنه يجعل الثورة عقوبة لخطايا الناس أنى لأفضل أن إحتمل أميرا يرتكب الخطأ ، على شعب يفعل الصواب.

«مارتن لوثر»

* إننا نحن الملوك ،نجلس على عرش الله على الأرض.

«جيمس الأول»

—ملك إنجلترا—

* سوف يدرك الشعب بحق ، مدى الحماقة التي ارتكبها حين أنجب مثل هذا المخلوق ، ورعاه ورياه حتى أصبح أقوى من أن يستطيع أن يطرده.

جمهورية أفلاطون

* ليس من السهل على الحاكم المطلق أن يتقاعد.

«أندروز»

—سلطان الأغريق—

* ما من مستبد سياسى إلا ويتخذ له صفة

قدسية يشارك بها الله أو تعطيه مقاما ذا علاقة بالله.

«الكواكبي»

* موقف الطاغية هو موقف ذلك الذى يقطع الشجرة لكى يقطع ثمرة.

«مونتسكيو»

* يبدا الطغيان عندما تنتهى سلطة القانون، أى عند انتهاك القانون وإلحاق الأذى بالآخرين.

«جون لوك»

* لقد انتهيت أنا وشعبي إلى اتفاق يرضينا جميعا ..

يقولون ما يشتهون .. وأفعل ما أشتهى..

«فريدريك الأكبر»

* كل سلطة مفسدة ، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة...

«لورد أكتون»

والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا ، إلا ضريت عنقه .

«عبد الملك بن مروان»

* والله لأمر أحدا أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضريت عنقه.

«الحجاج بن يوسف»

* جلوا صار ما وتلوا باطلا ، وقالوا صدقنا فقلنا : نعم!

«المعري»

(٣) الحكمتاتور جوانا .. بيننا ..

فيينا!

«هل تعرف ماذا يشغلنى فى هذه الأيام؟ إنه

الدكتاتور ،نقيض ملاكك .. الديكتاتور.

إنى مشغول بالدكتاتور إلى درجة عينت معها نفسى كاتباً لخطب الدكتاتور.

ما أصعب هذه المهمة، وما أشد ما تثيره من متعة حين نعى أنها لعبة أدبية .سأواصل كتابة خطب الدكتاتور ، أليس هذا مسلماً؟.

«الدكتاتور فيما حد التماهى ، شخصاً وفكرة، الدكتاتور فى تسييح حياتنا ، بأسلوب أسيوى كما يقول الاستشراق ، سواء كان الدكتاتور «معبود الجماهير» أم «عوا الجماهير» ولكنه ما زال مغلفاً بالتجريد ، لا أحد يعرفه ، لا أحد يراه، مخبئاً بأغلفة سميكة من الكوادر والمصالح والأقنعة لأنه مشغول بتأمين مستقبل مزدهر للأمة تارة، لأنه مشغول بتفكيك الأمة وإعادتها إلى مصادر تكونها الأولى تارة أخرى، ولأنه دائماً مترجح بين المصطلحات الأيديولوجية المرنة وتوزعنا التلقائى والقسرى على خنادق أوهامنا.

الدكتاتور حولنا .. بيننا .. قميناً ..

«حين باشرت كتابة خطاب الدكتاتور الأول خطاب الجلوس» كنت أنوى كتابته نشرًا ، ولكن امتلائى بالسخرية جرنى إلى الإيقاع ، ورغبى

فى الضحك جرتنى إلى القافية . لماذا تثير القافية الضحك إلى هذا الحد؟ لأنها تسلط الحواس على التتوه ، ولأن الدكتاتور نتوه فى الطبيعة ؟ لا أعرف تماماً .

«من هو دكتاتورى؟»

إنه مجمل خصائص الحكم العربى الفردى الاستبدادى المجافى للطبيعة والمتجسد فى حكام يتداخلون فى بعضهم تداخل الصفات العامة المشتركة فى فرد ، نون أن أحد ملامحه الشخصية المميزة ، لأن ذلك يعرضنى إلى خطر استثناء آخرين ، وقد يعرضنى أيضاً إلى مخاطر الهجاء.

«لنضحك قليلاً مع الديكتاتور وعلى الدكتاتور ، ومهما كان الاختلاف الأيديولوجى بين أنواع الدكتاتورية صحيحاً ، فإن الدكتاتور -فى علاقته بالناس وفى عزله -هو الدكتاتور ، والدكتاتور يثير الرعب والسخرية معاً . وساعات ما بعد الظهر وهى وقت السخرية سأودعك الآن لأكتب إحدى خطب الدكتاتور ، فقد أطلقت عليه قافيتى ، كما أطلق هو على نباح كلابه وكتابه».

من رسالة من «محمود درويش» إلى

سميح القاسم

بتاريخ ٨٦/٩/٨ باريس

خطاب الجلوس!

سأختار شعبي،

سأختار أفراد شعبي ،

سأختاركم واحدا واحدا من سلالة

أُمى ومن مذهبي،

سأختاركم كي تكونوا جديريين بى،

إنّ أوقفوا الآن تصفيقكم كي تكونوا

جديريين بى ويحبى ،

سأختار شعبي سياجا لملكى ورصيفا

لدى،

قفوا أيها الناس ، يا أيها المنتقون

كما تنتقى اللؤلؤة.

لكل فتى امرأة

والزوج طفلان : فى البدء يأتى الصبى

وتأتى الصبية من بعد . لا ثالث ،

وليعم الغرام على ستنى

فأحبوا النساء ، ولا تضربوهن إن مسهن

الحرام

سلام عليكم .. سلام .. سلام ..

سأختار من يستحق المرور أمام

مدائح فكرى

ومن يستحق المرور أمام حداثق قصرى ..

قفوا أيها الناس حولى خاتم.

لنصلح سيرة حواء .. نصلح أحفاد آدم.

سأختار شعبا محبا وصلبا وعذبا ..

سأختار أصلحك للبقاء .

وأنجحكم فى الدعاء لطول جلوسى فتيا

لما فات من دول مزقتها الزوابع!

لقد ضقت نرعا بأمية الناس،

يا شعب.. شا شعبي « الحر فاحرس

هوائى

من الفقراء ..

وسرب الذباب وقيم الفيار،

وتظف دروب المداخن من كل جاف

وعار وجائع.

فتبا لهذا الفساد وتبا لبؤس العباد الكسالى

سأختار شعبي من الأثكياء .. الوهابين

والناجين

وتبا لرحل الشوارع ..

سأختاركم وفق دستور قلبى:

فمن كان منكم بلا علة .. فهو حارس كلبى،

ومن كان منكم طيبيا .. أعينه

سائسا لحصانى الجديد.

ومن كان منكم أدبيا .. أعينه حاملا لاتجاه

التشيد

ومن كان منكم حكيما .. أعينه مستشارا

لصك النقود،

ومن كان منكم وسيما .. أعينه حاجبا

للفضائح

ومن كان منكم قويا .. أعينه نائبا للمدائح

ومن كان منكم بلا ذهب أو مـواهب

فليتصرف

ومن كان منكم بلا ضجر ولالىء

فليتصرف

فلا وقت عندى للقمح والكـدح

ولاعترف

أمامك يا أيها الشعب .. يا شعبي

المنتقى بيدي

بأني أنا الحاكم العادل

كرهت جميع الطغاة..

لأن الطغاة يسوسون شعبا من الجهلة

ومن أجل أن ينهض العدل فوق الذكاء

المعاصر

لا بد من برلمان جديد ومن أسئلة

من الشعب يا شعب .. هل كل كائن يسمى

مواطن؟

ترى هل يليق بمن هو مثلى قيادة لص

وأعمى وجاهل؟

وهل تقبلون لسيديكم أن يساوى ما بينكم

أيها النبلاء

وبين الرعا .. الليتامى .. الأراذل؟

وهل يتساوى هنا الفيلسوف مع المتسول؟

هل يذهبان إلى الاقتراع معا ..

كى يقود العوام سياسة هذا الوطن؟

وهل أغلبيتكم أيها الشعب ، هم عدد لا لزوم

له.

إن أردتم نظاما جديدا لمنع الفتن؟

إنن

سأختار أفراد شعبي، سأختاركم واحدا

واحدا .

كى تكونوا جديرين بى .. وأكون جديرا بكم ..

سأمنحكم حق أن تخدمونى

وأن ترفعوا صورى فوق جنراتكم

وأن تشكرونى لأنى رضيت بكم أمة لى ..

سأمنحكم حق أن تعلموا ملاح وجهى فى

كل عام جديد ..

سأمنحكم كل حق تريدون: حق البكاء على

موت قط شريد

وحق الكلام عن السيرة النبوية فى كل عيد ..

وحق الذهاب إلى البصر فى كل يوم

تريدون ..

لكم أن تناموا كما تشتهون ..

على أى جنب تريدون .. ناموا ،

لكم حق أن تعلموا برضاى وعطفى .. فلا

تفزعوا من أحد

سأمنكم حقكم فى الهواء .. وحقكم فى

الضياء

وحقكم فى الغناء ..

سأبنى لكم جنة فوق أرضى

كلوا ما تشاؤون من طبيباتى

ولا تسمعوا ما يقول ملوك الطوائف عنى،

وإنى أحذركم من عذاب الحسد!

ولا تدخلوا فى السياسة إلا إذا صدر الأمر

عنى ..

لأن السياسة سجنى ..

هنا الحكم شورى .. هنا الحكم شورى

أنا حاكم منتخب ،

وأنتم جماهير منتخبة

ومن واجب الشعب أن يلحس العتبة

وأن يتحرى الحقيقة ممن دعاه إليه

أصطفاه .. حماه من الأغلبية .. والأغلبية

متعبة متعبة،

ومن واجب الشعب أن يتجرأ من كل فرد

نهب

وغازل زوجة صاحبه أو زنا ، أو غضب،

ومن واجب الشعب أن يرفع الأمر
لحاكم المنتخب ،

ومن واجبي أن أوافق من واجبي
أن أعارض

فالأمر أمرى والعدل عدلى ،والحق ملك يدى،
فإما إقالته من رضاي
وإما إحالته للسراى
فحق الغضب

..حق الرضا، لى أنا الحاكم المنتخب!

وحق الهوى والطرب

لكم كلكم ..فأنتم جماهير منتخبة!

أنا الحاكم الحر والعدل

وأنتم جماهيري الحرة العادلة..

سننشئ منذ انتخابى دولتنا الفاضلة

ولا سجن بعد انتخابى ،ولا شعر عن تعب

القائلة

سألغى نظام العقوبات من دولتى

من أراد التآلف خارج شعبى فليتآلف

من شاء أن يتمرد خارج شعبى فليتمرد..

سنأذن للغاضبين بأن يستقيلوا من الشعب

..فالشعب حر..

ومن ليس منى ومن دولتى فهو حر..

سأختار أفراد شعبى

سأختاركم واحدا واحدا مرة كل خمس

سنتين..

وأنتم تزكوننى مرة كل عشرين

عاما إذا لزم الأمر

أو مرة للأبد

وإن لم تريدوا بقاءى ، لاسمح الله

إن شئتم أن يزول البلد

أعدت إلى الشعب ماهرب أو دب من سابق

الشعب

كى أملك الأكثرية ..والأكثرية فوضى..

أترضى أخى الشعب !

ترضى بهذا المصير الحقيير أترضى؟

معاذك!!

قد اخترت شعبى واختارنى الآن شعبى..

فسيروا إلى خدمتى آمين..

أذنت لكم أن تخروا على قدمى ساجدين..

فطوبى لكم.. ثم طوبى لنا أجمعين.

خطاب الضجر

ضجرا!

ضجرا!

ألا تشعرون ببعض الضجرا!

فمن سنة لم أجد خيرا واحدا عن بلادى

أما من خير؟

نفير تقويمنا السنوى ..وننقش أقوالنا فى

الرخام

وندفنها فى الصحارى ليطلع منها المطر

على ما أشاء من الكائنات

وأحمل عاصمتى فوق سيارة الجيب

كى أتحاشى المطر.. وما من خير؟

وأكتب فى العام عشرين سطرا بلا خطأ

نحوى،

وتعرف يا شعب أنى رسول القدر

والغى الزراعة ، ألغى الحكاية ، ألغى

الصحافة

ألغى الخير .. وما من خير؟.

وامنع عنكم عصير الشعير

وأختصر الناس .. أسجن ثلثا ..

وأطرد ثلثا ..

وأبقى من الثلث حاشية للسمر ..

وما بقى من خير؟!

وأطبع وجهي .. من أهلكم .. فوق وجه القمر

لكى تحلموا مثما أتمنى لكم .. تصبحون

على

وما من خير؟!

لأن الشعير طعام حمير .. وأنتم أرانب

قلبي ..

كلوا ما تشاؤون من بصل أخضر أو جزر ..

وما من خير؟

وأمرض أو أتمارض، أخلو إلى الذات

أو أتفاوض سرا مع المعجزات

وأحرم نفسي من الكاميرا والصور

وما من خير؟

أوجد ما لا يوجد ، أحرس إيوان كسرى ..

وأدعو إلى وحدة المسلمين على سيف قيصر

أرشو ملوك الطوائف ، أمحو شرائع سומר

أمنع أفريقيا صوتها .. وأعيد النظر ..

بتاريخ فكر البشر

وما من خير؟

وأخلق كل المسارح .. لا مسرح فى البلد

ولاسينما فى البلد

ولا مرقص فى البلد

ولا بلد فى البلد

ولا نغم أو وتر

وما من خير؟

ضجرا!

ضجرا!

وحيد أنا أيها الشعب ، شعبي العزيز

ولكن قلبي عليك وقلبك من فلز أو حجر

أضجى لأجلك ، يا شعب ، إنى سجينك منذ

الصفير

ومنذ صباى المبكر أخطب فيكم

وأحكمكم واحدا واحدا

وفى كل يوم أعد لكم مؤتمر

فمن منكم يستطيع الجلوس ثلاثين

عاما على مقعد واحد

دون أن يتخشب ؟ من منكم يستطيع

اليسهر ..

ثلاثين عاما

ليمنع شعبا من الذكريات وحب السفر ..؟

وحيد أنا أيها الشعب .. لا أستطيع الذهاب

إلى البحر

والمشى فوق الرصيف

ولا النوم تحت الشجر

ثقل هو الحكم .. لا تحسدوا حاكما ..

أى صدر تحمل ما يتحمل صدرى من

الأوسمة؟.

وأى فتى منكم يستطيع الوقوف

ثلاثين عاما على حافة الجمجمة

وأى يد دفعت مثما دفعت يدينا من خطر؟.

ضجرا!

ضجرا!

يخيل لى أيها الشعب ، يا صاحبي
أن حقي على الله أكبر من واجبي..
ولكننى لا أريد معارك أكبر منكم ، كفافا
الضجر،

جرادا يحط على الوقت ، يمتص خضرة
أيامنا ..

ويفتح وقت الرمال رمالا من الوقت
نمشى على الرمل .. لا أثر .. لا أثر
ومن واجبي أيها الشعب أن أتسلى
قليلا ، فمن يعيد إلى ساحة الموت
أمجادها؟

اخطئوا .. اخطئوا .. واسرقوا وافسقوا..
لاقطع كفا وأجدع أنفا وأنخل سيفا بنهد
نهد..

وأجعل هذا الهواء إبر
وأنسى همومي في الحكم ، أنسى التشابه
بينى

وبين الملوك القدامى وأنسى العبر..

أما من فتى غاضب في البلدا

أما من أحد؟

تقاعس عن خدمتي أو بكى أو جحد!

أما من أحد .. شكأ أو كفر؟

أما من أحد شكأ أو كفر؟

أما من خبر

ضجرا!

ضجرا!

وحيد أنا أيها الشعب ، أعمل وحدي

ووحدي أسن القوانين

وحدي أحول مجرى النهر..

أفكر وحدي أقرر وحدي.. فما من وزارة
تساعدنى في إدارة أسراركم
ليس لى نائب لشئون الكناية والاستعارة
ولا مستشار لفلك طلاس أحلامكم عندما
تطمون..

ولا نائب لاختيار ثيابى وتصفيف شعرى
ورفع الصور

ولا مستشار لرصد الديون

فوالله .. والله .. والله لا علم لى

بمالى عليكم ، بمالى عليكم حلال حلال..

كلوا ما أعد لكم من ثمر

وناموا كما أتمنى لكم أن تناموا وبودين .

بعد ضلة العشاء..

وقوموا من النوم حين ينادى المنادى .

بائى رأيت السحر..

وسيروا إلى يومكم آمنين .. ووفق نظام

كتابى

ولا تسالوا عن خطابى

سأمنكم عطلة للنظر

بما يسر الله لى من خطاب الضجر

ضجرا!

ضجرا!

سلام على ، سلام عليكم

سلام على أمة لا تمل الضجرا!

خطاب السلام!

..وأما الذين قضوا في سبيل النفاع عن

الذكريات وعن وهمهم . فلهم أجرهم أو

خطيتهم ، عند ربهم.

حرام حلال

حلال حرام

.. ويا أيها الشعب يا سيد المعجزات ،
ويا بنى الهرمين.

أريدك أن ترتفع

إلى مستوى العصر .. صمبًا وصمبًا

لنسمع صوت خطانا على الأرض..

ماذا دفعنا لكي نندفع؟

ثلاث حروب سارّض أقل

وتأميم أفكار شعب يحب الحياة- ورقص أقل

فهل نستطيع المضي أماما ؟ وهذا الأمام

حطام..

أليس السلام هو الحل؟

عاش السلام

ويعد التأمل في وضعنا الداخلي

ويعد الصلاة على خاتم الأنبياء «يعد السلام

على،

وجدت المدافع أكثر من عدد الجند في دولتي.

وجدت الجنود يزيّدون عما تبقى لنا من

حبوب

لهذا، سأطلب من شعبي الحر أن يتكيف

فورا،

وأن يتصرف خير التصرف مع خطتي:

سأجنع السلم إن جنحوا للحروب

سأجنع للغرب إن جنحوا للغروب

سأجنع للسلم مهما بنوا من حصون

ومهما أقاموا على أرضنا ..

ليعيش السلام..

حروب.. حروب.. حروب.. أما من قيادة

لتوقف هذا العبث؟!

وتوقف إنتاج مستقبل غامض من جثث؟.

أفى الغاب نحن لنقتل جيراننا الباحثين على

أرضنا عن وسادة؟.

وما الحرب يا شعب إلا غرائز أولى، خلاف

صغير

على الأرض بما الأرض إلا رمال على الرمل

هل دمكم أيها الناس أرخص من حفنة

الرمل؟.

عم تفتش في الحرب يا شعبي الحر،

هل عن سيادة؟.

أعني العدو المصاب بداء التوسع

والخوف؟.

فليتوسع قليلا.. لماذا نخاف .. لماذا نخاف؟.

فهل تستطيع الجراءة أن تاكل الفيل أو

تشرب النيل؟.

. في الأرض متسع للجميع . وفي الأرض

متسع للسعادة.

ونحن هنا ثابتون..

هنا فوق خمسة آلاف عام من المجد والحب.

مهما يمر الظلام

وعاش السلام..

ورثك يا شعب .. يا شعبي الحر عن حاكم

ضلك

وحطم فيك البراعة والورد .. ما أنيلك!

وجرك للحرب من أجل بدو أباحوا نساءك

مذ دخلوا منزلك.

ولم يدفعوا الأجر .. لاشئ في السوق،

لاشى من حلك

لبنو الصحاري، وحرّم لحم الخراف عليك،
ومن بدلك

وقادك نحو سراب العروية حتى توحد من
شتتوا أمك؟

ورثك يا شعب ، يا شعبي الحر، عن حاكم
قتلك..

وأن أوان الحقيقة ، فليرجع الوعي للوعي ..
لن أمهلك

سوى ساعتين ، لتتسى الزمان الذي أهملك
والا ، سألن إضراب زوجاتكم في
المضاجع:

إما الصيام عن النوم ما بين ألفاظهن
وإما السلام

إسا عودة الوعي ، لا وعى حولى ولا وعى
قبلى ولا وعى بعدى

عرفت التصدى
عرفت التحدى

وجريت أن أستقل عن الشرق والغرب ،
لكننى لم أجد

غير هذا التردى
ففى عالم ينقسم:

إلى اثنين : شرق وغرب فقط.
يكون الحياء شطط

فمن نحن ؟ هل نحن شرق .. ولا رزق فى
الشرق؟.

فى الشرق حزب النظام الحديدى ، فى
الشرق تنمية للنمط

ولاشى فى السوق غير الخطط

وهل نحن غرب؟ وفى الغرب أعداؤنا
ينتشرون اللفظ

عن الحاكم العربى وفى الغرب رامبو
وشامبو

وكوكا وجينز وكنز وديسكو وسيرك.. وحرية
للقطط،

فمن نحن ؟ هل نحن حقا غلط
لنقضى ثلاثين عاما من الحرب والحل فى

الغرب
هل نحن حقا غلط؟

ليهرب منا الطعام
أما كنت تترك يا شعب

أن الطعام سلام؟
ويا أيها الشعب ، أن لنا أن نصصح تاريخنا

كى نضاهى الحضارات قولا وفعل ..
وأن لنا أن تلقن أعدائنا السلم، درسا وحلا،

سنقطع عنهم جميع النرائع ،
كى لا يفروا من السلم .. ماذا يريدون؟

ماذا يريدون ؟ كل فلسطين؟
أهلا وسهلا..

يريدون أطراف سيئاء؟.. أهلا وسهلا..
يريدون رأس أبى الهول .. هذا المراوغ فى

الوقت؟ .. أهلا وسهلا..
يريدون مرتفعات الهجوم على الشام ؟ ..

أهلا وسهلا.
يريدون أنهار لبنان؟ أهلا وسهلا..

يريدون تعديل قرآن عثمان ؟ أهلا وسهلا..
يريدون بابل كى يتخذوا رأس «نابو» إلى

السبى؟.

..أهلا وسهلا..

سأعطيهو ما يشاؤون منا وما لا يشاؤون كى

أحمى السلم

والسلم أقوى من الأرض .. أقوى وأعلى..

فهم بخلاء ..لثام

ونحن كرام .كرام

وعاش السلام

.. من أجل هذا السلام أعيد الجنود

من التكنات إلى العاصمة

وأجعلهم شرطة للدفاع عن الأمن ضد

الزراع

و ضد الجياح

و ضد اتساع المعارضة الأثمة

فليس السلام مع الآخرين هناك

سلاما مع الغاضبين هنا..

هنا لن تقوم لأى فئات يسارية قائمة

سأقرم لحم اليسار ، وأحجب ضوء النهار.

عن الزمرة الناقمة

وفى السجن متسع للجميع

من الشيخ حتى الرضيع

ومن رجل الدين حتى النقابى والخادمة

فليس السلام مع الآخرين هناك

سلاما مع الراقضين هنا..

هنا طاعة وانسجام

ليحيا السلام

وأما الذين قضاوا فى سبيل الدفاع

عن الذكريات وعن وهما . فلهم أجرهم أو

خطينتهم عند ربهو..

وما فات فات

ومن مات مات

سأقضى على الذكريات

سألقى احتفالات يوم الشهيد لننسى

الضغينة

سأحرق مقبرة الشهداء الحزينة

وأرفع منها العظام لتدفن فى غير هذا

المكان

فرادى فرادى،

فلا حق فى نواتى للتجمع ، حيا وميتا

لنلا يثير الفساد

ولا حق للموت أن يتمادى

ويقضم نسياننا الحر منا

سأكسر كل المدافع حتى يفرخ فيها الحمام

سأكسر ذاكرة الحرب..

ناموا كما لم تناموا

غدا تصبحون على الخبز والخير ناموا

غدا تصبحون على جنتى

فاستريحوا وناموا ..

يعيش السلام

يعيش النظام

شلوم ..سلام..!

خطاب الامير

إذا كانت الحرب كراً وفرأ

فلن السلام مكر مفر

أحبوا الأمير بوخافوا الأمير

ولا تقتطوا من دماء الأمير

فليست لنا غاية فى المسير

ولاهداف ، غير أن تستقر الأمور
على ما استقرت عليه : أمير على عرشه
وشعب على نعشه
أنا خنجر من حرير
أحب الرعية إن أخلصت
وإن أرخصت دما في سبيل الأمير
فعمر الرعية في الحب عمر طويل
وعمر الرعية إن كرهتني قصير
أنا صانع الجيش من كل جيش بلا أسلحة
جمعت الجنود كما تجمع المسبحة
لابنى مجتمعاً للتحدى ومجتمعاً للتصدى
ومجتمعاً يدين المذبحة
أنا السيف والورد والمصلحة
وليس على ما أقول شهود
وليس على ما أريد قيود...
وليس عقيدتنا صنما جامداً فاحذروا
نفاق الصديق .. وحاجته للتعمد خلف
الحدود
وليس العدو عدواً إلى آخر الحرب..
قد نتحالف في ذات يوم لنحصى أنفسنا من
صديق لنود
ومن إخوة لا يطيعوننا، حين نذبهم
يصرخون
ويرموننا بالظنون ،ولا يفهمون
سياستنا أو كياستنا حين نحرق أطفالهم
بالصواريخ
كى لا يمروا
فإن كانت الحرب كراً وفرأ
فإن السلام مكر مقر

حقوق الأمير على الناس أكبر من واجبي
ألم أجد الناس جوعى .. فقاطعت
وعارية فكسوت
وثائفة فهبيت!
وساويت بين المثقف والمترقق
(وأما بنعمة ما أنعم الحكم- حكمى-
فحدث)
ألم أبن خمسين سجناً جديداً لأحمى اللغة
من الحشرات ومن كل فكر قلق ؟
ألم أخط الطبقات لألغى نظام التقاليد
والمرجعية والزمن المحترق ؟
فمن يذكر الآن أجداده ؟
ومن يعرف الآن أولاده ؟
ومن يستطيع الرجوع إلى شجر العائلة
ومن يستطيع الجنين إلى زهرة ذابلة
ومن يستطيع التذكر دون الرجوع إلى
حارس القافلة ؟
(وأما بنعمة ما أنعم الحكم- حكمى -عليك
-فحدث)
ألم أجد الماء في غيمكم يفتنق
فحركته فاستجاب وأب إليكم .. ألم أنطلق
بكم نحو أعلى الشعارات كي نلتحق
بمجموعات الرخاء ، فكونوا كما أشتهى أن
تكونوا وسيروا
إلى بلد لا حدود له ، لا رعاة ، ولا شاعر أو
ملك،
فقد تفتنون وقد تتخمون .. وقد أمتلك!
دعوا الأرض بوراً ، لأن الفلاحة عار
القدامى

قطعت الشجر

والقيت بؤس الزراعة

لاستورد الثمر الأجنبي بنصف التكاليف

فالشعب نصفان: جيش وباعة

ولا تعملوا فى المصانع ، فهى ديون على دولة

يتنامى

رويدا رويدا على فائض الحرب من شهداء

ومن جثث فى العراء . ويترولنا بمكم

والصناعة إنتاج ما أنتجت حربنا من يتامى

نوظفكم فى معارك لا تنتهى كى يعيشوا

وكى ينجبوا للإمارة كنز الإمارة.. هاتوا

يتامى..

لتحيا الخزينة عاما وعاما

وإلا .. فمن أين أطعمكم .. والإمارة قفر

وأن الحروب اقتصاد معافى .. وحر

وإن الهزيمة ربح ونصر

وإن كانت الحرب كرا وفرأ

فإن السلام مكر مفر ..

تقولون : ماذا يريد الأمير من الحرب،

ماذا يريد الأمير المحارب؟

أقول : أريد حروبا صغيرة

سأختار شعبا صغيرا حقيرا أحاربه كى

أحارب

وأحصى النظام من الباحثين عن الخبز بين

الزرائب

فحين نخوض الحروب

يحل السلام على الجبهة الداخلية ننسى

الطيب.

وننسى الحبوب

فيا قوم قوموا .. فهذا أوان الأمل

وهذا أوان التهوض من المازق المحتمل

إذا حاصرتنا جيوش الشمال

نحاصر إخوتنا فى الجنوب

وإن حاصرتنا جيوش الجنوب

ندمر إخوتنا فى الشمال

وحين نحاصر بين الشمال وبين الجنوب

أحاصركم فى الوسط

فلا تقنطوا من دهاء الأمير ولا تقعوا فى

الفلط

فخير الأمور الوسط

. وأنتم رهائن عندى ، فخروا وخروا

ولا تسالونى أفى الأمر سر ؟

إذا كانت الحرب كرا وفرأ

فإن السلام مكر مفر!

تقولون ماذا عن السلم ، ماذا يريد الأمير

؟

أقول : أريد من السلم ما لا فضيحة فيه .

أغazole دون أن أشتبهيه

وأبنيه سرا ، وأحرسه بالحروب الصغيرة

كى يتقننى العدو وكى أتقيه ..

وأحصى سلام الفنادق من نزوات الخطاب

ومن طيش هذا الشباب

وأحصى مدافعهم ثم أحصى مدافعنا

-الفوارق سلم

وأحصى مصانعنا ثم أحصى مصانعهم

-الفوارق سلم

وأحصى مواقعنا ثم أحصى مواقعهم

-الفوارق سلم

ولكننى لا أريد السلام

لأن السلام المقام على الفرق بين العدوين

ظلم

وإن السلام المقام على الظلم ظلم

وإن السلام المقام على الاعتراف بغيرى ظلم

فلا بد من نصف سلم

ولا بد من نصف حرب

لأحفظ شعبى

وأحفظ حكمى

أحارب من أستطيع محاربته

بلا رحمة أو حرام

أسالم من لا أريد ولا أستطيع محاربته

بغير معاهدة للسلام

فإن السلام مغامرة كالحروب .. وشر

وإن كانت الحرب كرا وقرأ

فإن السلام مكر مفر

ويا قوم .. يا قوم من آخر الليل يطلع فجر

سلام عليكم إلى مطلع الفجر أيها الصابرون

على الليل حولى

أقسامكم ما وهبت من المعجزات.. وأنرف

ظلى

عليكم ، لكى يتساوى الجميع بظلمى وعدلى..

أعرف يا أيها الناس ، ما تحمل النفس

والنفس أماراة بالتظلى

عن الصعب ، والمجد صعب كما تعلمون ،

قليل التجلى ،

ولكننا سنواصل هذا الطريق إلى منتهاه إلى

منتهاكم ،

فلا تقطنوا من دهائى ومن رحمة النصر

فالنصر صبر على الليل والليل- يا أمتى

-درجات.

قمنه الطويل ومنه القصير . ومنه الذى

يستمر

ثمانين حولاً

سأحكمكم لا مفر

إذا كانت الحرب كرا وقرأ

فإن السلام مكر .. مكر

خطاب القبرا

أعدوا لى القبر قصرا يطل على القصر

من وجهة البحر، قصرا يدل الخلود على

يدفع أحلامكم صلوات .. إلى

فمن كان يعبر هذا البلد

ومن كان يعبر هذا الجسد

فمن حقه أن يصدق أنى حى

وحى هو العرش حتى الأبد

بلغت الثمانين ، لكننى ما عرفت السلم

وقد أتزوج فى كل يوم فتاة

وأبكى عليكم، أرثيكم يوم تهوى البيوت

على ساكنيها ، ويسكنها العنكبوت

فمن واجبى أن أعيش

ومن حقكم أن تموتوا

لأنجب جيلا جديدا يواصل أحلامكم

فما من أحد

رأى ما رأيت .. وما من بلد

رأى ما رأى من فتوة هذا الجسد

فمن كان يعبد هذا البلد

فقد مات ، أما الذى كان يعبدنى

فمن حقه أن يصدقني حين أصبر أخرى إلى الموت

دعني وشعبي الولد
معا للأبد.

وبعد الثمانين تأتني ثمانون أخرى
وأرقد في اليوم عشرين ساعة
لأرتاح مما خلقت وممن خلقت

ومن دولة ستعمر في وتركم : سمعا وطاعة
وتتهار بعدى إذا نعت أكثر مما أنام
ولاشئ بعدى
ولاشئ بعدى
فمن يعبدون؟

وكيف تعيشون بعدى؟

ومن سوف ينقذكم من زمان الجنون
ومن سوف يحرس أبوابكم من جراد المطر
ومن سوف يحمل ريع الشمال إليكم
ويحميكم من ذئب الشجر؟
ومن تعبدون

لن ترفعون تراتيلكم ولن تسجدون ، وتتلون
آيات من؟

أبا لخبز وحده ؟ بالخبز وحده
تعيشون ؟ والروح خاوية من عبادة من
تعبدون؟

ومن أى معنى تشيدون مبنى الخيال لهذا
الزمن

وفي البدء . كنت .. وكونت هذا الوطن
ليعبد خالق ، أو يموت إذا لم يكن لاتباعه
عبادة خالقه ،

فاعلموا واعلموا

بأن الذى قد خلق

أحق بهذه الحياة الطويلة ممن خلق

وإن كان لابد من موتنا فاسبقوني

إلى الموت كي تحلونى وتستقبلونى

خلوا زوجتى معكم وخذوا أسرتى..

وجهاز القلق ..

ولا تتشنوا أى حزب هناك

ولا تأثنوا لقدامى الضحايا بأن يسكنوا
معكم

ولا تسمحوا للتلاميذ أن يسرقوا دمعكم

ولا تقتحموا صحفا للحديث عن الفرق بين

الحياة

على الأرض أو تحتها

ولا تسمحوا للمعارضة المستبدة أن تتسامل

عما رفضت التساؤل فيه

أنا الموت .. والموت لا ريب فيه

أنا من أعد لكم أجلا لا مرد له فاعلموا

أن ما فوق أرضى يجرى بأمرى

فلا تهربوا من مشيئة قصرى

فقد أختنق

وحيدا بغير جماهير تعبدنى

ولقد ألحق

بكم كى أراقبكم . كى أحاسبكم

فمن كان يعبد هذى الحياة

فقد هلك

وأما الذى كان يعبدنى

فمن حقه أن يعيش معى فوق هذا التراب

وتحت التراب .. معى للأبد

أعدوا لى القبر قصرا يطل على البحر

قصرنا مليئا بأجهزة الاتصال الحديثة
قصرنا معدا لمملكة الشعب في الآخرة
سأمر فوراً ، بنقل الوزارات والذكريات
ومجموعة الصور النادرة
سأثقل كل الحصون وكل السجون وكل
الظنون

لأحكمكم في المقر الجديد
بصيفة دستورنا الحاضرة
ولكننى سأعدل بند الوراثة
لاحق للحى أن يرث الميت إلا إذا
أثبت الميت أن الذى كان حيا هو الميت فيه
لئلا يطالبنا النود بالآخرة
أعدوا لى القبر أوسع من هذه الأرض
أجعل من هذه الأرض
أقوى من الأرض
قصرنا يلخص بحرا بنافاذة من سحب
سأجتاز هذا الممر الصغير
على فرس الغيم ، الغيم أبيض يهتز حولى
ويرسم لاسمى تاجا وقوس قباب
سأجتاز هذا الممر الصغير
فلا عوبة للوراء .. ولا رحلة فى السراب
أعدوا لى العرش من ريش مليون نسر
أعدوا العذارى ، أعدوا الشراب
ونادوا ملائكة الشعر: صلى عليه وصلى له
لينسى الهواء وينسى التراب.
سأختار هذا الممر الصغير
لأقضى على الموت فيها .. وفى
وأفتح آخر باب...
فمن كان يعبد منكم هنا الآخرة

فقد ماتت الآخرة
ومن كان يعبدنى ..
فإنى حى .. وحى .. وحى ..
خطاب الفكرة
إذا قدر الحزب للشعب أن يحمل الدرب
فكرة..

وأن يرفع الأرض أعلى من الأرض فكره
وأن يفصل الوعى عن واقع الوعى من أجل
فكرة
.. فعنئذ يصبح الشعب شعبا جديرا بحرب
وثورة!
أقول لكم ما يقول لى الحزب والحزب فوق
الجماعة
سنقفز فوق المراحل عصرا وعشرين .. فى
كل ساعة.
لنبنى جنة أحلامنا اليوم فى نمط من مجاعة
سنلقى الحرف
سنمنع صيد السمك
ونمنع بيع الدجاج وبيض الدجاج
وملكية الظل ملكية خاصة
فلنؤم إن كل أشجارنا الجائعة
وكل نباتاتنا الضائعة
ثمانين نخلة
وتسعين تينة
وعشرين زيتونة
وألفا وسبعين فجلة
سنلقى الزراعة
وندخل عصر الصناعة
بحزب وشعب و فكره

أقول لكم ما يقرره الحزب ، والحزب سلطتنا المطلقة

سننشئ من أجل برنامج الحزب من أجلكم طبقة

هي القوة الصاعدة

ونحن من أرضنا ثورة الفقراء على الفقراء

فليس على أرضنا أغنياء

لنأخذ أملاكهم ، فلنوزع ، إذن ، فقرنا

على فقرنا ، في إذاعتنا والجريدة

سنقطع دابر أعدائنا الطبقيين.. أهل العقيدة

ونتهم الأنبياء بداء البكاء على حصاة في

السماء

إذا الشعب يوما أراد

فلا بد أن يستجيب الجراد..

فهيا بنا أيها الكاسحون وصناع تاريخنا

الحر، هيا بنا

لنحرق شعر المديح ، وشعر الطبيعة والحب

والعبرات

وكل الروايات والأغنيات القديمة والوجع

العاطفي

وما ترك الغرب والشرق فينا من الذكريات

وهيا بنا

لنصنع من كل حبة رمل خليه

وننجز خططنا المرحلية

سننتج في اليوم ألف شعار وعشرين شاعر

فإن كانت الأرض عاقر

فإن القيادة حبلى بما يجعل الأرض خصراء

حطوا الشعار وراء الشعار وراء الشعار

وهزوا الشعار، ليساقط الوعي فكره

تدير المصانع والثورة المستمرة

فتحن الذين

سننشئ جنة عمالنا القادمين

من الفكرة المطلقة

إلى الفكرة المطلقة

ونحن الذين

سنحرق كل المراحل . كي نصنع الطبقة

من المصنع اللغوى ، وكى نرفع الطبقة

إلى سدة الحكم حتى نعبئ عنها بحزب

وثورة

ويا شعب .. يا شعب حزيك ، شد الحزام

لتحمي النظام

من الفكرة البرجوازية الفاسدة

سنبحث عشرين عام

عن القيمة الزائدة

وعن سارقي عرق الفقراء الحرام

لنعرف أين التناقض في المجتمع

وأين التعارض بين القيادة والقاعدة

لنعرف أنماطنا والبنى وطبيعة هذا النظام،

ولكننا نترك الآن أن الطبيعة أفقر منا

ونترك أن السلع

دليل على النمط البرجوازي، فاجتنبوها

لنتتج وعيا جديدا

وربوا الشعارات .. وادخروها

وإن صدت طرورها

وإن جاع

أولادكم فاطيخواها

وفى عيد مايو كلوها

وصلوا لها وأعبوها

وإن مسكم مرض.. علقوها
على موضع الداء فهي الدواء
وثروتنا في بلاد بغير معادن
وواقعنا ما نريد له أن يكون
وليس كما هو كائن..

فماذا سننتج غير الشعارات؟
وهي رسالتنا الرائدة..
وإذا استثمرت جيداً
أثمرت بلداً سيداً
حالمًا سالماً
بحزب وفكره

..وصفوا التماثيل أعلى من النخل والأبنية
وصف التماثيل أفضل للوعي من أمهات
النخيل

تماثيل أفضل للوعي من أمهات النخيل
تماثيل ترفع كفى إليكم ..تعالى تعاليم حزب
لشعب نبيل
تذكركم بنشيد الطلائع : نحن أتيننا لكى
ننتصر

ولابد للقيد أن ينكسر
ولابد مما يدل على الفرق بين النظام الجديد
وبين النظام العميل
ولابد من صورة الفرد كى يظهر الكل فى
واحد

تماثيل تعلق على الواقع المنحدر
وتخلق مجتمع الغد من فكرة تزدهر
فلا تجدعوا أنفسها عندما تسهبون
ولا تملأوا يدها بالرسائل ضدى وضد
السجون

ولا تأتئنا للحمام المهاجر أن يستريح
عليها..

ولا ترسموا حول أعناقها صورة للرغيف
الحزين

ولا تبصقوا حولها ضجراً
ولا تنظروا شذراً
سأزرع التماثيل جيش الدفاع عن الأمانة
وجيش مكافحة السخرية
سنصمد مهما تحرش هذا الجفاف بنا
سنصمد مهما تنكر هذا الزمن
سنصمد حتى نهاية هذا الوطن
سنصمد حتى تجف المياه ..لاخر قطره
وحتى يموت الرغيف الأخير ..لاخر كسره
وحتى نهاية آخر من كان يحلم مثلى : بآخر
ثوره

فإن مات هذا الوطن
فقد عشت من أجل فكره
فموتوا ..كما لم يموت أحد قبلكم
ولا تسألوا الحزب من أجل أية فكره
نموت؟
ومن أجل أية ثورة .. نموت؟
فمن كل فكره
ستولد ثورة
ومن كل ثورة
ستولد فكره
سلام عليكم
سلام على فكره
سوف تولد من موت شعب وفكره!

خطاب النساء!

على كل امرأة حارسان
وفى كل امرأة أفغوان
ألا .. فاجلبوهن قبل الآوان
اجلبوهن فى الصبح جلده
لئلا يوسوس فيهن شيطانهن
وفى الليل جلده
لئلا يعدن إلى لذة الإثم
واستغفروا الله ، وارموا
على مرفأ الجرح وردة
ولا تهجروهن فوق المخد
فإن النساء على كل معصية قدرات
وإن النساء حبيباتنا من قديم الزمان
تزوجت خمسين مرة
لأعرف مرة
إذا كان إبني هو ابني
وأى ولى علي العهد كنت أباه
وفى كل مرة
أرى رجلا واقفا بين قلبى وامراتى
ولكننى لا أراه
لأقتله أو لأقتلها بيد أنى أراه
ويقتلنى كل يوم وفى كل سهره
يهاجمنى عاشق سابق عند باب القرنفل
يغيب لأدخل .. ثم أنام .. فيدخل
فكيف أحرر أجساد زوجاتنا من أصابع
غيرى؟
وكيف أغير جلدا بجلد .. ونهدا بنهد .. ونهرا
بنهر؟

وكيف أكون امرأة من بياض البداية؟
وهل أستطيع دخول الحكاية
وعندى من الليل أكثر من ألف ليلة
أكثر من ألف امرأة لا تغير فخ الحكاية
ولكن قلبى مؤله
وعرشى مؤله
وفى كل امرأة شهرزاد .. وثعلب
وفى كل طاغية شهریار المعذب
وإن النساء على كل معصية قدرات
وإن النساء حبيباتنا
ضمرين على سحرهن الحجاب
فشب اللبيب بأجسادهن ، وضاجهن
أول مفتاح باب
وأول قط ، وأول ساعى بريد ، وأول كتاب
هذا الخطاب
ويرآن عائشة من ظنون على
ولكن تأوهن بعد العتاب
أصحراء حول الحميراء، مطلع ليل، وشباب
طلئ الشباب
لماذا .. لماذا؟
وكيف تحرش ملح بثوب الحرير الأخير ..
وذاب؟
ضمرين على سحرهن الحجاب
ولكن هذا الذى لا يرى قد رأى واستجاب
فهل تتفطى العواصف يوما بشال
السحاب؟
وماذا وراء الحجاب؟
إلا أنهم «صواحب يوسف»
رغم الحزام ، ورغم الحرام ، ورغم العقاب

قوارير تكسر ..
أساطير تسحر..
وذاكرة للغياب
ففى أى بئر نخبى زوجاتنا
وفى أى غاب؟
وفى وسعهن ملاقة أى هلال..
ينام على غيمة أو سراب..
وفى وسعهن خيانتنا بين أحضاننا
والبكاء من الحب .. لاغتراب
وفى وسعهن إزالة آثارنا عن مواضع
أسرارهن.

كما يطرد المرء عن راحته الذباب
ويلبس فى كل يومين قلبا جديدا
كما يرتدين الثياب
فما نفع هذا الحجاب
وما نفع هذا العقاب؟
وإن النساء على كل معصية قادرات
وإن النساء حبيباتنا..
تعبت .. ولو أستطيع جمعت النساء..
بواحدة واستترحت
وأنجبت منها ولما على العهد حين أشاء
ولما على العهد مثلى وجدى
صحيحا فصيحيا يواصل عهدي
ويحفظ خير سلاله
لخير رسالة
ويجمعكم حول قصرى ومجنى هاله
ولكننى قللى ، فالنساء هواء وماء
وفاكهة للشتاء
وذاكرة من هواء
وإن النساء إمام
يخيرن عشاقهن كما يشتهى كيدهن العظيم

وكيدى عظيم .. ولكن فيهن موهبة للبكاء
وفيهن ما أحزن الأنبياء
وما أشعل الحرب بين الشعوب
وما أبعد الناس عن ملكوت السماء
فكيف أحل سؤال النساء؟
وكيف أحرركم من دهاء النساء؟
على كل امرأة أن تخون معى زوجها
لأعرف أنى أبوكم
وأخذ منكم ومنهن كل الولاء..
وقد تسألون : وكيف تنفذ هذا القرار ؟
أقول : سأعلن حربا على دولة خاسرة
يشارك فيها الكبار
ومن بلغ العاشرة ..
سأعلن حربا لمدة عام
تكون النساء عليكم حرام
وأبعث غلمان قصرى- وهم عاجزون - إلى
كل بيت
ليأتوا إلى بكل فتاة وينت
لأحرث من شئت منهن :
بعد الظهيرة - بنت
وفى الليل - بنت
وفى الفجر - بنت
لتحمل منى جميع البنات
وينجبن منى ولما على العهد .. منى ..
سأختاره كيف شئت
صحيحا فصيحيا مليح القوام
.. ويعتد أوقف الحرب ، من بعد عام
وأعلن عيد السلام
وأعرف مرة

لأول مرة

بأن الولي على العهد .. إبنى

وأنى أبنى

بلاداً بلا دنس أو حرام

فألف سلام عليكم

وإن النساء حلال عليكم

فلا تهجروهن ، لا تضربوهن ، هن الحما

وهن حبيباتنا ، والسلام عليكم عليهن

ألف سلام..

وألف سلام !!

فى الزحام

وتخلق واقعها فوق واقعنا ، أو تجردنا من

سياج المنام

فيصبح حلم الجماهير فوضى ، ولا نستطيع

التدخل بين النيام

أنا سيد الطم ! لا تجلسوا حول قصرى

بغير الطعام

ولا تأذنوا للفراشات بالطيران الإباحى فى

لغة من رخام..

.. فمن لغتى تأخذون ملامح أحلامكم مرة

كل عام.

.. ومن لغتى تعرفون الحقيقة فى لفظتين :

حلال ، حرام

فلا تبحثوا فى القواميس عن لغة لاتليق

بهذا المقام،

فإن زادت المفردات عن الألف عم الفساد ..

وساد الخراب،

لأن الكلام الكثير غبار الذباب

وأن نظام الضطاب

خطاب النظام ..

.. ..

وفى لغتى قوتى . واقعى لغتى ، واقمى

مايقول الضطاب

فقد تريح النظرية ما يخسر الشعب ،

والشعب عبد الكتاب

وليس على النهر أن يتراجع عما فتحنا له

من سياق وغاب

سنجرى معا فوق موج الدفاع عن الاندفاع

الكبير لفكر الصواب

وماذا لو اكتشف القوم أن الدروب إلى

خطاب الخطاب !

إذا زادت المفردات عن الألف ، جفت عروق

الكلام

وشاع فساد البلاغة .. وانتشر الشعر بين

العوام،

وصار على كل مفردة أن تقول وتخفى

ماحولها من غمام

فإن تمدح الورد معناه أنك تهجو الظلام

وأن تتذكر برق السيوف القديمة معناه : أنك

تهجو السلام

وأن تذكر الياسمين كثيرا وتضحك ، معناه :

أنك تهجو النظام

ولا تستطيع الحكومة شق المجاز ونفى

الأسى عن هديل الحمام..

وبين الطباق وبين الجناس تقول القصيدة ما

بيننا من حطام

وتنشئ عالمها المستقل وتهرب من شرطتى

الكلام	الدرب معجزة من سراب !
إذا جف ماء البحيرات ، فلتعصروا لفظه	وماذا لو ارتطم الير بالبحر والبحر بالبحر ،
من خطاب السحاب .	وامتدقنا العباب !
وإن مات عشب الحقول ، كلوا مقطعا من	إلى أين يابحر تأخذنا ؟ والخطاب يواصل
خطاب الطعام	خطبته فى اليباب
وإن قصت الحرب أرضى ، فلتشبهروا	أترجع من حيث ضعنا ؟ إلى أين يرجع هذا
مقطعا من خطاب الصمام	الكلام .. إلى أى باب ؟
ففى البدء كان الكلام ، وكان الجلوس على	قططنا كثيرا من القول ، فليتبّع الفعل
العرش	خطوتنا فى طريق العذاب
فى البدء كان الخطاب .	ولكن إلى أين نرجع يابحر ؟ والبر ذاكرة
سنمضى معا ، جثة جثة ، فى الطريق	صلبة للسحاب
الطويل على لغة من صواب	قططنا قليلا من الفعل : فليملأ القول ساحة
وماذا لو ابتعد الفجر عنا ، ثلاثين عاما	هذا الخراب
وخمسين عاما .. ونام !	ليسر الخطاب على موت أبنائنا الغائبين ..
أما قلت يوم جلست على العرش إن العذر	ويعلو الضباب
يريد سقوط النظام	إلى شرفة القصر .. والمنبر الحجرى المغطى
وإن البلاد تروح وتأتى ؟ وإن المبادئ ترسو	بعشب الغياب
رسو الهضاب !	ولاتسألو : من ينبع الخطاب الأخير : أنا أم
وإن قوى الروح فينا خطاب سيبقى ، ولم	خطاب الخطاب ؟
يبقى غير الخطاب !	فقد يصدق القول . قد يكتب القائلون ،
فلا تسرفوا فى الكلام لئلا تبدد سلطة هذا	ويحيا الغبار ويفنى التراب .
الكلام..	وقد تجهض الأم حين تشك بأن الجنين ابنها
ولاتدخلوا فى الكناية كى لانضل الطريق	، ليعيش الغطاب
ونفقد كنز السراب	خطابى حريتى ، باب ونزافة من ثلاثين
ولاتقربوا الشعر ، فالشعر يهدم صرح	مفردة لاتصاف ،
الثوابت فى وطن من وثام	بصدمة واقعها . لاتغير إيقاعها ، ولا تقدم
والشعر تأويله ، فاحذروها كما تحذرون الزنى	إلا الجواب ،
والربا والحرام ،	كلامى غاية هذا الكلام
.. وإن زادت المفردات عن الألف باخ الكلام	خطابى واقع هذا الخطاب
وشاخ الخطاب	لأن خطاب النظام
وقاضت ضغاف المعانى ليتضح الفرق بين	نظام الخطاب..
الحمام وبين الحمام
.. وفى لغتى ما يدير شؤون البلاد ، ويكفى	خطابى شد المسافات بين الكلام وبين معانى



خواص

(١) الطاقية - دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي تأليف د. إمام عبد الفتاح إمام - عالم المعرفة ١٨٣-

(٢) مصطلح الكاريزما charisma مستمد أصلاً من العهد الجديد في النص اليوناني الذي يعنى « عطية النعمة الإلهية » وأدخله العالم الألماني ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) ليعنى الصفة الفارقة التي يملكها بعض الأشخاص فتكون لهم قوة محركة على الجماهير .. (المصدر السابق)

لنصمد خمسين عام

ويكفى لنستورد الخبز ،

يكفى لنرفع سيف البطولة فوق السحاب ،

وفي لغتي ما يعبر عن حاجة الشعب للاحتفال

بهذا الخطاب

فلا تسرفوا في ابتكار الكثير من المفردات ،

وشدوا الحزام

فان ثلاثين مفردة تستطيع قيادة شعب يحب

السلام ،

ولن خطاب النظام

نظام الخطاب..

سوف تنال الحرية

مختارات من الأدب الدينى الهندوسى

اختيار وترجمة وتقديم : غادة نبيل

هذا هو الدين

لولا ..

لو قرأ الإنسان فى الهندوسية والبوذية - خاصة فى سن مبكرة سيبقى معه إحساس طاغ بالانفساح ، بمفاجأة السموح ولذة تتجاوز ماهو ندى وسيظل يحمل معه إصر العودة.

تستطيع أن تقيم « صداقة » مع الآلهة أو مع إله اختيارك وأن تفكر فى الإله وتتحدث عنه على أنه عاقل فتقول هو ، أو بوصفه غير عاقل - شيئاً ، وقد تبقى بدون تحديد كما تستطيع أن تذكر اسم « راما » العظيم ولو بسخرية وسيقولون لك هذا مفيد ، لتترنم بسخرية.

إتباع « الأهميزا » - رغم أن منهم عباد شيفا (فى الثلاث الشامل ليراهما الإله الأكبر وفيشنو الحافظ وشيفا المدمر) أو عباد كالى المتعطشة لسفك الدم- يعتقدون مبدأ عدم العنف حتى أن الراهب الجينى (من الجينية أحد أقوى ما انتبث عن الهندوسية) لايمشى ليلاً لكى لايطأ بالخطأ أية كائنات حية ولو كانت هوماً ويغضى أنفه حتى لايستشوق أو يبتلع بالخطأ أى شئ حتى . احترام كل أشكال الحياة وعدم الرغبة فى إيذاء مايتنفس أو توقيع العنف على الأشياء أمور تسيطر على الفكر الدينى الهندوسى والبوذى أو هما يقومان على هذا (لا ننسى أن البوذا كان أميراً هندياً) . يمتد هذا التقديس إلى الجماد فى ظل عقائد أخرى فى اليابان وبعض مناطق شرق آسيا مثل الشينتوية تعظيماً لأرواح الأجداد التى قد تحل فى الشجر ولاتختلف مع الهندوسية فى الإيمان بالتناسخ الذى يجعل ربات البيوت الهندوسيات يفتحن نوافذ وأبواب بيوتهن لربما دخلت البيت روح أحد الجدود فى هيئة صرصور طائر الانسجام.

* يجدر أيضاً وضع الأرز وزخرفته فى رسومات وتشكيلات إبداعية أمام عتبة البيت للنمل لياكل، الانسجام النهائى موجود فى الكون . هذا أساس أهميزا (اللاعنف)

القول مارا رمز عدم الدوام/ الموت يحكم أنيابه ومخالبه على عجلة الحياة الدوارة التى تضم :
(١) الجهل (٢) المزاج (٣) الوعى (٤) الاسم والشكل (٥) مجالات الحس الستة (٦) الاتصال (٧) الشعور (٨) الرغبة (٩) النزوع إلى امتلاك الأشياء (١٠) الصيرورة (١١) إعادة المولد أو الميلاد مرة أخرى (١٢) الشيخوخة والموت.

بداخل العجلة التى لا تتوقف مكان يسمى الجنة ومكان يسمى النار ومالك للإنسان وللحيوان والفيضان وللأشباح الجامعة ورمزية الشجر فى الميثولوجيا الهندوسية لها أهمية خاصة . الشجر مكان مفضل - بعد الغابات - للجلوس والتأمل بالنسبة لليجى المعتدل أو للزاهد الذى يعذب الجسد بالجوع ورياضات شاقة ويعمره أو يلونه بدهان أبيض ولايحفظ إلا بما يستر العورة ويتسول طعامه . فشجر الأرز فى الغابة مكان غواية الإله شيفا لزوجات الحكماء بعد أن يمر جسد إله الحب وحيث إن أولئك الحكماء لم يكونوا قد انتصروا على نزقهم وعواطفهم المشبوبة ، وتحت البر أو التينة

المقدسة يجلس البوذا جلسته الأيقونية بقدمين معقوبتين عندما فعل كل مايمكن أن يفعله إنسان لينال الحكمة فصار « المتور » نائل الإشراف . يمكن لكل منا أن يصبح أيضا بوديساتفا .

اليوم ينتشر الشجر العملاق في الهند وهم يبنون في ظله مزارات صغيرة شبيهة بتماثيل العذراء الصغيرة الملونة أو تماثيل وأيقونات بعض القديسين في صناديق زجاجية وحجرية على الجبل أو في ظل الشجر على الطرقات في لبنان .

موقفه الهوسات

هذا اسم الشمس . الهندوسي يصفها بـ « ذلك الطائر الرائع » .

الشجرة والعجلة والشمس رموز كثيرة الاستخدام في الأدب السنسكريتي القديم وفي تطوره اللاحق العجلة على علم الهند . وقد وجد أحد الباحثين الأوروبيين في الهندوسية (بوش) رسماً لشجرة على ورق لف الصور في كتاب عن سيرة الزعيم غاندى مكتوباً بالشعر السنسكريتي يبدو فيها ورق الشجرة الكونية على شكل خريطة الهند وغاندى يبتسم وينظر إلى أسفل من مركز الشجرة التي وضعت في دائرة الشمس بينما ترسل أشعتها على الأرض حيث يعمل بعض الفلاحين الهنود في حقولهم . الشجرة والهند شيء واحد .

في بعض الأحيان يتعامل الأدب الفيدي (نسبة إلى كتب الفيديا أحد أعظم وأقدم المراجع المقدسة للبشرية . منذ خمسة آلاف عام ، مع فكرة التناسخ ليس من حيث كونها إعادة لليلاد وإنما إعادة أو عودة للموت وتكرار له لكن الغياب الكامل لذلك المفهوم في بواكير الأدب الفيدي والبراهماناسي بشهادة الباحثين في الهندوسية دفع الباحثين إلى افتراض أن عقيدة الميلاد مرة أخرى تكونت في دوائر غير فيدية ولهذا فهي ربما تنتمي إلى أصول غير آرية وكلها أمور يرى قسم آخر من الباحثين أنها تحتاج إلى دليل .

مكانة الشمس في التصوير الديني الهندوسي تقوم على إيمان بطبيعتها الخارقة (أجنى) مقارنة بالقمر الذي ينقص ويدخل في المحاق وبهذا يتعرض للتفتيت قبل أن يصل إلى المرحلة الشهرية التي قد يختفى فيها ثلاثة أيام . أما الشمس فهي ليست مضطربة للموت لتتزلزل إلى الجحيم . والهندوسي يرى أجنى قادرة على النزول في المحيط أو بحيرة المياه الواطئة . أو قد تعبها دون أن « تنوب » . لهذا موت الشمس عنده يوحي بفكرة البعث أو هو ليس موتاً حقيقياً . والمفهوم الهندوسي عن الخليقة يرى التكوين شبيها بتقطيع الأوصال أي بعملية تمزيق أو سقوط من الوحدة الأولية في التعدد ، وأى مصير في الخلق المادى هو بالضرورة قمرى بالنسبة لهم لأنه ناقص ومبتسر .

الشمس التي يتقنى بها المؤمن في الصلوات وفي أشعار الريح فيدا لها قيمة أخرى في مرحلة الانتقال إلى حياة أخرى بعد الموت ، فالمحرقة تساعد الأشخاص المحررين بنقلهم إلى أقدارهم الشمسية المستديرة على العكس من الأقل حظاً الذين يعوون إلى حياتنا الفانية - وإن في هيئة غير بشرية - عبر دخانها .

الذين يدخلون في الدخان هم الذين « يكسبون ممالك نظرية » بالتضحية والزهد والتبرعات .

من الدخان إلى الليل والقمر يصيرون طعاماً تلتهمه الآلهة ويتحولون من الأثير إلى الهواء إلى المطر إلى الأرض إلى طعام مرة أخرى « في نار الانسان » ثم يولدن - كما توضع الكتب مصير تلك المخلوقات النعسة - « في نار النساء » .. أى يواصلون الدورة الشاقة المعطلة النيرفانا أو الاتحاد مع الخالق . ليسوا مثل الفريق الآخر ، مثل « الذين يعرفون » ويتأملون في الغابات باخلاص في كنهه الحقيقي . هذا رغم ما سيظهر - من المقتطف والمجتزأ - في هذه المختارات الدينية الأدبية الرفيعة من التمجيد الهندوسى للحركة والعمل والاستمرار بوصفها الاختيار الأرقى من التسليم .

لكن المربود أو المكافاة الدينية التي لا يتم تحصيلها بطقوس (وهل تخلو عقيدة من طقوس ؟) من نوع التصديق وتقديم القرابين ولا حتى بالأفعال الخيرة وحدها كما أباينت النصوص التي توافرت لى .

هذا هو الدين - لكن

هنا كل شئ يخضع للتأمل « غموض » الطعام مثلاً ، وهنا آلهة (مثل براهاسباتى) تفرل وتتسج وتخيظ الملابس أو الخلود . وتوجد آلهة تقطع رأسى براهما الإله الأعظم وآلهة ترتعب مع الشياطين من إله بعينه وآلهة تنتقم ممن يهز الجبال التي تجلس فوقها بطحن الشياطين نوى الرؤوس العشرة باصبع قدمها الكبير .

شيفا اتخذ مرة هيئة عمود من نار بقصد إظهار تفوقه واستعصى على براهما الوصول إلى بدايته رغم أنه طار إلى أعلى عليين كما استعصى على فيشنو معرفة جذره رغم أنه حفر حتى أسفل سافلين .

كان العمود طويلاً بلا بداية أو نهاية وصار هذا الرمز القضيبي الصورة الأكثر ذيوماً في عبادة المدمر .

وشيفا هو الذى يأتى بالنار التي تلزم لإبادة العالم من أسفل عندما تصاب المادة والروح معاً بالتعب ويحتاجان إلى النقاة . الهندوسى يقول لآلهته أكثر مما يقوله المسلم لربه .

الأوبانيشاد والبيهاجافاد جينا والبهاجافاتا يورانا والفيدا لاتظهرو أرباباً غاضبة ومغتاظة من مخلوقاتهما أو عباداً ومؤمنين محبطين (كما نجد في العهد القديم وخاصة في إصحاح أيوب) أو عرامة حسية نشوانة بحب الحياة وخصوبة تدفق من الآلهة الذكور فقط أو تتأمل في حسن الصبايا ومفاتيح الأنوثة كما نستمتع عند قراءة نشيد الإنشاد مثلاً بقدر ماتتبع هذه الكتب لصوت البشر أن يحاسبوا خالقهم ليشهدوه على معنى الرحمة والعفو وعدم الهجر الربانى لو أن الإنسان كان هو الله فمن أشعار الريح فيدا :

« ليس لذنوب واحد ولا لاثنتين أو لثلاثة .

ستذبحنى أيها القوى ، ولاحتى للكثير ! »

والهندوس يعتبرون محتويات الريح فيدا بالذات أشعاراً يميل أغلبها إلى الغموض ، ويعتقد الشراح أن هناك أسباباً لغوية تفسر الغموض فيها والذي لايعود إلى شكلها أو لأن هناك قصدية

للإرباك كانت تميز الشعراء المتنافسين في الريح فيدا خاصة وإنما القارئ الحديث هو الذي ربما فقد مفتاح الرموز التي تشكل رؤية العالم في العصور الفيديا القديمة.

« عندما يكون المرء قد اكتشفه ، لغز أبقار الفلق هذا ، مثل فتح يكون قد عثر على أجنى التي تحرس القمة المحبوبة للأرض وتحرس مسار الطائر ».

الرجما في الكتب الهندوسية المقدسة قد تكون قليلة قياسا بالاسلام مثلا كما أفادتني سيدة هندوسية مرة ، رغم أنه لا يجب أن ننخدع تماما إلا أنه مما لاشك فيه أن مناطق الحرية أوسع مداراً وأكثر عدداً في الفكر الديني الهندوسي بالمقارنة مع تعاليم كتب مقدسة أخرى.

فمن ناحية فكرة تعدد الآلهة هي تالية للتعدد وإقرار له برسوخ ديني وتربوي ونفسي يصعب أن ينافسه أي إيمان لاحق بأي تعدد آخر على الأقل لأنه الأول والأسبق في تشكيل المؤمن نفسياً وأقصد أنه حتى خيال الأمي يصبح غير قادر على استيعاب فكرة الواحد الأحد الذي يجب ماعداه (رغم عدم انتقائها تماما في الهندوسية فهناك براهما في النهاية) ولعل جواهر لال نهرو يكون قد عبر مرة عن معنى قريب من هذا - أي عدم القدرة على تصور كون بهذا التعدد ولا يكون وراء منه تعدد مماثل أو فائق عنه دون أن يذهب عندهم كل إله يخلقه حتى ولو ذهب ببعض الآلهة الأخرى.

الشيء المميز الأول إذن هو أن يتعامل خيالك ووعيك مع التعدد بوصفه الأصل أو على أنه الطبيعي . الشيء المميز الثاني أنه في عجلة الحياة التي يسكنها مارا ويحركها في دوران لانهائي : حتى الآلهة تموت (رغم أنه لاموت نهائيا في ظل عودات أخرى للحياة أو أن هذا هو الموت - العودة المستمرة) ولنتأمل .. فحاجة لا يكون للرحيل كل تلك القسوة التي تتضمن بعثاً مجهولاً وحساباً مجهولاً أكثر ضمن ثنائية جنة أو نار فحسب والمسارات المرسومة التي يفترض أن تؤدي إلى أي منهما هناك فرق كبير إذن بين هذا (والجنة والنار الهندوسيان موجودان) وبين أن نلتفت إلى كركنك وتفكر: « ربما هو أبي ».

والشيء المميز الثالث هو مبدأ أهميذا عدم توقيع العنف ولو على العدو وهو أساس المقاومة السلبية (ساتياجراها) التي اتبعتها غاندي ضد المستعمر البريطاني بما يمكن أن يجعل المواطنين الهنود ينامون على قضبان السكة الحديد أمام قطارات تحمل بضائع من لانكشير فتطحنهم القطارات بدلا من أن تتوقف وبدلا من أن يهاجموها هم ويقتلوا المحتل بأي سلاح . ولعل لا أرضى عن هذه « السلبية » في المقاومة.

في المقابل هذه الركائز يوجد كذلك المؤسف.

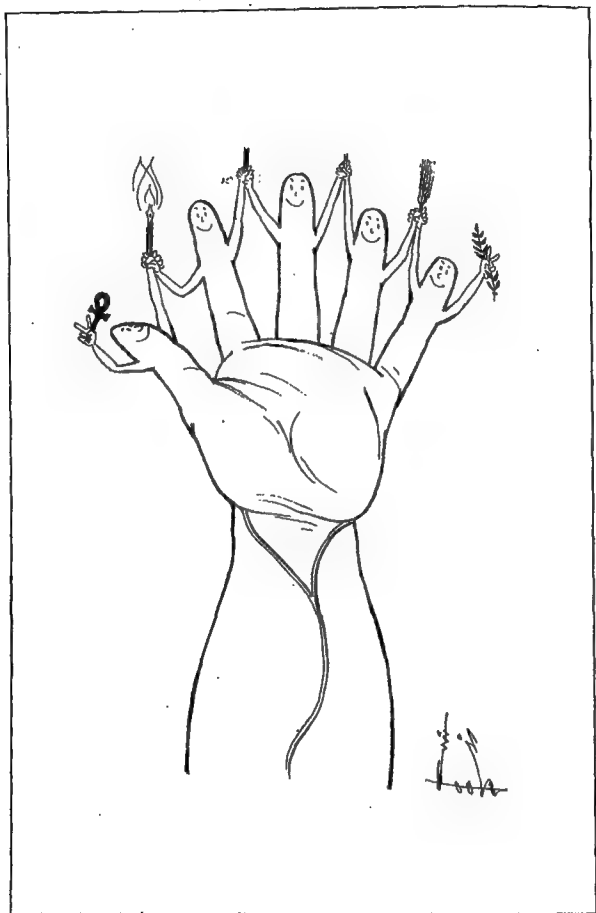
وأول المؤسسات يتصل بنظام الطبقات الهندوسية الثلاثي:

١) البراهمانز يمثلون رأس براهما ويقتصرون على الكهنة (كالعادة)

٢) الكشاترييا يشملون الملوك والمحاربين والنبلاء (الحلف الإقطاعي التاريخي).

٣) الفايديا وهؤلاء يضمون الفلاحين والتجار.

وتقريبا خارج الثالوث السابق مكان المنيوزين - الشورا الذين لا يستحقون اللمس أو المحظور



لسهم ، فان أردت أن تقدم قطعة نقود إلى شحاذ منهم وكنت من الطبقة الأولى يجدر أن تسقطه من أعلى - فى الهواء - وإلا يتم تحديد طرق التطهر . من المعروف أن القوانين المدنية فى الهند ألغت هذا العسف.

أما المؤسف الآخر - من خلال إطلاع لا يدعى الاقتراب من معرفة وثيقة بالفكر الدينى الهندوسى - فهو أن ثمة جانباً فقهياً جامداً يخص المرأة التى ألغت قوانين الاحتلال البريطانى تقليد ساتى الذى كان يخصها.والذى يقضى بانتحار الأملة المحترمة « حرقاً أثناء مراسم حرق الزوج المتوفى . ويلاحظ أن تدهور أوضاع المرأة الهندية فى العصور الفيديا كان نتيجة للمخاللة فى اعتناق وتفسير المبدأ الفيدي القائل بأن خدمة الزوج فى حقيقتها خدمة للرب بموجب عرف Patideva أى اعتبار الزوج « باتى » هو الرب. وه «ديفا» زوجته ويمثل الحديث النبوى الاسلامى الذى يفيد نفس المعنى.

سوف أشير إلى ملاحظات عامة ودالة بنفسها.

فى القصص الدينى الهندوسى ياما الرجل الأول وهو كذلك أول من يعرف الموت فيحكم ذلك العالم ويصير سيداً على الجحيم . ياما هذا له أخت توأم اسمها يامى المرأة الأولى . ويامى تغوى ياما وتحرضه على زنا المحارم - مالم يكن قد حرم بعد - لكنه بعفة فطرية أو فطرة أعلى ربما ، لا يستجيب.

وهنا تتدخل الكيرانا تانترا أو ترانيم الشعاع لصالح المرأة بعض الشئ على الرغم من أن العقيدة الراسخة لدى الهندوسى ترى المادة شيئاً مؤثماً وأنها هى التى تغوى وتتخذ الأرواح التى ينظر لها على أنها مذكر وفقاً للسانخيا بحيث تتوحد هذه الأرواح بالخطأ مع أجسادها المادية وتظل فى حالة ميلاد مستمرة ومتكررة فى هذا العالم.

لكن الكيرانا تانترا تبين الإله أقل عدوانية وتحيزاً ضد المرأة لأنه يعلمنا أمراً مهماً فان كان عدم النقاء شيئاً لا مبتدأ له شيئاً كامناً إلا أن المادة الأولية لاتخضع لأن الأنثى أيضاً « تنور » وعى الروح .. هذه الإضاءة « كشف » يقابل التلوث / عدم النقاء الذى هو انسداد. لكن كشف قوة أو قوى الروح هو أيضاً عدم نقاء فالغواية فى المادة الأولية سببها ماتتيحه الروح ، ماتمنحه لها بالتجربة، والمقصود : من خلال معرفة « مذاق » الأشياء الخارجية.

أما من كتاب ياجنابالكا فى الشريعة فأسوق الأمثلة الآتية:

(١) أولئك الذين رفضوا سلطة الفيديا ، والذين لم يتبنوا وأجابت أى من المسارات الأربعة للحياة ، اللصوص والنساء اللواتى قتلن أزواجهن والنساء الفاجرات وأشباههن والنساء اللواتى يعاقرن الجمر واللواتى انتحرن ! (علامة التعجب من عندى) ليس لهن الحق فى أن يراعى أقاربهن فترة من عدم الطهارة عقب موتهن ولاحق لهن فى إراقة الماء عليهن (للتكريم).

(٢) من بين الأيوين ، التلوث الناتج عن الولادة يلتصق بشدة بالألم وحدها طيلة عشرة أيام لأن دمها يكون قد شوهد . أما يوم الميلاد فلا يعد يوماً ملوثاً لأنه يمنح الميلاد للأسلاف.

(٣) النقاء يتحقق فى الحال لأقارب أولئك الذين ماتوا على يد ملك أو بقرة أو براهمين وبالنسبة لأولئك الذين انتحروا !! (علامات التعجب من عندى).

٤) التلوث فى أعقاب ميلاد أو موت أحد الأقارب يزول عن طريق تقديمه كرات الأرض ويستمر ذلك اثنى عشر يوما بالنسبة للكشاثريا وخمسة عشر يوما بالنسبة للغايزيا وثلاثين يوما للشوورا (المنبوذ) ونصف تلك المدة فقط لو أنه - أى المنبوذ - كان طيعاً .

٥) الملوك ليسوا عرضة للتلوث ! كيف سالكف عن وضع علامات تعجب ؟ ولا أقارب هؤلاء الذين ضربهم البرق أو الذين قتلوا فى مشاجرة لصالح بقرة أو براهمين ولايعتبر عرضة للتلوث أى شخص يشاء الملك أن يختاره ليكون غير ملوث .

٦) عندما يتعرض المرء للمس من المرأة الحائض أو من الملوئين يجب عليه الاستحمام . أما إذا تعرض للمس ممن تعرضوا للمس من المرأة الحائض أو من قبل الملوئين فيجب أن يرتشف الماء ويقوم بانشاد ثلاث ترانيم للماء وبانشاء الجياترى فى السر مرة واحدة .

فى الميثولوجيا الهندوسية الشياطين هى التى تحسد الكلام والعين والأذن والعقل والشهيق والزفير - تحسد هذه الأشياء على قدرتها على أن تغنى وهى ترتعب من رغبة الالهة فى سماع الأشياء من الانسان وهو يغنى فتجرى نحوها لتتقيها بالشر . لكن الالهة تنتصر ومعها الانسان والغناء لهذا تفاجئنا الأسطورة فى البرها وارنياكا بأنه يصبح أن يجد الانسان طعاما لنفسه بالغناء ، وتحكى أنه لما تحررت العين من الموت صارت شمسا ولما صارت الشمس وراء الموت صارت تشع بقوة أكبر والرائحة - أية رائحة - عندما تتحرر من الموت تصبح الريح ويتجاوز الموت تصبح الريح نقية ويتم استنفاد الحواس كلها من الموت . وأخيرا يتم انقاذ العقل من الموت . الالهة طول الوقت تريد أن تهيج نفسها بسماع غناء نفس الإنسان والشياطين تتكاثر داخل نفسها أما النفس فيغنى إلى الخارج بالطعام . كل الطعام المأكول يسيطر عليه النفس . هذا يتحقق مجئ الإنسان . أثناء الأغاني يمكن للإنسان أن يطلب مايشاء خاصة الأغنية / النفس لو أنشد بداء ذكى الكلمات التالية :

من اللاحيقى قدنى إلى الحقيقى

من الظلام إلى النور

من الموت إلى الخلود

اجعلنى خالداً .

فى المقتطفات التالية التى وضعت لأغلبها العناوين بينما البعض الآخر قرأته بالعنوان أو التصنيف الهندوسى أحسست أكثر من مرة أننى أقرأ من كتاب الموتى المصرى ، أما البوذا ففى غير موضع يذكر بحديث إبراهيم وهو يبحث عن ربه ولايرى بالقمر والشمس لأنهما من الآلين . « بالحقيقة تستند الأرض » .

لأننى من المفتونات بالحقيقة كما تمنى الهندوسى أن يعرفها ليسند بها قلبه ولأنها - كما يؤمنون - الإله فى آخر المدى الذى هو نار التى هى فى الكلام الذى هو فى القلب الذى هو فىنا ولا لأكلته الكلاب أو مزقته الطيور قطعاً صغيرة « أقدم هذه المخترعات بتواضع ، وعلى الطريقة الهندية أنحنى لأس أقدم الحكماء مؤلفى كتبهم المقدسة وينفس الكف الأيمن لمس رأسى بسرعة

غن

نار

جواتاما ، العالم الذى فوق نار ، الشمس وقوده ، شعاع الشمس دخانه ، النهار شعلته ، القمر فحمة ، والتجوم شررها .

فى نفس هذه النار تقدم الآلهة الايمان ومن هذا القربانى يكون الملك سومما .

جواتاما ، سحابة المطر نار ، الريح وقودها ، السحاب دخانها ، البرق شعلتها ، ضربة الصاعقة ، فحمة والبرد شررها فى نفس هذه النار تقدم الآلهة الملك سومما ومن هذا القربان يكون المطر .
جواتاما ، الأرض نار ، السنة وقودها ، الفضاء دخانها ، الليل شعلتها ، جهات البوصلة فحمة والجهات الوسيطة للبوصلة شررها .

فى نفس هذه النار تقدم الآلهة المطر ومن هذا القربان يكون الطعام .

جواتاما ، الانسان نار ، الصوت وقوده ، النفس دخانه ، اللسان شعلته ، العين فحمة ، الأذن شررها . فى نفس هذه النار تقدم الآلهة الطعام ومن هذا القربان يكون المنى .
جواتاما ، المرأة نار ، القضيب وقودها ، عندما يجتذبا رجل هذا لسانها الشفرتان شعلتها وعندما يخرقها ، هذا فحمة واللذة شررها .

فى نفس هذه النار تقدم الآلهة المنى ومن هذا القربان يكون الجنين .

وهكذا فانه بالقربان الخامس يكتسب الماء صوتا آدميا .

مغلغا بالنسيج يحيا الجنين داخل الرحم مدة تسعة أو عشرة أو مايمكن من شهور ثم يولد .
متى ولد يعيش مدته المحددة وبعد أن يموت يحمل من هنا إلى المحرقة ليذهب إلى المكان المحدد الذى منه أتى ، الذى منه نشأ .

الكتاب الخامس - الشانوجيا أوبانيشاد

* جواتاما هو الاسم الأصلي للبوذا - سيدهارتا جواتاما .

الآتى بالجميل

البشخص الذى يرى فى الشمس هو أنا . هو أنا بحق .

الشخص الذى يرى فى القمر هو أنا . هو أنا بحق .

الشخص الذى يرى فى البرق . هو أنا . هو أنا بحق .

هذا الشخص الذى يرى فى العين . هو الذات . هو الخلود .. هو الحرية من الخوف هو براهمان . وحتى لو سكبوا السمن أو الماء على العين فان هذا ليسيل نحو الأطراف .

يدعونه التقاء الجميل (ساميا دقاما) لأن كل الأشياء الجميلة تلتقى عنده كما تلتقى كل الأشياء الجميلة عند الرجل الذى يعرف هذا .

الآتى بالجميل هو كذلك (فامانيه) لأنه يأتى بكل الأشياء الجميلة مثلما يأتى بها الرجل الذى يعرف هذا .

الآتى بالنور هو كذلك (بهامانيه) لأنه فى كل العوالم لم يسطع مثلما الرجل الذى يعرف هذا يسطع فى كل العوالم

الشاندوجيا

أويانيشاد

دعاء السعادة

لنصبر مائة خريف

لنعش مائة خريف

لنعرف مائة خريف

لنصبح مائة خريف

لننتعش مائة خريف

لنكن مائة خريف

لنصبر مائة خريف

- بل وأكثر من مائة خريف

(الفيدا)

اكتشاف الندى

« ركب الأمير يوفانجايا عربته وخرج إلى حديقته ليتسمتع وعندما رأى حبات الندى مثل خيوط من لؤلؤ على أطراف القصبات مثلما هى على رؤوس الشجر والحشائش ونهايات الفروع وشيخ بيوت العنكبوت سأل:

يامرافقى فى العربة ماذا يسمون هذه؟ .. وجاءه الجواب « يسمونها حبات الندى ، تهطل فى موسم البرد » .

(الريح فيدا)

العروس المنتظرة

الكثيرون الذين يرون الكلمة المقدسة لا يرونها فعلاً.

الكثيرون الذين يسمعون لا يسمعونها فعلاً.

ولكن للكثيرين هى تظهر جسمها

مثل عروس فى أجمل ثوب ترغب فى زوجها .

(الريح فيدا)

حق الأسئلة

كم عدد النيران ؟ كم عدد الشمس ؟ كم عدد مرات الفجر وكم فعلاً عدد المياه ؟ .

ليس لإغاضتكم أجادل أيها الآباء.
أسألكم يا من تروين الشعراء ، أن تعرفوا بحق.

(الريح فيدا)

قدس الأقداس

الحليب الثمين للبقرة في جلد
الطعام ، قرص الشمس قد صعد إلى قمة الأرض.

(الريح فيدا)

الاختلاف

بلا أقدام تتقدم هي ، قبل أولئك الذين لهم أقدام
من منكم يفهم هذا ياميترا فارونا؟
حتى الرحم يحمل وزنه
الشمس تدعم النظام بعد أن أخضعت القوضى.

(الريح فيدا)

الطبيعي

لو يولد حصانا ، إنه بلا لجام
جواد مطهم يصهل ، يطير عائداً دون أن يمحوه

(الريح فيدا)

من أغاني الحجيج

الحظ المتعدد من نصيب من لا يتعب

هكذا سمعنا ياروهيتا

إنه لجنس شريث ذلك الذي يجلس

إندرا يرافق المسافر

لتظل سائرا ، لتظل سائراً !

المسافر هو الذي يعثر على العسل

المسافر يعثر على التينة الحلوة

تأمل بهاء الشمس

التي رغم تجوالها الدائم ، لا تتعب !.

المجير

تحت جفول المكره الإلهي

بالقوة للأذرع

والروح للأيدى

أنا المجبر ، أمسك بك !

(الريح فيدا)

رقوة الصدا ع

من قدمك وركبتك وأردافك

من عجيزتك وسلسلة ظهرك

من عنقك ورأسك

طردت كل مرض!

سليمة . هي عظام جمجمتك

وقلبيك هاهو يدق بانتظام مرة أخرى.

بشروقك أيتها الشمس

'طاريت - بأشمتك الصدا ع بعيداً.

وأوقفت الألم المجرح.

الريح فيدا

الحياة استثناء

كل كائن غير مرئى فى بدايته

وغير مرئى فى نهايته

يكون مرئيا فقط فى الحالة الوسطى

فلماذا التحيب ؟

(البهاجا فادجيتا)

اعمل بدلا من أن تسلم

إن كلا من نبذ الأعمال وممارستها

يؤدى إلى الخالق الأعلى

لكن من بين الاثنين طريق العمل

أفضل من طريق النبذ .

صلاة الأشياء

عندما يضحك المرء وعندما ياكل

وعندما يمارس الجماع .

فانه بهذا يشارك فى الترانيم

والمحفوظات الدينية.

دعاء ضد الأعداء

بعثر أعدائنا يا إندارا ، اخضع

أولئك الذين يهاجمونا
أبعث بهم إلى أسفل الظلمات
أولئك الساعين إلى تدميرنا
عن الخطيئة والرحمة
افتح نفسك ، اخلق فضاء حراً
اطلق سراح السجين من سجنه
مثل طفل حديث الولادة ، محرر من الرحم
كن حراً لتتحرك على كل طريق.

السؤال الأم

أسألك : ماهى أبعد نقطة للأرض ؟
أسأل : أين سرّة العالم ؟
أسألك : ماهو منى الحصان القوى ؟
أسأل : ماهى أعلى أسماء للكلام ؟

(الريح فيدا)

العالم يقوم

على التضحية

هنا فى هذا العالم ، الذى لايعرك عجلة الحياة المضحية
التي دارت بفعل التضحية الأسبق
هو مؤذ لنظام العالم ، يجد المتعة فقط.

فى الحسى

امرق كهذا ، يا أرجونا ، يحيا سدى

طيور الشجرة

طائران رقيقان يحتلان نفس الشجرة. أحدهما يأكل التينة الحلوة والآخر ، لأنه لم يأكل منها بعد ،
يتطلع فوق تلك الشجرة كل الطيور الآكلة للعسل تضى وتكبر .
يقولون إنه على قمته فقط التينة الحلوة، لايطالها من لايعرف الأب.

سمك

يقول البوذا : سوف أعلن سبب حزنى حيث ارتعشت : كان ذلك عندما رأيت الناس يتخطون
كالسماك إذا جفت البرك ، عندما شهدت صراع الإنسان مع الإنسان أحسست بالخوف وهكذا حتى
رأيت شوكه الشر التي تقيح قلوب البشر.

القافز بين الشواطئ

إذا كان طعامك نقياً فكل طبيعتك ستكون نقية وإذا كانت كل طبيعتك نقية لن تضعف ذاكرتك ،

ولذا صرت سيداً لذاكرتك فكل عقد الشك المربوطة في قلبك سوف تتحل.
ولمثل هذا الذى زالت عنه كل البقع يظهر سانات كوامرا المبارك الشاطىء الأبعد وراء الظلام.
يدعونه سكاندا « القافز من شاطىء إلى شاطىء » . سكاندا هو اسمه .

أحبك بشدة

مثل النار المشتعلة

التي تحول وقودها إلى رماد

نار الحكمة

تحول كل الأعمال إلى رماد

الرجل غير الحكيم ، الذى بلا إيمان

الذى يشك من القلب

لا بد وأن يغنى:

لأنور فى هذا العالم لرجل الشك

ولا فى العالم الآخر ولا فى السعادة

وقال الإله المبارك

هكذا أنا أيضا اخترق الأرض

وبهذا أقيم أود كل الكائنات بقوتى

أصبح سوما القمر - النبات ، نفسى رحيق الحياة

أسبب نمو كل الأعشاب الشافية.

عندما أكون النار الهاضمة ، أسكن فى جسد كل مايتنفس

متحدا ، مع الأنفاس الداخلة والخارجة

اهضم الطعام أربع مرات

أجعل سكناى فى قلوب كل شئ

متى تنبثق الذاكرة والحكمة التى تحضض الشك

فى كل الفيدا أنا هو الذى يجب أن يعرف

لأن صانع هدف الفيدا هو أنا وأنا الذى أعرف الفيدا.

من كل هو غامض ، الأكثر غموضا

هذه الحكمة التى حكيت لك عنها

لنتأملها فى كل اتساعها

ثم افعل ماشئت

والآن مرة أخرى ، اعط أنك لهذه كلمتى العليا

الأكثر غموضا :

« أحبك بشدة »

ولهذا سوف أخبرك بخلاصك

أبدا لا يجب أن تخبر بهذه الكلمة

شخصا بعيدا عن الزهد

فارغاً من كل حب وإخلاص

أو شخصا عصيا

أو حاسداً لى .

(البهاجادفاد جيتا)

عظمته

لافرح فيما هو صغير (نهائى) ، وحده اللانهائى هو الفرح

حيث لا يرى المرء شيئا آخر ولا يسمع شيئا آخر ولا يعرف شيئا آخر . هذا هو النهائى . لكن حيث

يرى المرء شيئا آخر ويسمع شيئا آخر ويعرف شيئا آخر فهذا شئ صغير (لأنه نهائى) .

اللانهائى يشبه خالد والصغير النهائى يشبه مايموت .

...

....

على ماذا يقوم اللانهائى هذا ؟

« على عظمته هو وإلا فإنه لا يقوم على أية عظمة »

هذا اللانهائى تحت وفوق وإلى الغرب وإلى الشرق وإلى الجنوب وإلى الشمال . بحق هو كل

العالم .

بعد هذا يأتى التعليم الخاص بالآنا .

« أنا تحت ، أنا فوق ، أنا إلى الغرب ، إلى الشرق ، إلى الجنوب ، إلى الشمال ، بحق أنا كل

العالم » .

بعد هذا يأتى التعليم الخاص بالذات .

« الذات تحت ، الذات فوق ، الذات إلى الغرب ، إلى الشرق ، إلى الجنوب ، إلى الشمال بحق ،

الذات هى كل العالم .

الرجل الذى يرى ويفهم هكذا تكون له المتعة فى الذات ، يلعب مع الذات ، يستلقى مع الذات ،

وتكون له بهجة مع الذات : يصبح سيد نفسه . فى كل العوالم و(طوار الكينونة حرية تكون ملكه .

أما كل من يفهم الواقع على أى نحو غير هذا فيكون عبداً لغيره وأطوار كينونته تصبح قابلة

للغناء وفى كل العوالم أو أطوار الكينونة (لاتكون له حرية حركة .

(الشانوجيا أويانشاد)

الذين لا يرجعون

وهناك يوجد شخص ليس بإنسان.

يقودهم إلى براهمان . هذا هو طريق الآلهة ، طريق براهمان.

أولئك الذين يتبعون ذلك الطريق لا يرجعون أبداً إلى الحياة البشرية لا يرجعون أبداً..

نفس الحياة

أنت لاتقنى

أنت لاتتحرك

أنت صلب فى نفس الحياة

ما الذى سوف أقوله ؟

أنا لا أفهمه حقاً

الخيوط ، أو كيف أنسج ، أو

ما الذى ينسجه بينما بقية المتسابقين يدخلون أرض السباق

هنا بالضبط ذلك الأصل ، انظروا إليه.

هذا النور ، هذا الخالد بين كل هؤلاء الفنانين.

ها هو ، فوق المذبح بثبات

جالس ، لايموت ، ينمو بالجسد.

ضوء ثابت موجود للرؤية - عقل

أكثر هرباً من بين كل ما يهرب !

كل الآلهة ، بعقل واحد وبينية واحدة

تذهب فوراً وراء هذا

نحو هذا الإلهام الأوحى !

بعيدا تحلق أنثاى ، بعيدا

تحلق عيونى .. بعيداً

صوب هذا النور

الذى يقوم فى قلبى

بعيدا يتجول عقلى

روحه تمشى إلى مسافات نائية

ما الذى سوف أقوله فعلاً

أو حتى ما الذى سوف أظنه ؟.

الواحد

واحدة فقط هى أجنى (النار) رغم أنها اشتعلت مراراً

شمس واحدة رغم أنها تشرق للجميع،
واحد فقط هو الفجر رغم أنه يضيئ كل هذا
واحد بحق من هذا الذي أنتج كل شيء.

الباب

(١) ياما يتكلم :

اختر أبناء ، أحفاداً ليعيشوا مائة عام
اختر الغنى فى الماشية والحياد والفيلة والذهب
اختر أملاكاً واسعة فى الأرض
وعش سنوئك بأى عدد منها تشاء
أو إذا فكرت أن هذه عطية مساوية
اختر ثراءً وحياة طويلة
لتكن من العظماء فى الأرض
أمنحك المتعة بكل مايمكن أن ترغبه
كل مايمكن لرجل أن يرغب فيه
فى عالم البشر هذا
ومهما كانت صعوبة نياله
أطلب ماتشاء بملء اشتهاك
نساء جميلات ، عربات ، آلات موسيقى.
مايشبه هذا لايمكن لرجال آخرين الحصول عليه.
كل هذا أمنحك ، اخضع كل هذا لخدمتك
ياناسيكتاس ولاتسألنى عن أى شئ آخر.
له علاقة بالموت.

ناسيكتاس يتكلم :

أيها الموت

إصباحات الانسان تذيب

قوة كل الحواس

الحياة وإن عيشت كاملة قصيرة حقا

لتحتفظ إذن بعربائك ، لتحتفظ بأغانيك ورقصاتك؛

بالثروة لايقنع الانسان

إذ متى رأيته كيف يمكن أن نحصل على الثروة؟.

طالما سنحيا كما تقرر لنا (المدة)

هذه إذن هي العطية الوحيدة التي أسألكها .
 أرى رجال فنانين ، أصابتهم الشيخوخة والبؤس هنا في الأسفل .
 يمكن أن يقابلوا الخالدين ، الغرياء على الشيخوخة .
 يعرفونهم ، ثم يظلون يتأملون الألوان والمتع والمباهج .
 فيجدون بعض السلوى في تلك الحياة مهما طال .
 لكن حيث إن الناس حائرون ويسترييون ، أخبرنا أيها الموت
 ما الذي يحدث عند المغادرة الكبرى ، أخبرنا
 هذه هي الهبة المختبئة في الأماكن السرية (القلوب)
 لهذا فإن ناسيتكاس لا يطلب هبة أخرى

كاتها أويانيشاد

محاسبة الإله

أه يا أجنبي

ابن القوة

الصديق المشرق

الذي نعبد

لو كنت أنت الفاني

وأنا الخالد

لم أكن لأتركك

للأسنة الشريرة

أيها الطيب ، أو للافتراءات على السمعة

أيها الموثوق به

المؤمن بى ماكان ليبقى

فى الحزن

يا أجنبي

أو فى الخطيئة

ماكان ليبقى مكروهاً !

مدينة براهمان

هذه مدينة براهمان الحققة ، فيها تركزت كل الرغبات . هذه هي الذات مستثناة من الشر ، لم
 يمسخها تقدم السن أو الموت أو الحزن ، لم يمسخها الجوع أو العطش ، هذه هي الذات التي رغبته
 هي الحقيقي ، التي فكرتها وإرادتها هي الحقيقي .

(الكتاب الثامن - الشانوجيا - أويانيشاد)

الموت له أمنية

فى البداية لم يوجد شىء هنا أبداً وكل هذا العالم كان مغلقاً بالموت - بالجوع ، وماذا يكون الموت سوى الجوع ؟

وفكر الموت فى نفسه : « فقط لو كانت لى ذات ! » وأخذ يتجول ويثنى على الأشياء .
ومنه - بينما كان يمتدح كل شىء - ولد الماء وقال الموت لنفسه : « نعم ، لقد كانت لى بهجة أن أثنى على الأشياء وهذا ما يأتى بالنار . البهجة هى نصيب من يفهم أن هذا مايجعل النار ناراً » .
ثم تستفيض البرهان رانياكا أوبانيشاد فى وصف كل مايبثق فعندما تمنى الموت نفساً أخرى قام بجامعة الكلام عن طريق العقل وكل ما ولد من هذه المعاشرة كان الموت ياكله وعندما انتفخ كثيراً « لأنه ياكل كل شىء » اشتاق لأن يصيبح جسده مستأهلاً لضحية وأن تكون له هوية تخصه .
لأنه كان منهمكاً ومستهلكاً فى أعمال تفكيرية عنيفة ، الأمر الذى كان يخرج الأنفاس الرئيسية مثل المجد والقوة .

إغواء

إحدى الراعيات المتعبات ضغطت إلى ثديها يد اللوتس البلسمية لكريشنا الذى كان واقفا بجانبها ، وطوال الوقت كانت تغنى وترقص بخلخالها المصلصل وأجراس طوقها .
كل واحدة من الراعيات نالته كمشييق حبيب كشمى (رادها) الأوحده ، ولعبن وأنشدن فيه المدايح بينما ذراعاه تطوقان أعناقهن .

رقصت الراعيات مع الإله فى تجمع الراسا الذى يغنى فيه النحل بمصاحبة أصوات أساورهن وحليهن . أكاليهلن كانت تنزلق من شعورهن ووجوههن تلمع من العرق . خدودهن كانت مزينة بأطراف خصلات شعرهن ويراعم اللوتس مدلاة على أذانهن .

وهكذا لعب سيد لا كشمى مع جميلات فراجا مثل طفل مرتبك بانعكاسات وجهه فى المرآة ، محير بالضحك وألعاب الحب غير المقيدة ونظرات الغرام والعناق والأحضان .

كانت حواسهن فى اضطراب بفعل اللذة الشديدة التى أحسسن بها من لمس جسده وصارت نساء فراجا اللواتى انزلت أكاليهلن وحليهن غير قابرات على تمليس شعرهن أو حجابهن أو شدادات صدورهن أبها الكرو العظيم فقدت نساء الآلهة فى عرياتهن السماوية وعيهن عند رؤية ألعاب كريشنا كن يتألمن من الحب أما القمر فكان بكل حراسه فظلوا فى عجب .

وضاعف (الإله) نفسه بحيث صارت منه نسخ بعدد ما هناك من النساء وعلى الرغم من أنه مكثف بنفسه ويستمتع بذاته إلا أن الإله استمتع باللعب بينهن .

الحنون ، ظل يمشط وجوههن بيده مائحة البلسم ، أبها الملك أنكا ، بعد أن أرهقهن الجماع العنيف . عظمته الراعيات بنظرات ضاحكة كرحيق ، لامة بجمال الخلود المشدق الذى تجمله خصلات شعرهن وأقراطهن الذهبية المرتعشة ، ذلك الثور بين الرجال وهن يرتجفن من لمسة أظافره ويتغنن بأفعاله المباركة .

والتخايصهن من تعبين نزل معهن إلى الماء متبوعا باله الموسيقين الإلهيين - النحل الذى كان يحلق حول إكليله كان إكليله الآن مهروساً فى الأحضان من أجساد الراعيات وأرجا بخفة برائحة الصندل من أثمانهن تماماً مثل قيل - ثور متعب يحطم السدود وهو يقفز فى الماء مع إنائه الفيلة، منتثر تماماً بالماء من جانب النساء الضاحكات ومغمور ، أيها الملك ، من كل جانب ، بالحب ، ومكرم من هؤلاء الذين فى العربات الإلهية وهم ينثرون البراعم ، أخذ متعته معهن هنا كيفما أراد وهو يلهو تكليل / ثور رغم أنه يستمتع بذاته . ثم بعد هذه الألعاب المائية بدأ يتجول فى الغابة بجوار نهر اليامونا مثل ثور شهوانى مع إنائه يحوطه النحل والراعيات المفتونات وفى كل ركن من الغابة كان الهواء متبلاً بقطر براعم من الأرض أو الماء.

بهذه الطريقة كان كريشنا يقضى كل الليالى المجيدة مع أشعة القمر وحيث يوجد مزاج الحب الذى يناسب الحكايا فى شعر الخريف ، محاطا بنسوة مفتونات ، صادقاً فى رغباته ومحققاً بمنيه بداخله.

ثم تكلم الملك :

الإله سيد الكون نزل فقط جزءه من نفسه ليقيم النظام الأخلاقى ويقمع ما يخالف ذلك. كيف يمكن له ، للمعلم ، الخالق ، حامى الحدود الأخلاقية أن يفعل هذا الفعل النقيض أيها البراهمانى ويلمس زوجات رجال آخرين ؟ لماذا فعل سيد الياو (سكان فراجا واسم ملكها الذى انحدر منه كريشنا) الذى كل رغباته محقة شيئاً مقززاً ؟ أيها الحكيم ، امحق شكى أنا الذى أراعى تعاليمك إلى حد القسوة. تكلم سوكا الجدير بالاحترام فقال :

هذا التجاوز لما هو صحيح ، وهذا الإفراط فى إشباع الشهوة من خصائص الآلهة لا يدمر أهل الرعونة والنزق مثلما لا يمكن أن يدمر النار الأكلة.

كل من ليس إلها لا يجب أبداً - ولا حتى فى الفكر - أن يفعل ما فعله هو (الإله) .

ماتعلمه الآلهة حق وأحياناً كذلك يكون بعض ما يفعلونه . الرجل الحكيم يجب أن يفعل ما يتفق مع ما يفعلونه . أولئك الذين تمتعهم عبادة تراب أقدامه اللوتس ، والحكماء الذين نقضوا عنهم أسر كل الأفعال السابقة بقوة اليوجا التى مارسوها يمكن أن يسلكوا كيفما يريدون بدون الأسر كنتيجة للأفعال المرتكبة . (ثم أنه يفعل هذا بجسد اكتسبه هو بارادته) .

لم يغضب رجال فراجا من كريشنا إذ أنهم اتخذوا ببقوته الهائلة . كل منهم ظل يعتقد أن زوجته بجانبه.

وانتجبت الراعيات بصوت عال وهن يغنين لإله الحب نفسه مجسداً أمام عيونهن . مكللاً ومرتدياً الأصفر بابتسامة على وجهه اللوتس. وعندما رأين أن حبهن قد جاء اتسعت أعين النساء بالبهجة ووقفن جميعاً فى لحظة واحدة مثل أطراف الجسد عندما يدخلها نفس الحياة.

إحدى الراعيات أمسكت بفرجة بيد ساوورى اللوتسية بكلتا يديها وأخرى رفعت على نراعها

نراعه المملوطة بالصندل وراعية أخرى نحيلة أمسكت بالبقايا الممضوغة لبزرة الكوثل التي كان يحملها وراعية أخرى - على أذنانها وثمة راعية منجذبة بعنف عشقها جدلت حاجبها وعشت شفقتها ، وظلت تحدج ذاهلة كما لو كانت ستقتله بهجمات تحديقها الجانبى الطويل.

لم تكثف أحداهن على الرغم من أنها شربت رحيق لوتس ووجهه وتبلته بعيون لاترف مثل الحكماء الذين يتأملون أقدامه فحسب.

وهناك راعية أدخلته فى قلبها من فتحتى عينيها وأغلقتهما وظلت تحضنه هكذا بكل شعيرات جسدها منتصبه مغمورة بسعادة قصوى مثل يوجى.

كلهن ابتهجن إلى أقصى حد لمرآه هو " وليمة للعيون ، ونفصن الألم الذى عانيته من أثر فراقه متلما يحدث للناس الذين ييلفون الكلى المعرفة.

(البهاجافاتا يوراننا)

مقارنة

« الشخص والطبيعة » : ما هذا ؟

كلاهما بلا بداية . أعلم هذا

وأعلم أن التغير والخصيصة

تنشأ من الطبيعة .

يقولون إن الطبيعة نفسها

سبب الأسباب والنتيجة والوسيط

ويقال إن « الشخص » ، هو السبب

فى تجربة المتعة والألم

(البهاجافاتا جيتا)

بحر

ولما صار جواداً مطهماً حمل الآلهة ولما صار فحلاً حمل الآلهة الأقل مكانة (الجاندهارفا) ولما

صار فرساً سريعة حمل الشياطين فلما صار حصاناً حمل الرجال.

البحر يمت له بصلة قريى.

البحر مكانه

(الريح فيدا)

العالم كجواد القربان

أوم*

حقا الفجر رأس جواد القربان ، الشمس عينه ، الريح نفسه ، النار الكونية فمه المفتوح . العالم

جسد جواد القربان ، السماء ظهره ، الهواء كرشه ، الأرض الجزء الأسفل من كرشه ، أرباعها

جوانبه والأرباع الوسطى ضلوعه ، المواسم أطرافه ، الشهور وأنصاف الشهور مفاصله ، الأيام

والإيالي أقدامه ، النجوم عظامه ، السحب لحمه .

الرمال هو الطعام الذى فى معدته ، الأنهار أحشائه ، كبده ورثاه هما الجبال ، والنباتات والشجر هما شعره . الشرق جسده من أمام ، والغرب عجيزته ، حين يتأهب يكون ضوء ، حين يهز نفسه تكون صاعقة ، وحين يبول يكون مطر .

* أوم : الحرف المقدس فى البوذية التبتية(هناك أنواع من البوذية) وفى الهندوسية .
(الكتاب الأول - برهادارنياكا أوبانشار)

ما يجب فعله

بعد أن يستمعوا إلى هذا يجب أن يعوبوا إلى بيوتهم يتقدمهم الأطفال . ويهدوء يجب أن يمشفوا أوراق شجرة النيم (النيمبالكيا)

(الياجنافالكيا)

فناء

الأرض سوف تقنى والمحيط والالهة سوف يفنون
كيف للبشر الذين كالزبد ألا يفنوا ؟

(الياجنافالكيا)

لا تبك

كعاجز يبتلع الميت للعباب والدموع التى يتركها أقاربه تسقط .
لهذا لا يجب أن يبكى المرء ..

(الياجنافالكيا)

نتعلم الأمل

ذلك الذى وضعت فيه الأجزاء ، مثل مكايح فى محور العجلة . أعرفه مثل روح يجب أن تجربها بحيث لا يبدو الموت وكأنه يحوطك بشكل كامل .

(من أشعار الريح فيدا)

عقل الشعب

من الرغبة تنبثق الرغبة

تقفز من قلب إلى قلب

عقل شعبى

اجعل ذلك العقل عقلى !

(الريح فيدا)

دعاء لعدم الخضوع

ليظل صوتى قوياً

ولا يهتز نفسى

ليظل إبصارى وسمعى حاداً
ولا يتحول شعري إلى الرماد
أو تصبح أسناني سوداء
ولا تضعف زراعى أو تصبحان بطيئتين
لتظل أردافى صلبة
وسيقانى سريعة العدو
ولا تتعثر أقدامى أو تتدل بضعف
لتبقى أطرافى كاملة
كل منها يؤدى وظيفته
لتظل روحي إلى الأبد غير خاضعة!

(الريح فيدا)

ليأت السلام بالسلام
السلام على الفرديس ، على السماء وعلى الأرض
السلام على المياه ، على النباتات وعلى الأشجار
السلام على الآلهة ، على براهيمان السلام
السلام لكل الناس ، مرة ثم مرة أخرى
- السلام أيضا لى

(الريح فيدا)

حيرة الأوزة
فى عجلة الخليفة المضخمة هذه
حيث كل من الحياة والموت موجودان للجميع
الأوزة تدور ، محتارة
تعتقد أن روحها الداخلى ، ومن يدير العجلة.
مختلفان
ثم - ملهمة بذلك - تجرب خلودها

(الريح فيدا)

أن لاتكون منقسما
متحد أنا ، غير منقسم إطلاقا
روحي متحد
بصرى متحد
سمعى متحد

نفسى متحد - فى الشهيق كما فى الزفير

نفسى المستمر متحد

متحد ، غير منقسم إطلاقاً

كلى

(الريح فيدا)

ومن أغنية طويلة للوقت فى الأيسا أويانيشاد نقتطع الآتى:

الوقت جمع معا كل الكائنات

وعبر بداخلها

ذلك الذى كان أباً صار ابنهم

ليس من مجد أعظم من هذا

الوقت هو الذى أتى بالصدفة المحشوة بالقدر.

فى الوقت الشمس تشرق وتحترق

فى الوقت العين تتلصص من مسافة

فى الوقت كل الموجودات تكون .

فى الوقت تكون الطاقة والخير الأعلى

فى الوقت الحرف المقدس

الوقت إله كل ماهو كائن

الأب ، هو ، الخالق.

الوقت خلق المخلوقات . الوقت

خلق فى البداية إله المخلوقات

من الوقت يأتى الموجود بذاته.

أما الحب فهو المبدأ الأول للنشاط أو قوة كونية ، تدفع الكائن الأعلى خارج دائرة وجوده الضيقة

لهذا يترنم الهندوسى لكاما أو الحب بوصفه « أقدم الكل » أول مولود ، « وأعلى من جميع الآلهة » فى

ترانيم طويلة.

وفى البهاجافادا جيتا يقول الإله :

بين آلاف الرجال ربما واحد فقط

سوف يسعى إلى الكمال

وحتى بين هؤلاء الأبطال الذين فازوا بتاج الكمال

ربما ، واحد فقط سوف يعرفنى كما أنا فعلاً.

أعلى منى

لا يوجد أى شئ

الكون قد تمت خياطته فوقى
 مثل لؤلؤ متكامل على خيط
 فى الماء أنا النكهة.
 فى الشمس والقمر النور
 فى كل الفيدات أوم (الحرف المقدس)
 فى الفضاء أنا الصوت : فى الرجل أنا فحولته.
 الرائحة الصرفة فى الأرض أنا
 ومستهل الشعلة فى النار
 والحياة أنا فى كل الكائنات الطارئة.
 وفى الزاهدين زهدهم القاسى
 أعلم إننى أنا البذرة الأبدية
 لكل الكائنات الطارئة
 أنا العقل فى العاقل
 والمجد فى الماجد أنا
 القوة فى القوى هى أنا
 تلك القوة التى لاتعرف العواطف المشبوية أو الرغبة:
 الرغبة أنا فى الكائنات الطارئة
 لكنها الرغبة التى ليست فى حوب مع الحق
 أعلم كذلك أن كل أطوار الكينونة سواء أكانت من مكونات الخير أو العواطف المشبوية أو الظلام
 فى الطبيعة تخرج منى
 لكنى لست فيها ، هى التى فى.
 بأطوار الكينونة الثلاثة هذه
 الكامنة فى المكونات
 يضل هذا العالم
 ولا يفهم
 أننى أبعد منها كثيرا
 أنا لا أتغير ولا أموت
 كل الكائنات ماضية وحاضرة
 والتى سوف تنأتى
 أنا أعرفها
 لكنى لا يوجد من يعرفنى

ياما (سيد الموت) يتكلم :
 إذا فكر القاتل : « أنا أقتل »
 وإذا فكر المقتول : « لقد قتلته »
 كلاهما لا يملك معرفة صحيحة
 فلا القاتل قاتل
 ولا المقتول مقتول
 أكثر غموضا من الغامض ، أعظم من العظيم .
 الذات مختبئة في قلب المخلوقات هنا
 الرجل الذي بلا رغبة وأنفق كل حزنه يراها
 جلال الذات ، برحمة الخالق . (بعناصره الهائلة)
 جالسا يصل لأماكن بعيدة
 راقدا يبلغ كل الأماكن
 هذا الإله هو البهجة واللاهجة
 من سواى يستطيع أن يفهمه ؟
 فى الأجساد بلا جسد
 فى الأشياء غير المستقرة تسكن
 الذات ، الإله الأعظم
 بالتفكير فيها ، الحكيم لا يعرف الحزن .
 هذه الذات لا تكتسب بالوعظ
 ولا بالتضحية ولا بالحكايا الكثيرة المسموعة
 به وحده يمكن أن يفهم بناء على من ينتخب
 وله تكشف هذه الذات شكلها الحقيقي .
 رغم أن هناك من تستوى عندهم
 كرامة البراهمان والأمير كطريق أرز
 الموت بهريزه وبهاره
 لكن - أين هو- من الذى يعرف حقاً ؟
 أعلى من الحواس أهدافها
 وأعلى من هذه العقل
 وأعلى من العقل الروح
 وأعلى من الروح الذات . الأعظم
 أعلى من الأعظم ، غير الظاهر

أعلى من ذلك « الشخص »
ليس هناك أعلى من الشخص
هو الغاية ، أعلى الطرق.

الحكمة المطلقة

« أظن » ، قال بوذا المستقبل ، « أن هذا لا يمكن أن يكون المكان المناسب للحصول على الحكمة العليا » ، ومشى حول شجرة البو أو التينة المقدسة بجانبه الأيمن وبلغ الناحية الغربية واتجه إلى الشرق . ثم عرق النصف الغربي من العالم حتى بدا كما لو أنه يلامس جحيم أفيسي بينما صعد النصف الشرقي إلى أعالي الفريديس حقا ، أينما وقف البوذا كانت الأرض العريضة تصعد وتسقط كما لو كانت عجلة عرية ضخمة راكدة على محورها ويقف أحدهم على إطارها .

« أظن » ، قال بوذا المستقبل ، هذا أيضا . لا يمكن أن يكون المكان المناسب للحصول على الحكمة العليا « ومشى حول الشجرة بجانبه الأيمن حتى بلغ الناحية الغربية واتجه نحو الجنوب ثم غرق النصف الشمالي من العالم حتى بدا كما لو أنه يلامس جحيم أقيسي بينما صعد النصف الجنوبي إلى أعالي الفريديس .

« أظن » قال بوذا المستقبل « ولا هذا يمكن أن يكون المكان المناسب للحصول على الحكمة العليا ومشى حول الشجرة بجانبه الأيمن حتى بلغ الناحية الشرقية واتجه نحو الغرب . الآن على الناحية الشرقية من أشجارهم - شجر البو يجلس البوذا بسيقان معقودة وتلك الناحية لاتتهتز أو تتزلزل .

ثم قال الكائن العظيم لنفسه « هذه هي النقطة التي لاتتحرك حيث زرع كل البوذات أنفسهم ! هذا هو المكان (الصالح) لتدمير شبكة العواطف المشبوبة ! ثم أخذ حفنة الحشيش في كفه من ناحية وهزها ، وعلى الفور شكلت شفرات الصائش نفسها على هيئة مقعد سعته أربعة عشر ذراعا ، وبسيميترية في الشكل لايقدر حتى أكثر الرسامين أو النحاتين مهارة على تصميمها .

ثم استدار بوذا المستقبل معطيا ظهره لجذع شجرة البو باتجاه الشرق واتخذ القرار القوي :
ليجف جلدي وأعصابي وعظامي ، مرحبا ! ليحف كل اللحم والدم في جسدي لكنني إن أتزحزح عن هذا المقعد حتى أنال الحكمة العليا والمطلقة !»

وأجلس نفسه عاقدا ساقيه في وضع لايهزم حيث لم يكن بإمكان حتى مائة ضربة من الصواعق مرة واحدة أن تزحزحه .

وتعرفنا البهاجا نفادجيتا بمن يكون اليوجي:

اليوجا ليست لمن يأكل أكثر من اللازم

أو لمن لا يأكل على الإطلاق

ولا لمن يميل إلى النوم

أو لمن يظل مستيقظا على النوم.

الأخرى أن اليوجا لمن يعرف الوسط في الطعام واللهو.

الوسط في كل أفعاله ولحاته

الوسط في النوم مثل اليقظة

هذه هي اليوجا التي تسلك الأكم

....

....

لأنه حتى من لا يفعل

أكثر من أن يتمنى أن يعرف ما هي اليوجا

يتجاوز ذلك البراهمان الذي ليس أكثر من طقوس كلامية

اليوجى أعلى من مجرد زاهد

نعم أعلى من رجل الحكمة

أعلى من رجل العمل

لتكن إذن يوجيا يا أرجونا

ومن سماته - كما يدل النص الصريح أنه - الممثل حكمة وفهما ، هادئ ومسيطر على نفسه ،

وبالنسبة له كتلة الطين وقطعة الحجر والذهب شئ واحد :

الذي قلبه محاييد نحو الأعداء والأصدقاء والرفاق

غير مبال ومحاييد

للكهريهين والأقارب والقديسين والخطاة

لقد انتصر بحق

ليضع مقعداً ثابتاً في مكان نقي تماماً

ليس عالياً جداً أو واطئاً جداً

ليغطه بالعشب المقدس ، وجلد الغزال

وأخيراً بقطعة قماش

الحرية

سوف ينال الحرية هذه هي الأويانشاد

(الأويانشاد)

وفي طقوس الزواج الهندوسى يقول العريس لعروسه وهو يأخذ يدها :

« تعال ، أيتها الجميلة ! » ثم يضع طرف قدمها اليمنى على حجر وهو يقول :

« تعال ، لتطئ الحجر كرنى قوية مثل حجر . قاومى الأعداء ، تغلبى على مهاجميك . »

وينثر بعض الحبوب المحمصة فى كفها للتوحد ثم يدفعها لأن تنثر الحبوب فى النار التى أمامهما وهى تدعو لأقاربه وتباركه ويمشيان حول النار بأطراف ثيابهما معقودة فى بعضها يطلبان الأطفال ويكرران الطواف ثم ترمى المرأة كل ماتبقى معها من حبوب فى النار ويبدأ غناء العريس بينما تخطو زيجته سبع خطوات إلى الشمال الشرقى فيقول :

خطوة للقوة

خطوتان للحبوبة

ثلاث خطوات للزدهار

أربع خطوات للسعادة

خمس خطوات للماشية والرزق

ست خطوات للمواسم

سبع خطوات للصداقة

كونى مخلصه لى.

ثم يطلب منها أن تقف وهو يقول (نلاحظ صمت الزوجة بينما الزوج والكاهن هما اللذان يقودان مراسم الزواج):

بهذه الخطوات السبع صرنا صديقين

اجعلينى أصل إلى صداقتك

لا تقطعينى عن صداقتك

ولا تقطعى صداقتك عنى.

ثم يلمس قلبها من ناحية كتفها الأيمن وهو يقول :

« أمسك قلبك فى رفقة خدمة

عقلك يتبع عقلى

تفرحين بكلمتى من كل قلبك

فقد توحدت بى عن طريق إله جميع المخلوقات ».

وعندما تبلغ بيته والأهل خلفهما يحملون النار فى وعاء ، تدخل بقدمها اليمنى فاذا رأيا النجم

القطبى ليلا وهما صامتان يقول لها :

« أنت صامدة وأنا أراك

كونى صامدة معى أيتها المزهرة

براهاسباتى منحتك لى

إننى عيشنى معى مائة عام

وانجبى أطفالا منى

أنا زوجك » .

الذى لا يتالم

هو الذى يعيش فى العين وليس بعين ، الذى لاتعرفه عين ، الذى جسده هو العين ، الذى يتحكم فى العين من الداخل - هو الذات بداخلك ، المتحكم الداخلى ، الخالد .

هو الذى يعيش فى الجلد وليس بجلد ، الذى جسده هو الجلد ، الذى يتحكم فى الجلد من الداخل - هو الذات بداخلك ، المتحكم الداخلى ، الخالد .

هو الذى يعيش فى النفس وليس بنفس ، الذى لايعرفه نفس ، الذى جسده هو النفس ، الذى يتحكم فى النفس من الداخل ، هو الذات بداخلك ، المتحكم الداخلى ، الخالد .

(وهكذا يستمر النشيد بالنسبة للريح والأذن والأرض والشمس والقمر والعقل والمنى ، أى تقريبا كل ملموسات ومجردات الحياة والانسان بقدر مايملك العقل من إحصاء حتى ينتهى النشيد بالكلمات التالية :

هو الرأى غير المرئى ، السامع غير المسموع ، المفكر غير المفكر به ، الفاهم غير المفهوم . غيره لا يوجد راء ، غيره لا يوجد سامع ، غيره لا يوجد مفكر غيره لا يوجد فاهم . هو الذات بداخلك ، المتحكم الداخلى ، الخالد .

كل مالىس هو يتالم .

الحسبة بين الدولة

المدنية والدولة الدينية

مركز المساعدة القانونية

لحقوق الإنسان

تم إعداد الدراسة التالية قبل أن يذاع مشروع القانون المنظم لدعاوى الحسبة. ويراجعة النص الكامل لهذا المشروع ومذكرته الإيضاحية كما نشر في جريدة الجمهورية بعدها الصادر في ٢٧/١/١٩٩٦ ، نجد أن تلك المذكرة -بعد أن تستعرض فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفكرة الإخلال بحقوق الله تعالى أو بالحقوق التي يغلب فيها حق الله تعالى- تنص على أنه : «لكل مسلم استعداد القاضي مبلغا إياه بوقوع إخلال بحق الله تعالى ، أو بتلك الحقوق التي يكون حقه غالبا فيها، والشهادة عنده بوقوع هذه المخالفة ، لاتخاذ ما يلزم لتقويمها عند ثبوتها».

لا يجد المركز ثمة ما استجد بحيث يدفعه لإعادة النظر في هذا التقرير لأن ما تضمنه المشروع ومذكرته الإيضاحية ، إنما يؤكد بجلاء واضح صحة الاستنتاج الذي يخلص إليه التقرير من أن دعوى الحسبة إنما في حقيقتها تعكس رؤية طائفية وتقييم تمييزا على أسس دينية ضد المواطنين غير المسلمين ، كما تقيم من الناحية الأخرى تمييزاً قائما على أساس الجنس ضد المرأة سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة.

كما تتعارض مع حقيقة أن مجتمعنا المعاصر قائم على أسس قومية، ولم يعد يتخذ من الديانة أساسا له فالحسبة كمفهوم، وكنظام ، وكدعوى لم تعد تتسق مع حق المواطنة المعاصرة، أي لم تعد تتسق مع الدولة المدنية، وإنما تتسق كامل الاتساق مع الدولة الدينية، وبشكل خاص مع الدولة الدينية التي لا تعرف تعدد الأديان كمجتمعنا المصري المعاصر.

١- تعريف الحسبة وتطور نطاقها:

عرف الإسلام نظام الحسبة، بوصفها وظيفية دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد اقتصر عمل المحتسب على ما يتعلق بالغش والتدليس، وهو ما ينعكس على معناها الشرعي، فأصل الحسبة الشرعية مشاركة السوق (شارف الشئ : قاربه ودنا منه) والنظر في مكاييله وموازينه، ومنع الغش والتدليس في المعاييش وغيرها في المكاييل والموازنين وله حمل المماثلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم وكائنها أحكام ينزهه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء.

تطور نطاق الحسبة ليصبح أمرا بمعروف ظهر تركه ، ونهيا عن منكر ظهر فعله ، وإصلاحا بين الناس (الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية- القاهرة- دار الفد- ص ٦٠٤

حتى ٦٠٥). كانت الحسبة تدخل في ولاية القاضي في كثير من العصور ، ولكن لما صار نظر السلطان عاما في السياسة ، اندرجت في الوظائف التابعة له ، وأفرنت بالولاية . وقد أدى انصلاح ولاية الحسبة عن القضاء واعتبار سلطة المحتسب مستمدة من سلطة الخليفة، إلى مساوئ كثيرة، من أهمها تنازع الاختصاص بين الولايات ، واقتيات المحتسبين ، ورجال الشرطة ، على اختصاصات القضاء، كما أدى إلى قيام السلاطين بتسخير المحتسبين لتحقيق مآربهم الخاصة، لدرجة قيامهم بمنع المصريين من كثرة الكلام ، لما اشتهروا به من السخرية بالمالك وسلطانهم (دعوى الحسبة- د. حسن الليدي- مركز الطباعة والنسخ- أسبوط -١٩٨٣-ص١٦٨ و١٦٩).

٢- تعريف المحتسب:

هو الذي يقوم بوظيفة الحسبة وهو من أرباب الوظائف الدينية، وقد ثبت أن الرسول هو أول من استعمل المحتسب في نظامه ،حيث تولى ذلك الأمر بنفسه فكان يتفقد الأسواق ويأمر وينهى، كما ثبت أنه استعمل من أصحابه من يقوم بهذا الأمر حيث استعمل سعيد بن العاص على سوق «مكة المكرمة» واستعمل عمر بن الخطاب على «سوق المدينة المنورة» (الموسوعة ٦١٦-٦١٧) إلا أن لفظ المحتسب لم يستعمل إلا في عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨-١٦٩هـ)، (الموسوعة-ص٦٠٥).

٣- نوعا ولاية الحسبة:

تنقسم الحسبة من ناحية أسباب ولايتها إلى ولاية أصلية (المتطوع) وولاية تبعية (المحتسب).

أ- الولاية الأصلية (المتطوع):

وهي التي تستمد أساسها من تكليف الشارع بها لكل من تتوافر فيه الأهلية اللازمة للقيام بها، وذلك في الحالات التي يكون فيها المكلف أولى الناس بإنفاذ الحكم إليه في القيام بالحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،على من ولاهم عليه كزوجته وأولاده ، أو المروسين له في العمل فهو بحكم ولايته عليهم يعد من أولى الناس بإنفاذ القيام بها إليه .(عن الحسبة ونور الفرد فيها- د. عبد الله مبروك النجار- كتاب مجلة الأزهر- شهر ذي الحجة ١٤١٥هـ ص٥٣).

ب- الولاية التبعية (المحتسب):

وهي الولاية المستمدة من قرار التعيين الصادر من الخليفة أو الأمير ، وتتضمن هذه

الولاية كما تتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه الطلب مباشرة ، وتتضمن كذلك القيام بما يؤدي إلى اجتناب المنكر ، لا على وجه الطلب ، بل على وجه الادعاء والاستعداد ، وذلك بالتقدم إلى القاضي بالدعوى ، وبالشهادة لديه ، أو باستعداد المحتسب (النجار- ص ٥٤).

ج- الفرق بين سلطات المتطوع والمحتسب:

١- فرض الحسبة متعين على المحتسب بحكم الولاية ، وفرضه على المتطوع من فروض الكفاية.

٢- قيام المحتسب بالحسبة واجب لا يجوز أن يتشاغل بغيره بوقام المتطوع بالحسبة من نوافل الأعمال يجوز تشاغله عنه لغيره.

٣- المحتسب منصوب للاستعداد إليه فيما يجب إنكاره وإبلاغه بالمخالفات التي تقع من المنحرفين ، والمتطوع ليس منصوباً للاستعداد.

٤- من واجبات وظيفة المحتسب أن يجيب طلب من استعدى به وأبلغه بالجريمة أو المخالفة ، وذلك ليس على المتطوع.

٥- على المحتسب أن يبحث عن المنكرات الظاهرة ، ليصل إلى انكارها ، ويفحص عما ترك من المعروف الظاهر ، ليأمر بإقامته وليس على غيره من المتطوعة بحث ولا فحص.

٦- للمحتسب أن يتخذ على الإنكار أعواناً ، لأنه منصوب لهذا العمل وليس للمتطوع أن ينسب لذلك أعواناً.

٧- للمحتسب أن يعزر على المنكرات الظاهرة ، ولا يتجاوزها إلى الحدود وليس للمتطوع أن يعزر على منكر.

٨- للمحتسب أن يرتزق من بيت المال فيأخذ أجره من الدولة ، وليس للمتطوع أن يأخذ اجرا على عمله.

٩- للمحتسب أن يجتهد فيما تعلق بالعرف دون الشرع ، فينكر ما أداه إليه اجتهاده ، وليس للمتطوع ذلك. (النجار- ص ٥٥ و ٥٩).

د- شروط المحتسب:

لقد أوصلها بعض الفقهاء إلى سبعة شروط يجب أن تتوافر في المحتسب ، ويستنصر كلامنا هنا على شرط إسلام المحتسب وشرط الذكورة

* إسلام المحتسب:

يجب أن يكون المحتسب مسلماً، ذلك أن الحسبة عمل يتضمن تنفيذ أحكام إسلامية تتحمل بالعقيدة الدينية، أو تستمد أحكامها من مصادر التشريع الإسلامى فى الكتاب والسنة والإجماع (النجار-ص ٥٨). وبالنسبة لدعوى الحسبة تحديداً وكيف الفقهاء هذا الشرط على النحو التالى: لما كانت دعوى الحسبة نوعاً من الشهادة فإنه يشترط نية من يدعى حسبته الشروط التى تطلب فى الشهادة ومن شروط جواز قبول الشهادة فى الشريعة الإسلامية أن يكون الشاهد مسلماً لأن فى الشهادة ولاية، ولا ولاية لكافر على مسلم (نظرية المصلحة فى الدعوى- د. عبد المنعم الشرقاوى -القاهرة - ط أولى ١٩٤٧ ص-٣٧٩).

* شرط الذكورة:

ذهب طائفة من أهل العلم إلى اشتراط الذكورة فحين يتولى الحسبة، وقالوا إن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجالس، ولا أن تخاطب الرجال أو تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير، وعند أبى حنيفة تلى الحكم فيما تجوز لها فيه الشهادة (النجار-ص ٦٧) ويشترط فى بعض الأمور كالحدود أن يكون الشاهد ذكراً (الشرقاوى-ص ٢٨٠) وقد ذهب البعض إلى اجازة أن يكون مدعى الحسبة امرأة بدون أى قيود (البيدى-ص ١٦٨).

٤- دار الحسبة:

أول من أنشأها عمر رضى الله عنه بحيث ولى عبد الله بن عقبة على النظر فى الأسواق والتفتيش على المكائيل والموازين ومنع الغش فيما يباع ويشترى (الموسوعة-ص ٦٠٥). وفى العهد العثمانى استبدل باسم دار الحسبة اسم البلدية وباسم المحتسب رئيس البلدية (الموسوعة-ص ٦٢٤).

٥- دعوى الحسبة:

تكون فى حقوق الله تعالى أو فيما غلب فيه حق الله وهى الحقوق التى يجب على كل مسلم المحافظة عليها، وعرفها البعض بأنها استعداد من له ولاية القضاء بوجود مخالفة لحق من حقوق الله تعالى أو لحق غلب فيه حق الله تعالى، والشهادة عنده بوقوع هذه المخالفة سواء بطريق الرفع، أو بطريق الدفع، لاتخاذ ما يلزم بالنسبة لها (البيدى-ص ٦).



٦- حقوق الله في لغة القانون المعاصر:

الكثير من الباحثين الإسلاميين عند تناوله لنظام الحسبة يجعل حقوق الله مرادفة لفكرة النظام العام والآداب العامة المعمول بها في نطاق القانون الوضعي المعاصر. فالليبيدي مثلاً يذهب إلى أن القانون المعاصر قد عبر عن فكرة حقوق الله، بأنها تلك الحقوق التي ترتبط بالنظام العام والآداب العامة في المجتمع بحيث اعتبر القانون المعاصر بعض هذه الحقوق لصيقة بشخصية الإنسان لا يجوز له التنازل عنها، وربط بعضها الآخر بفكرة النظام العام والآداب العامة، فلا يجوز للفرد الاتفاق على ما يخالف مقتضيات النظام العام وحتى لو كان في ذلك تضحية بمصلحته الخاصة، بتشكيل فكرة النظام العام والآداب، قدراً من القواعد، تمثل الحد الأدنى من القواعد اللازمة لحماية المجتمع من الانحلال (الليبيدي ص ٥٤).

وهنا نجد مفارقة لفكرة النظام العام العلمانية نجدها تتحول إلى فكرة حقوق الله وهي فكرة دينية عقائدية فالأولى تخاطب جميع المواطنين بغض النظر عن موقفهم من المعتقدات الدينية والثانية تخاطب أتباع دين محدد ولا تخاطب جميع المواطنين. وهذا الإحلال لا يستقيم مع حقائق العصر إلا إذا نزعنا الرداء الديني لفكرة حقوق الله، أو جردنا غير المسلمين من حق المواطنة، أو على الأقل اعتبرناهم يتمتعون بحق مواطنة منقصة. كما ينتقص من حق المرأة المسلمة مقارنة بالمواطن المسلم. وبعبارة أخرى: قبول مبدأ تأسيس الدولة على أسس دينية. إن تصور القائلين بضرورة تعميم دعاوى الحسبة في كل فروع القانون المصري إنما ينطوي على رفض تأسيس الدولة المدنية الحديثة والمطالبة بتأسيس الدولة الدينية.

٧- توسع القضاء الإداري في شرط المصلحة لا علاقة له بدعاوى الحسبة:

من المبادئ المستقرة في فقه القانون: أنه حيث لا مصلحة فلا دعوى وهو ما نص عليه صراحة في المادة الثالثة من قانون المرافعات وفي الفقرة الأولى من المادة ١٢ من قانون مجلس الدولة. وإن كان هذا لا يمتنع من اختلاف نطاق ومدلول مفهوم المصلحة بين فقه القانون الخاص وفقه القانون العام، بل من الممكن أن يختلف هذا النطاق من مجال قانوني إلى آخر في داخل ذات الفقه. ففي قانون المرافعات نجد أن المصلحة التي تبرر قبول الدعوى يجب أن تستند إلى حق اعتدى عليه أو مهدد بالاعتداء عليه وهي ذات

القاعدة التي تسرى على دعوى التعويض أمام القضاء الإداري (دعوى القضاء الكامل) حيث يشترط في رافعها أن يكون صاحب حق أصابته جهة الإدارة بقرارها الخاطئ بضرر يراد رتقه وتعويضه عنه في الحالتين ربط بين المصلحة والحقوق الشخصية.. أما في دعوى الإلغاء أمام القضاء الإداري فنجد فصلا تاما بين المصلحة والحق وترتبط المصلحة هنا بالمركز القانوني، حيث لا يشترط في المصلحة التي تبرر قبول الدعوى أن تستند إلى حق لرافعها اعتدت عليه السلطات العامة، أو مهدد بالاعتداء عليه بل يكفي أن يكون ذا مصلحة شخصية ومباشرة في طلب الإلغاء والمصلحة الشخصية هنا معناها أن يكون رافع الدعوى في مركز قانوني خاص أو حالة قانونية خاصة بالنسبة إلى القرار المطعون فيه من شأنها أن تجعله - ما دام قائما - مؤثرا في مصلحة ذاتية للطالب تأثيرا مباشرا.

وقد توسع القضاء الإداري في تطبيقه لشرط المصلحة في دعاوى الإلغاء فاكثفت في حالات بقبول الدعوى تأسيسا على مجرد توافر صفة المواطنة لرافعها، فيكفي هذا ليكون له مصلحة شخصية مباشرة في الطعن على القرار محل البحث. قضت محكمة القضاء الإداري بتاريخ ١٩٨٠/٤/١ في الدعوى رقم ٦٩٢٧ بأنه: «من المقرر أن صفة المواطن تكفي في بعض الحالات لاقامة دعوى الإلغاء طعنا في القرارات الإدارية التي تمس مجموع المواطنين المقيمين في أرض الدولة وتعرض مصالحهم أو صحتهم أو مستقبلهم للأخطار الجسيمة» وكانت الدعوى تتعلق بدفن النفايات الذرية في الصحراء المصرية (البيدي- هامش ص ٢٨).

وهذا التوسع في مفهوم المصلحة الشخصية لا يجعل دعوى لإلغاء دعوى حسبة، لأن دعوى الإلغاء مازالت تستلزم المصلحة الشخصية المباشرة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فديانة المدعى لا دخل لها في تحديد قبول الدعوى أو عدم قبولها طالما أن هذه الديانة لا دخل لها في تحديد مركزه القانوني، وهو الأمر الذي يأخذ وزنا مختلفا في دعاوى الحسبة، فرافعها يجب أن يكون مسلم الديانة، وإذا رفعها غير المسلم تعين عدم قبولها طالما لم يقدم المتمسكون بتطبيق دعاوى الحسبة في التشريع المصري الوضعي الراهن اجتهادا جديدا ينزع عن دعاوى الحسبة غلافها الطائفي الديني لتصبح متفقة مع حقائق مجتمعتنا المعاصرة.

إن كل من فحصنا مساهمتهم فى دعاوى الحسبة من المحدثين المنتسبين للفكر الإسلامى ، وجدناهم يدللون على أن القضاء الإدارى المصرى قبل دعاوى الحسبة مستشهدين بأحكام فى دعاوى الإلغاء متجاهلين مناقشة الضابط بين التوسع فى مفهوم المصلحة وبين دعاوى الحسبة. انظر فى ذلك : النجار من ص ١٩٦ وما بعدها ، واللبيدى ص ٥٧ وما بعدها ، ود. سليم العوا- جريدة الشعب ، وفهمى هويدى -جريدة الاهرام. ولذلك سنعرض بالتفصيل لحكم المحكمة الادارية العليا ليوضح خطأ هذه الاستشهادات

دراسة حالة:

فى ١٢/ ٣/ ٧٨ أقيم الأستاذ عبد الطيم رمضان الدعوى رقم ٩٥٩ لسنة ٣٢ ق يطلب فيها الحكم بإلغاء القرار الصادر من رئيس الجمهورية بمنع أحد المستشارين نائب رئيس مجلس الدولة وسيام الاستحقاق من الطبقة الأولى على سند من أنه ما زال يتبوأ مقعد القضاء وتمرض عليه فى ساحته عشرات القضايا ضد مانع الوسام ويرر توافر الصفة لديه بالقول أنه من آحاد المحامين ومن آحاد المواطنين والمتقاضين.

ودفعت هيئة قضايا الحكومة: «بعدم قبول الدعوى لانتفاء المصلحة والصفة تأسيسا على أن أحكام القضاء الإدارى قد اضطرت على أنه يلزم لقبول دعوى الإلغاء أن يكون للمدعى فيها مصلحة شخصية مباشرة . وذلك بأن يكون المدعى فى مركز قانونى خاص بالنسبة للقرار المطعون فيه من شأنه أن يجعل هذا القرار مؤثرا فيه تأثيرا مباشرا . وقد نصت الفقرة (أ) من المادة (١٢ من قانون مجلس الدولة) على أن لا تقبل الطلبات الآتية:

(أ) الطلبات المقدمة من أشخاص ليس لهم فيها مصلحة شخصية ، وبين من ذلك عدم توافر المصلحة أو الصفة فى رافع الدعوى لأن القرار المطعون فيه لا يمس أى حق من حقوقه أو مركزا قانونيا له: (ص ١٢٨ من نص الحكم فى الطعن رقم ٦٩١ لسنة ٢٧ ق والصادر من المحكمة الادارية العليا فى جلستها المنعقدة فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٨٣- والمنشور فى مجموعة المبادئ القانونية التى قررتها المحكمة الادارية العليا -السنة ٢٩- العدد الأول- إصدار المكتب الفنى لمجلس الدولة - الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب -القاهرة- ١٩٨٨- من ص ١٢٥ : ١٣٣ - ومبين قرين كل مقتطف رقم الصفحة الموجود بها عن المجلد المذكور). ويجلسه ٩ يناير ١٩٨١ حكمت المحكمة بعدم قبول الدعوى .

وأقامت قضاياها على أساس أن المدعى تنتفى مصلحته في الطعن على القرار المشار إليه ، فهو لا يؤثر في مصلحة شخصية له تأثيرا مباشرا حتى يقبل منه طلب إلغاؤه ، وذهبت المحكمة إلى صحة القول بأن تشريعات السلطة القضائية ومجلس الدولة هي من فروع القانون العام المنظمة لولاية المحاكم وولاية القضاء والقضاة إلا أن ذلك لا يخلو لاي مواطن الحق في الطعن على القرار الصادر بالمخالفة لأحكامها ، ذلك أن القوانين التي يترتب على مخالفتها بطلان القرارات الادارية هي بحسب الأصل من تشريعات القانون العام ، ومع ذلك لا يقبل الطعن على القرارات الادارية إلا إذا مست مصلحة شخصية مباشرة لطالب الإلغاء ، ولا يقبل الطلب من أي شخص لجرد أنه مواطن يهيمه إنفاذ القانون المتعلق بالنظام العام وحماية الصالح العام ولا أصبحت دعوى الإلغاء من قبيل دعاوى الحسبة (ص ١٢٨-١٢٩).

وفي ٤ أبريل ١٩٨١ طعن المدعى على هذا الحكم بالطعن رقم ٦٩١ لسنة ٢٧ وأسس طعنه عما يتعلق بقضاء محكمة أول درجة بعدم قبول الدعوى لانتفاء الصفة على ركيزتين هما :

الأولى: تستند على الحسبة، وذهب الطاعن إلى أن الحسبة في شريعة الإسلام التي جعلها الدستور المصري المصدر الرئيسي للتشريع ، لم تشرع دعواها إلا لحماية النظام الاجتماعي والأخلاقي ، أي لحماية النظام العام والآداب العامة بالتعبير القانوني المعاصر. وأردف الطاعن أن أحكام التنظيم القضائي لمجلس الدولة والسلطة القضائية تعتبر من فروع النظام العام، فإذا نصت المادة ١٢٢ من قانون مجلس الدولة الصادر بالقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ - وتقابلها المادة ٦٨ من قانون السلطة القضائية - على تحريم معاملة عضو مجلس الدولة بأية معاملة استثنائية ، فإن هذا النص وهو يتعلق بالنظام العام ، يحرم الحكم على خلافه - ويغني للطاعن الصفة والمصلحة في الطعن على القرار المطعون فيه (ص ١٢٩).

والركيزة الثانية تستند على توافر المصلحة الشخصية المباشرة للطاعن بوصفها مناط الصفة حيث ذهب إلى أنه «يصفته محاميا يتعامل مع دائرة منازعات الأفراد والهيئات بمجلس الدولة- التي يرأسها السيد المستشار - في عديد من قضاياها المقامة على رئيس الجمهورية مانح الوسام المذكور . ومن ثم فإن للطاعن مصلحة في نقاء قاضيه وتجرده

وحيدته» (ص ١٢٩).

وبجلسة ٢٦ نوفمبر ١٩٨٣ حكمت المحكمة الادارية العليا « بقبول الطعن شكلا وفي موضوعه بإلغاء الحكم المطعون فيه وبقبول الدعوى شكلا وبرفضها موضوعا وألزمت المدعى بالمصروفات » (ص ١٣٢).

ورفضت تأسيس حكمها بقبول الدعوى لتوافر الصفة على الحسبة وأسست هذا القضاء على توافر المصلحة الشخصية المباشرة لرافع الدعوى ، أى رفضت الركيزة الأولى التى استند إليها الطاعن فى طعنه ، وقالت المحكمة تععيدا لهذا الحكم ما نصه: « ومن حيث أنه ولئن كانت المادة ١٢ من قانون مجلس الدولة الصادر بالقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ تنص على أن « لا تقبل الطلبات الآتية

(أ) الطلبات المتقدمة من أشخاص ليست لهم فيها مصلحة شخصية.

(ب) ...»

وقد أطردت أحكام المحكمة الادارية العليا على أنه يجب أن تكون تلك المصلحة شخصية ومباشرة- إلا أنه فى مجال دعاوى الإلغاء وحيث تتصل هذه الدعوى بقواعد واعتبارات المشروعية والنظام العام فإن القضاء الادارى - يؤازره الفقه- لا يقف فى تفسير شرط المصلحة الشخصية عند ضرورة وجود حق يكون القرار الادارى المطلوب إلغاؤه قد أهدره أو مسه- كما هو الحال بالنسبة لدعاوى التعويض وسائر الدعاوى الحقوقية - وإنما يتجاوز ذلك بالقدر الذى يتفق ويسهم فى تحقيق مبادئ المشروعية وإرساء مقتضيات النظام العام ، بحيث يتسع شرط المصلحة الشخصية لكل دعوى إلغاء يكن رافعها فى حالة قانونية خاصة بالنسبة إلى القرار المطعون فيه من شأنها أن تجعل هذا القرار مؤثرا فى مصلحة جدية له . وجدير بالذكر أن اتساع نطاق شرط المصلحة الشخصية فى دعوى الإلغاء على النحو السابق لا يعنى الخلط بينها وبين دعوى الحسبة ، فلا يزال قبول دعوى الإلغاء منوطا بتوافر شرط المصلحة الشخصية لرافعها .

ومن حيث إنه بتطبيق ما تقدم على الدعوى الماثلة ، يبين أن المدعى يبرر مصلحته فى إقامة دعواه بأنه بصفته محاميا له عديد من القضايا التى أقامها أمام محكمة القضاء الادارى ، وتتنظرها دائرة (منازعات الأفراد والهيئات) التى كان يرأسها السيد المستشار فى تاريخ منحه الوسام المنوه عنه ، ويختصم فيها رئيس الجمهورية - بصفته - فإن له مصلحة فى الطعن على قرار منح الوسام ضمانا لنقاء قاضيه وتجرده وحيدته.

ومن حيث إنه فى حدود ما تقدم تبلى للمدعى مصلحة شخصية فى أن يقيم دعواه الماثلة ، مستهدفا منع ما قد يكون من شأنه التأثير على حييدة القاضى أو تجرده أو استقلاله ، وليطمئن وسائر المتقاضين إلى سير العدالة على النهج الذى أمر الله به واستقرت عليه كافة النظم والشرائع ، لتستقيم موازين القسط فى يد العدالة» (ص ١٢٩-١٣٠).

٨- السند التشريعى لدعوى الحسبة:

تضمنت لائحة المحاكم الشرعية والصادرة بالمرسوم بقانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١ ، وهى اللائحة المنظمة لسير العدالة فى المحاكم الشرعية المعروفة حينذاك والتي تتولى الفصل فى منازعات الأحوال الشخصية ، السند التشريعى لدعوى الحسبة فى المادتين ٨٩ و ١١٠ من الفصل الثالث المعنون «فى سماع الدعوى» من الباب الثانى المخصص لقواعد المرافعات من الكتاب الرابع المعنون فى الاعلانات وقيد الدعوى وتقديم المستندات والمرافعات والأدلة والأحكام وطرق الطعن فيها:

فالمادة ٨٩ نصت على : « لا تسمع الدعوى إلا على خصم شرعى حقيقى»
فى حين جرى نص المادة ١١٠ على أنه: «إذا حضر المدعى أو وكيله فى الميعاد المعين وسمعت الدعوى والجواب عنها ودفعتها المدعى عليه بدفع يعتبر دعوى مستقلة ، ثم تخلف المدعى بعد ذلك ولم يرسل وكيلاً عنه فى الميعاد المعين فللمدعى عليه الخيار إما أن يطلب اعتبار القضية كأن لم تكن وإما أن يطلب السير فى دعوى الدفع بالطريق الشرعى ويعتبر المدعى عليه مدعياً والمدعى مدعياً عليه.
وهذا إذا لم يكن الدفع من حقوق الله تعالى أما إذا كان من حقوق الله تعالى فيجب على المحكمة أن تسير فيه بالطريق الشرعى».

٩- إلغاء السند التشريعى لدعوى الحسبة والاختلاف فى تفسير مدى هذا الإلغاء:

أتى القانون ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ ليُلغى العديد من مواد لائحة ترتيب المحاكم الشرعية ومن ضمنها المادتين ٨٩ و ١١٠ اللتين تمثلان السند التشريعى لدعوى الحسبة ، وبذلك أضحت اللائحة خلوا من أى سند تشريعى لدعوى الحسبة . وخضعت بذلك منازعات الأحوال الشخصية لقواعد قانون المرافعات فيما يتعلق بشروط قبول الدعوى ، طالما لم تعد هناك قواعد خاصة فيما تبقى من اللائحة أو القوانين المكملة لها تنظم هذا الموضوع ، وذلك تطبيقاً لأحكام المادة الخامسة من القانون ٤٩٢ لسنة ٥٥ والتي نصت على: .
«تتبع أحكام قانون المرافعات فى الإجراءات المتعلقة بمسائل الأحوال الشخصية

والوقف التي كانت من اختصاص المحاكم الشرعية أو المجالس المالية عدا الأحوال التي وردت بشأنها قواعد خاصة في لائحة ترتيب المحاكم الشرعية أو القوانين الأخرى المكمل لها».

واختلف الفقه والقضاء في تحديد أثر هذا الإلغاء حيث ذهب جانب من الفقه وسابريته في هذا محكمة النقض إلى استمرار العمل بدعوى الحسبة في نطاق منازعات الأحوال الشخصية ، باعتبارها المجال الخاضع تماما للشرعية الإسلامية ، كما يجد سنده في المادة ٢٨٠ من اللائحة التي تحيل القاضى إلى الراجع من المذهب الحنفى في حالة خلو اللائحة والقوانين المكمل لها من نص يحكم الموضوع المثار ، فطالما خلت اللائحة والقوانين المكمل لها من أى نص يلغى دعوى الحسبة ، وطالما أن دعوى الحسبة من الأمور التي تعد راجحة في المذهب الحنفى فيتعين قبول دعوى الحسبة تطبيقا لأحكام المادة ٢٨٠ من اللائحة.

وذهب رأى آخر إلى أن المشرع بذلك الإلغاء قد أفصح عن إرادته بخضوع منازعات الأحوال الشخصية لذات القواعد الواردة في قانون المرافعات والتي تخضع لها باقى المنازعات المدنية ، وذلك بهدف توحيد القضاء الذى يخضع له كافة المواطنين .

ويستند هذا الرأى إلى أن المادة الأولى من القانون المذكور قد نصت على « تلغى المحاكم الشرعية والمحاكم الملّية ابتداء من أول يناير سنة ١٩٥٦ وتحال الدعوى المنظورة أمامها لغاية ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٥ إلى المحاكم الوطنية لاستمرار النظر فيها وفقا لأحكام قانون المرافعات» .

ويستفاد من هذا النص ليس فقط إلغاء المحاكم الطائفية وإنما أيضا إخضاع دعوى الأحوال الشخصية لأحكام قانون المرافعات ، وحدد النص معيارا تاريخيا لبدء تطبيق أحكام هذه المادة على الدعوى المنظورة والتي ينطبق عليها هذا المعيار ، أى حدد النص النطاق الزمني لسريان أحكامه. وبذلك تخضع جميع دعوى الأحوال الشخصية الجديدة المرفوعة من ١/١/١٩٥٦ لأحكام قانون المرافعات.

١٠- المادة ٢٨٠ من لائحة ترتيب المحاكم الشرعية لا تصلح سندا تشريعا لدعوى الحسبة:

نصت هذه المادة على:

«تصدر الأحكام طبقا للمدون في هذه اللائحة ولأرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة ما عدا الأحوال التي ينص فيها قانون المحاكم الشرعية على قواعد خاصة فيجب فيها أن

تصدر الأحكام طبقاً لتلك القواعد.

وهذه المادة لا تصلح سنداً تشريعياً لدعوى الحسبة وذلك للأسباب الآتية:

أ- لم يكن هذا هو قصد المشرع من هذه المادة ودليلنا على ذلك أنه قد أقر المادة ٨٩ والمادة ١١٠ لأداء هذا الدور.

ب- موضع المادة ٢٨٠ حيث لم تأت في الباب الثاني المخصص لقواعد المرافعات- وهو الموضع الطبيعي والمنطقي الذي ينظم الصفة والمصلحة في رفع الدعوى- وإنما جاءت في الباب الرابع من الكتاب الرابع المخصص للأحكام.

ت- هذه المادة معينة بحيث تحيل القاضى إلى قواعد غير مقننة ومدونة فقد استقرت غالبية النظم القانونية الحديثة على ضرورة تبويب القواعد القانونية حتى يسهل للقاضى الرجوع إليها كما يسهل مهمة الدفاع ويحيط المواطن علماً بالتزاماته القانونية، ويسهل للمحكمة العليا مراقبة حسن تطبيق القانون.

ث- شبهة عدم دستورية هذه المادة لتعارضها مع مبدأ الفصل بين السلطتين التشريعية والقضائية حيث أحال النص للقاضى مهمة البحث عن الراجح من المذهب الحنفى، فإذا كانت القاعدة التى استقاها القاضى واضحة الرجحان فلا تثريب على عمله وتتفق بذلك شبهة عدم الدستورية المؤسسة على هذا الوجه.

أما إذا كان رجحان القاعدة أمراً مبهماً فإن ترجيح القاضى فى هذه الحالة إنما يكون عملاً متجاوزاً لنطاق البحث عن القاعدة ليدخل فى نطاق تشريعها وهو ما يخرج بالضرورة عن اختصاص السلطة القضائية ليدخل حصراً فى اختصاص السلطة التشريعية ويصعد هذا الوجه من عدم الدستورية يقول المستشار محمود عتبة:

«إن القاضى عندما يحكم بأرجح الأقوال فإنه غير معروف ما هى أرجح الأقوال فى مذهب أبى حنيفة؟ هم يقولون إن الأرجح فى هذا المذهب هو ما اتفق عليه صاحبان أبى يوسف قاضى القضاة فى عهد الخليفة الرشيد وهو واضح كتاب الأموال فقط عن فقه أبى حنيفة. أما صاحب الثانى محمد فقد جمع كافة ما يتعلق بالمذهب الحنفى، وبالتالي فإنه غير معروف ما هو الراجح فى هذا المذهب (أخبار الأنب- العدد ٣٦- فى ١٤/١- ٩٥- ص ١٠).

وهناك وجه آخر لعدم الدستورية حيث قصرت هذه المادة الشريعة الإسلامية على مذهب واحد وهو قصر غير مبرر، وهذا القصر يرجع تاريخياً لفترة الاحتلال العثمانى لمصر حيث كان المذهب الحنفى هو المذهب الرسمى للدولة العثمانية.

ج- عدم دستوريته استنادا إلى عدم نشر القواعد الراجعة من هذا المذهب في الجريدة الرسمية، فالمادة ١٨٨ من الدستور تستلزم نشر القوانين في الجريدة الرسمية خلال أسبوعين من يوم إصدارها فإنتشر هنا بعد ركنا جوهريا تخلفه بعدم القاعدة القانونية محل البحث.. وبذلك تفقد القواعد الراجعة من المذهب الحنفى خاصية القواعد القانونية.

١٢- المادة الثانية من الدستور لا تصلح بمفردها كسند تشريعى لدعوى الحسبة؛

جعلت المادة الثانية من الدستور- بعد تعديلها أثناء حكم السادات- من مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع، ومع هذا لا تصلح هذه المادة بمفردها كسند تشريعى لدعوى الحسبة، وذلك يرجع إلى أن هذه المادة غير نافذة بذاتها ، فلا يجوز للمحاكم أن تتولى تطبيقها مباشرة، وإنما الأمر فى حاجة لتدخل المشرع لتقنين تلك المبادئ فى قواعد قانونية . وهذا التحديد لنطاق المادة الثانية من الدستور ليس اجتهدا من قبلنا نحن إنما هو ما قرره محكمتنا الدستورية العليا حيث ذهب إلى أن:

«نص المادة الثانية من الدستور غير نافذ بذاته ويتضمن فى حقيقته خطابا موجها إلى المشرع لحث على إعادة النظر فى التشريعات القائمة وفقا لمبادئ الشريعة الإسلامية التى يجب أن تصدر التشريعات الجديدة متوافقة معها. فالخطاب فى هذا النص الدستورى موجه إلى المشرع لا إلى الكافة ولا إلى القضاء وبهذه المثابة فإن مبادئ الشريعة الإسلامية لا يكون لها قوة إلزام القواعد القانونية إلا إذا تدخل المشرع وقتنها أما قبل ذلك فإنها لا تكون مصدرأ موضوعيا للتشريع».

وأضافت المحكمة الدستورية أنه: لو أراد المشرع الدستورى جعل مبادئ الشريعة الإسلامية من بين القواعد المدرجة فى الدستور على وجه التحديد أو قصد أن يجرى أعمال تلك المبادئ بواسطة المحاكم التى تتولى تطبيق التشريعات دون ما حاجة إلى أفرادها لنصوص تشريعية محددة مستوفاة للأجراءات التى عينها الدستور لما أعززه النص على ذلك صراحة : (حكم المحكمة الدستورية العليا طعن رقم ١٠ / ٧٠ ق جلسة ١٩٨٥/٥/٤).

١٣- دعوى الحسبة تتعارض مع المادة ٤٠ من الدستور التى كفلت مبدأ المساواة بين

المواطنين:

أرسى الدستور المصرى الصادر عام ١٩٧١ فى المادة ٤٠ منه مبدأ المساواة بين المواطنين أمام القانون وحظر كافة أشكال التمييز بين المواطنين بسبب الدين أو الجنس

بحيث نصت على أن:

«المواطنون لدى القانون سواء» وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة ، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة».

وحيث إن قوام فكرة دعاوى الحسبة هو منح المواطن المسلم الحق في رفع دعاوى الحسبة وسلب المواطن غير المسلم هذا الحق فإنها بذلك تقيم تمييزاً بين المواطنين قائماً على تفرقة دينية. كما تقيم تمييزاً آخر بسبب الجنس، عندما تمنح الذكر المسلم حقوقاً أوسع مدى من تلك التي تمنحها للمرأة المسلمة . وبذلك تتعارض دعاوى الحسبة مع مبدأ المساواة الدستوري.

ومن المستقر قضائياً أن مبدأ المساواة لا يسرى إلا على من يشغلون مركزاً قانونياً واحداً ، وفي حالتنا توجد وحدة في المركز القانوني بين المسلمين وغير المسلمين في بعض منازعات الأحوال الشخصية حيث تخضع منازعات غير المسلمين الشخصية للشرعية الإسلامية في أحوال معينة ، وفي ذلك تقول محكمة النقض:

«مؤدى المادتين السادسة والسابعة من القانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ بإلغاء المحاكم الشرعية والمالية أن ضابط الإسناد في تحديد القانون الواجب التطبيق في مسائل الأحوال الشخصية للمصريين هو الديانة ، بحيث تطبق الشرعية الإسلامية على كل المسلمين وغير المسلمين المختلفين في الملة أو الطائفة ، وتطبق الشرعية الطائفية على غير المسلمين المتحدى الملة والطائفة، (نقض الطعن رقم ٢٩ لسنة ٤٧ في جلسة ٢٨/٣/٧٩ س ٣٠ مج فنى مدنى- ص ٩٦٨) ، كما تشترك المرأة المسلمة مع المواطن المسلم في ذات المركز القانوني فيما يتعلق بمنازعات الأحوال الشخصية.

١٤- فكرة النظام العام كما يعرفها القانون الوضعي المصري لا تتسع ادعاوى

الحسبة:

تقوم فكرة النظام العام على مذهب علماني عام يطبق على الجماعة بأسرها ، رغم اختلافهم في معتقداتهم الدينية . وتطبيقاً لذلك لا يمكن أن نعتبر تعدد الزوجات جزءاً من النظام العام يخضع له المواطنون المصريون غير المسلمين رغم كون الإسلام دين غالبية السكان والدين الرسمي للدولة، ورغم أن مبادئ الشرعية الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع . وهذا الفهم مستمد من أحكام محكمة النقض المصرية حيث ذهبت إلى: «وحيث أنه وإن خلا التقنين المدني والقانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ من تحديد المقصود

بالنظام العام ، إلا أن المتفق عليه أنه يشمل القواعد التي ترمى إلى تحقيق المصلحة العامة للبلاد ، سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية والتي تتعلق بالوضع الطبيعي الكادى والمعنوى لمجتمع منظم، وتعلو فيه مصالح الأفراد ، وتقوم فكرته على أساس مذهب علمانى بحث. يطبق مذهباً عاماً تدين به الجماعة بأسرها ، ولا يجب ربطه البتة بأحد أحكام الشرائع الدينية وإن كان هذا لا ينفي قيامه أحياناً على سند مما يمت إلى العقيدة الدينية بسبب ، متى أصبحت هذه العقيدة وثيقة الصلة بالنظام القانونى والاجتماعى المستقر فى ضمير الجماعة بحيث يتأذى الشعور العام عند عدم الاعتداد به ، مما مفاده وجوب أن تنصرف هذه القواعد إلى المواطنين جميعاً من مسلمين وغير مسلمين بصرف النظر عن ديانتهم ، فلا يمكن تبعية فكرة النظام العام وجعل بعض قواعده مقصورة على المسيحيين وينفرد المسلمون ببعضها الآخر، إذ لا يتصور أن يكون معيار النظام العام شخصياً أو طائفيًا، وإنما يتسم تقديره بالموضوعية متفقاً وما تدين به الجماعة فى الأغلب الأعم من أفرادها (انظر فى ذلك الحكم فى الطعن رقمى ١٦ ، ٢٦ لسنة ٤٨ ق والصادر فى ١٧ يناير ١٩٧٩ - أحكام نقض - س. ٣٠ - العدد الأول - ص ٢٨٨ وما بعدها).

أى أن معيار النظام العام لا يبنى على أسس شخصية أو طائفية ، ولا يرتبط بأحكام أحد الشرائع طالما لم تتضمن تلك الأحكام فى النظام القانونى . فالقول بأن دعاوى الحسبة تستمد سندها من فكرة النظام العام ، إنما يعنى الأخذ بمعيار يؤدى إلى تبعية وتجزئة فكرة النظام العام حيث يقيم تفرقة على أساس دينى بين المواطنين بأن يمنع المسلمين منهم حق رفع دعاوى الحسبة ويحرم غير المسلمين من هذا الحق . كما يقيم تمايزاً بين الذكور والإناث داخل أبناء الدين الواحد . وهو الأمر الذى يهدم فكرة النظام العام من أساسها .

النتائج:

- ١- ضرورة تقنين ما يراه المشرع من أحكام الشريعة الإسلامية فى قانون، وإلغاء الإحالة الواردة فى المادة ٢٨٠ من اللائحة للراجع من المذهب الحنفى.
- ٢- إضافة نص جديد إلى اللائحة يقضى صراحة بسريان قانون المرافعات على منازعات الأحوال الشخصية وذلك فيما يتعلق بتحديد شرطى الصفة والمصلحة فى رافع الدعوى وهو ما يعنى إلغاء دعاوى الحسبة من قانون الأحوال الشخصية.

